



الإمارات العربية المتحدة
وزارة التربية والتعليم

نحن
الإمارات
WE THE UAE
2031

2025-2026

جيلبير سينويه

الصقور

ترجمة: صالح الأشمر



الصف
12

منشورات الجمل

رواية

الصقور

رواية

جيلبير سينويه

ترجمة: صالح الأشمر



منشورات الجمل

شكر وتقدير

أهدي هذا الكتاب إلى الناقد والأديب الدكتور علي بن تميم، هو الذي، منذ أولى اللحظات، وعلى امتداد هذه الرحلة، رافقني في هذا العمل بكامل اللطف، دون أن يكلّ أو يعيل صبره. أعبر له هنا عن كلّ امتناني.

كما أتوجه بجزيل الشكر إلى الدكتور زكي نسيبة، هو الذي رافق طيلة ما يقرب من أربعين عاماً بطل هذه الرواية، وله مني كلّ الشكر.

ولا أنسى صديقي الشاعر والناقد الأدبي والمترجم كاظم جهاد حسن، الذي قرأ بسخاءٍ كلّ سطر في مخطوطة هذا العمل وجنّبي هفوات عديدة.

نواتج التعلم

- يُحلّل روايةً فنيّةً موضّحاً فكرتها، وخصائصها، وتطوّر أحداثها، ومقومات شخصياتها.
- يبيّن سرعة سير الأحداث، والذكريات التي يفكر فيها شخص النص، وإشارات ما يمكن أن يحدث في المستقبل، مقيماً تأثير هذه الخيارات في أحداث التوتّر والمفاجأة. يحلّل المتعلّم تطوير الكاتب للزمن من خلال تقنية الاسترجاع.
- يحلّل تطوير الكاتب للزمن من خلال تقنية الاسترجاع.

قيل إنّ ذلك حدث منذ زمن بعيد. كان الحرّ شديداً كالسّعير. وكان صياداً يطارد ظبياً في الصحراء، وهو على ما يبدو يعاني من شدّة العطش. فمضى يبحث عن بئر. فعثر على بئر ناشفة. بعد حينٍ عُثِرَ على جثة الصياد مُمدّدة إلى جوار الظبي الميت. كلاهما ماتَ ظمأً. أقيم حيث قضى الرّجل برّج مراقبة. ولمّا لم يكن الرّجل معروف الاسم فقد أُطلقت عليه كنيةٌ هي «أبو ظبي»، ولعلّها كانت سبباً في تسمية المنطقة، ثمّ في تسمية عاصمة دولة الإمارات.

الفهرس

يتم تعريف المحتوى على تطبيق التعلم الذكي



8	الفصل الأول
20	أسئلة الفصل الأول
23	الفصل الثاني
42	أسئلة الفصل الثاني
45	الفصل الثالث
61	أسئلة الفصل الثالث
63	الفصل الرابع
73	أسئلة الفصل الرابع
75	الفصل الخامس
92	أسئلة الفصل الخامس
94	الفصل السادس
115	أسئلة الفصل السادس
117	الفصل السابع
127	أسئلة الفصل السابع

129	الفصل الثامن
142	أسئلةُ الفصل الثامن
145	الفصل التاسع
161	أسئلةُ الفصل التاسع
163	الفصل العاشر
173	أسئلةُ الفصل العاشر
174	الفصل الحادي عشر
192	أسئلةُ الفصل الحادي عشر
195	الفصل الثاني عشر
215	أسئلةُ الفصل الثاني عشر
218	الفصل الثالث عشر
238	أسئلةُ الفصل الثالث عشر
240	الفصل الرابع عشر
257	أسئلةُ الفصل الرابع عشر
258	الفصل الخامس عشر
270	أسئلةُ الفصل الخامس عشر

272	الفصل السادس عشر
293	أسئلة الفصل السادس عشر
295	الفصل السابع عشر
312	أسئلة الفصل السابع عشر
314	الفصل الثامن عشر
337	أسئلة الفصل الثامن عشر
338	الفصل التاسع عشر
351	أسئلة الفصل التاسع عشر
353	الفصل العشرون
367	أسئلة الفصل العشرون
369	الفصل الحادي والعشرون
381	أسئلة الفصل الحادي والعشرون
383	أسئلة ختامية



1

من بطن أمي، متى خرجتُ؟
أيّ أمير، أيّ ملك، يمكنه أن يقتلع
جذوره حقاً من هذا الملكوت؟

أكتوبر 2004، العين.

الناس تحيا وتموت.

ها أنذا وحياتي تؤذن بالأفول.

عمري ستة وثمانون عاماً.

أنا في السادسة والثمانين من العمر؟ أو أكثر؟ أو أقل؟ من فضائل الشيخوخة أنّ ذاكرة الإنسان لا تحتفظ إلا بالجوهريّ.

لكنّ ثمة يقين: إنني أحتفظ بألف عام من الذكريات.

في ساعة الأصيل هذه، والشمس تجنح نحو الغروب،
وأنا متربّع على قمة هذا الكثيب مثلما كنت أفعل في شبابي،
تترأى لي تلك الذكريات، متتابعة على خطّ الأفق.

وجوهٌ محبوبة، كلّها محبوبة، محبوبة بشغف.

أرى مُدناً متداخلة في فِروة الزمن، مُدناً بجادات عريضة
مُستوحاة من مُدن أخرى تنتصب هنا، على أرضي حيث لم
يكن سوى دروب الريح. أرى ناطحات سحاب وحدائق حيث
لم يكن ينبت غير الحصى. أرى نخيلاً، مزارع نخيل. أرى
مدارس وجامعات ومستشفيات ومتاحف، وكثيراً من أحلام
أخرى أصبحت حقائق. أرى سراباً أصبح حجارةً وفولاذاً.

لم يكن ذلك سهلاً، لكنّ القيام به كان شديداً الإغراء.

أخرجتُ من عمق الصحراء بلاداً يعرف أهلُ الغرب
اسمها، فهل تعرفون اسمي أنا؟ حسناً، سأُعلمكم به:

اسمي زايد بن سلطان آل نهيان.

من آل نهيان، من قبيلة بني ياس.

صنعتُ أُمَّةً كما يُشكّل الخزّافُ الصلصالَ. فعلتُ
المستحيلَ. بلغتُ ضفافاً زعم الجميع أن بلوغها متعذّر. لم
أفعل ذلك لمجدي أبداً، بل لمجد قومي. ولم أكن وحيداً.
صحبتني ذكرى آبائي وأجدادي، أولئك الذين تحمّلوا بصبرٍ
أعباءَ حياة صعبة، في بيئة قاسية، ومُناخ لا يرحم.

اسمي زايد بن سلطان آل نهيان.

أنا حفيد زايد الكبير.

طوال قرون لم يطرأ تغيير يُذكر على هذه المنطقة من
العالم حيث ولدتُ: تموّجات الكثبان والشواطئ الفضّية أنعم
من المُخمل. في القرن الخامس عشر جاء البرتغاليون. أسّسوا
وكالات تجارية في المنطقة، وطوّروا تجارة اللؤلؤ والذهب،
ثمّ أبحروا بعيداً، ولم يتركوا وراءهم سوى مدافع برونزية
ضخمة مصوّبة نحو الأفق.

في ما بعد جاء الهولنديّون، ثمّ الأتراك العثمانيون إلى

المنطقة ولم يستطيعوا الاقتراب منّا. اقتصر حضورهم على
حاميات صغيرة أقاموها على التخوم الغربية من الخليج العربي،
ثمّ استسلموا لخدر الرمال.

مرّت عقود أيضاً.

وشهد القرن التاسع عشر وصول الإنجليز. وقد وضع
مسؤولو المكتب البريطاني في الهند الخليج وبلادي تحت
حمايتهم لمصلحة العرش البريطاني، وذلك حتى عام 1971.

في تلك الأزمنة البعيدة كانت قبيلة بني ياس - إحدى
القبائل الكبيرة في شبه الجزيرة العربية - مؤلفة من عدّة
أفخاذ. وكان التاريخ المشترك، الذي يتجاوز صلة الدم، هو
الذي وحدهم.

أغمضوا أعينكم.

تخيّلوا آلافاً مؤلفة من السهول الرملية، والشجيرات التي
أحرقتها الشمس. مساحة شاسعة مخيفة لا يغامر باجتيازها
سوى الأبطال. على طرف هذا الرّبع الخالي، في واحة ليوا،
حطّ بنو ياس الرحال، ومن هذا المكان المبارك بدأ كلّ شيء.

آل نهيان، زايد، بنو ياس، الظفرة، أبو ظبي، الإمارات...

تَرِنُ في رأسي تلك الأسماء هذا المساء كقرع طبول.

أسمعها، أسمعها.

رافقتني منذ ولادتي وستكون حاضرة في ساعة موتي.

أتذكر كل شيء.

نحن من البدو، ولا نزال في أعماق نفوسنا بدواً. نحن
صيّادون، جمّالون، مُروّضو صقور، شيوخ، رُعاة، جوّابو
آفاق، وشعراء وتجار أيضاً. الشعر! آه! الشعر، لشدّما أحببتُ
هذا الفنّ! في أوقات الوحدة، والشقاء أو السعادة، تفتّق
قريحتي بعفوية عن أبيات من الشعر كإيماض البرق في الليل.
في الحقيقة مَنْ هو الشاعر إن لم يكن إنساناً يستشفّ، من
خلال ظلمات هذا العالم غير المرئي، عِلّة وجوده ويلمح على
نحو أفضل خيوط الفجر الأولى؟

أصغوا جيّداً.

اسمعوا هذه الأشعار المرثلة، المكتوبة والمستظهرة، التي
ينشدها الركبان في قلب القوافل وتأمّلوا الإبل المسحورة التي
تنقل خطواتها على إيقاع القوافي.

كان إخواني من ذوي الفراسة، يتنقلون دون بوصلة
معتمدين على الذاكرة ومهتدين بالنجوم ومعالم الطبيعة، حتى
أن بعضهم كانوا مهرة في قصّ أثر إبلهم على الرمال: أين
ذهبتُ ومن أين أتتُ! لكن رغم احتفائهم بالأصالة وذكريات
الجِمال والخيول استقلّوا سيّارات الدفع الرباعيّ ليواصلوا
المسيرة في الصحراء.

حلّ التلفزيون مكان نيران المخيم. لسبب وجيه رفعتُ
شعبي إلى مستوى الحداثة، وألّفتُ بين جماعات متباينة
بماضيها الحافل بالتنافس، متفاوتة من حيث المكانة والثروة،
جمعتها وجعلتُ منها أمة واحدة. أنا فخور بذلك، واليوم لدينا
كلّ أسباب الحياة الحديثة وأنماطها، ونسافر عبر الأجواء،
غير أنّ تقاليدنا ما زالت راسخة وعنيدة.

كان جدّي قد بلغ العشرين من العمر عندما أصبح حاكماً لأبوظبي عام 1855. كان يشعّ بالحكمة وبعُد النظر. كان نسيج وحده. في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى صار جدّي الشخصية الأكثر أهميّة ونفوذاً مقارنةً بسائر الشيوخ. طوال مُدّة حكمه المديدة - 55 عاماً - شهدت بلادنا فترة من النفوذ وعلوّ المكانة لم يسبق لها مثيل. لم يعتمد في تثبيت سلطته على القوة بل على التوازن الدقيق بين الحقوق والواجبات. بالإضافة إلى تعزيز مكانته الشخصية وتوطيد الأمن الداخلي، قام هذا القائد الاستثنائي بإلغاء الرقّ، وحضّ على تعليم الفتيات، وتمكّن من بسط سلطانه على العديد من القبائل التي كانت حتى ذلك الحين مخلصه لمنافسيه. كان هذا النجاح في إحلال الوئام بين زعماء يتطلّعون إلى أن يكونوا سادة أنفسهم، وسادة على الآخر أيضاً، إنجازاً كبيراً في هذه البيئة الصحراوية القاسية حيث الحياة هي قبل كلّ شيء صراع من أجل البقاء.

يا أهل الغرب، أنتم الذين تعيشون فوق سهول وبقاع خضراء، حيث الأمطار غزيرة، والحيوانات والنباتات في متناول اليد، لا يمكنكم أن تتخيّلوا قسوة الصحراء التي عشنا

فيها. إنها بيئة مهولة لا تتساهل مع أيّ ضعف، تهبّ فيها رياح جافة تتقلّص منها شفاهكم وتشقق وتملاً حبيبات الرمل الدقيقة أهدابكم فتبدو مُقتلعة تاركة في العراء عيونكم المنقبضة من الألم. ومن الغريب أنني في هذا المكان بالذات أشعر بأنني في أفضل حال. وكلّما أتاحت لي مسؤولياتي الفرصة كنت أقصد سفوح الكثبان الرملية لكي أستعيد أصالتي. وبينما أستعد لتسليم روعي إلى بارئها أشعر بعطش لا يرتوي إلى هذه الفضاءات حيث كلّ ما ليس ضرورياً يصبح زائداً وغير مُجد.

كنا منقسمين في تلك الأزمنة القديمة فئتين، فئة ترعى الماشية في المناطق الداخلية من البلاد، وفئة تجمع بين البرّ والبحر وتشكّل الغالبية، تقصد الساحل حيث اكتُشف كنز: اللؤلؤ. زهاء أربعة أشهر في السنة، ابتداءً من شهر مارس وحتى منتصف الصيف، كان الرجال يذهبون على متون سناييكهم⁽¹⁾، بحثاً عن اللآلئ، التي سمّاها أحد الشعراء «دموع الآلهة»، وغالباً ما كانوا يقصدون مغاصات اللؤلؤ المشهورة بغنى

(1) جمع «سُنوك»، وهي سفينة شراعية كانت تُستخدم للغوص على اللؤلؤ في منطقة الخليج. (ملاحظة من المترجم. من الآن فصاعداً تُختصر إلى: م. م. وكلّ الحواشي غير المنسوبة إلى أحد هي من وضع المؤلف).

أعماقها، وكانوا يطلقون عليها اسم «الهيرات». كانت تلك فترة الازدهار الكبير.

كان الغوّاصون يعملون طوال اليوم. يستعينون بحجر كبير لتسريع نزولهم، وعندما يوشك الهواء على النفاد يُرفعون إلى السطح بواسطة حبل يسحبه أحد البحارة على الزورق هذه هي مهمته. يبقون تحت الماء ما بين دقيقتين إلى أربع دقائق يجمعون خلالها بواسطة قفّازات جلدية الأصداف التي يضعونها في سلال معلقة بأوساطهم. أدواتهم تقتصر على مِلْقَط من عظم لسدّ المنخرين. كان تكرار الغوص يُنهك الجسد وكلّ من يمارسونه يعانون من مشكلات في السمع، إن لم يصبحوا صُمّاً. لا يمكنون طويلاً تحت الماء، لكن كثيراً منهم يصعدون وأنوفهم تنزف دماً، زد أنّ بعضهم كان يبقى مثقلاً بالدين حتى نهاية حياته، وبعد مماته ترث عائلاتهم تلك الديون. أمرٌ فظيع، لكن هذا هو الواقع. لم يكن لآبائي من خيار آخر. كان علينا أن نحيا، وأن نبقي أحياء.

ترتسم على شفّتيّ ابتسامة عندما أُعيد التفكير في هؤلاء البحّارة الذين لم يكن البحر، شقيق الصحراء، في نظرهم إلاّ ألغازاً: ماذا يوجد تحت السطح؟ أيّ وحش؟ أيّ كنز؟ لماذا

كان الماء مالحاً؟ من أين تأتي الريح؟ حتى القدماء لم يعرفوا الإجابة.

اللؤلؤ، ولكن التمور أيضاً، ثمرة النخلة المباركة الوفيّة التي تشبه أهلها انتماءً وصبراً وجلادة وعطاء.

كان جدّي شغيفاً بالزراعة والريّ، مدركاً أنّهما شريان حياة. في بلاد ينذر فيها الماء أو يكاد ينعدم يصبح العثور عليه الهاجس الدائم. الماء ذهبُ الصحراء. ما إن تنزل القطرة الأخيرة على شفاهنا حتى ندرك أن القيمة الحقيقية للحياة تُقاس بقدرتنا على مقاومة العطش. كان الماء متوفراً بغزارة في واحة العين. هبةً من الله العليّ القدير. لكنه كان في سُببات تحت الرمال منذ آلاف السنين. يجب إذن إخراجُه من تحت الرمال، وتنظيم تدفّقه عبر قنوات. عبر الأفلاج. هذا ما تفرّغ له جدّي. لا أقلّ من ثمانية عشر شهراً كان الوقت الذي احتاج إليه جدّي لحفر أوّل هذه الأفلاج: فلج الجاهلي. وفي ما بعد، عندما جاء دوري، تابعت عمله وطوّرتُه.

خلال تلك السنوات الطويلة كنت أتساءل من أين أستمدّ الطاقة الضرورية لأقوم بما قمت به؟ أنا البدوي قبل كلّ شيء،

ابن الصحراء، الذي تعلّم القراءة متأخراً إلى حدّ ما، من أين جاءتني هذه القوة الغامضة؟ لا يُنجز المرء أعمالاً عظيمة إلا إذا كان مُلهماً من قوة أكبر. اليوم، وأنا في مغرب حياتي، أعتقد أنني عثرتُ على الجواب: أعطِ، وأحبّ. هل من قوى تُقارَن بالحبّ والعطاء؟ من لم يُصب أبداً بهذه الحمى لا يمكنه أن يفهمني.

في ساعة الاستذكار هذه أُلقي نظرة عن طريق الفكر على أبنائي. إنهم اليوم رجال أفخر بهم. وأفكر في زوجتي الشيخة فاطمة، الضوء المتألق الذي أنار أربعين عاماً من حياتي. سأعود لأحدّثكم عنها حتماً.

أفكر أيضاً في أمّي، سلامة، رحمها الله، سلامة بنت بطي، من قبيلة القُبيسي الكريمة.

لقد بثت في وجداني مبدأ ثابتاً: ألاّ أختار العنف أبداً؛ وأن أفضل السلام على النزاع دوماً. كانت مقتنعة بأن الشرّ لا يُقضى عليه إلاّ بالخير وحده.

أكان يوماً من أيام الربيع أو الخريف ذلك اليوم الذي استدعتنا فيه، إخوتي وأنا؟ كانت ترتدي برقعها الأسود، دعتنا

بوقار إلى الجلوس وخاطبتنا قائلة: «احلفوا، يا أبنائي، إحلفوا
ألا تقتلوا أبداً، إحلفوا لي أن أياً منكم لن يسفك دم الآخر.
احلفوا!».»

حلفنا. ولم ننكث بحلفنا قطّ.

لم يكن طلب والدتي سلامة أن نُقسم أمامها بغير سبب.
بعد وفاة جدّي، زايد الكبير، عرفت عائلتنا تصدّعات، وليالي
أدمت العمر. كان ثمة حداد ودموع. وأحزان أعمق من البحر.
وخسائر، كخسارة والدي الذي انتزع مني بوحشية وعنف
وأنا طفل في الثامنة من العمر. حفظت التاريخ في ذاكرتي:
الرابع من أغسطس 1926. ولكن لماذا العودة إلى الماضي؟
النسيان نعمة وليس من المستحبّ إيقاظ الأشباح من سباتها.
منذ أكثر من ثلاثين سنة استدعى خالق الأكوان أمّي
الحنون، سلامة، إلى جواره. من بطن أمّي، متى خرجت؟
أيّ أمير، أيّ ملك، يمكنه أن يقتلع جذوره حقاً من هذا
الملكوت؟ أنا على يقين بأن أولئك الذين لم يذرفوا الدموع
على ذكرى أمّهم ليسوا من البشر. في شيخوختي هذه
يحدث لي أن ألوذ بذكرها. بها أستعيد أصالتي حين تحتجب
النجوم وتجتاحني الأحزان.

أسئلة الفصل الأول

1. عكست العبارة الآتية « من بطن أمي متى خرجت؟ أي أمير أي ملك يمكنه أن يقتلع جذوره حقاً من هذا الملكوت» العديد من الجوانب الثقافية والفلسفية التربوية، اشرح ذلك بلغتك.
2. ما الذي يوحي به قول الكاتب في العبارة الآتية: « أرى سراباً أصبح حجارةً وفولاًذاً » ؟
3. ما الذي تستنتجه من العبارة الآتية « صنعتُ أُمَّةً كما يشكُّ الخزّافُ الصّلصالَ »؟
4. قدّم الكاتب وصفاً رائعاً لجمال الصحراء، اقرأ الفقرة الدالة على ذلك، وحاول مع زميلك رصد الكلمات والجمل المعبرة عن ذلك . وما الاستنتاجات التي قد يستنتجها القارئ من هذا الوصف عن الصحراء وطبيعتها؟
5. أظهر الكاتب في الفصل الأول بعض المهن التي كان يمارسها البدو تتبع هذه المهن وبين العلاقة بينها وبين طبيعة الصحراء.

6. وضح الوظيفة البلاغية في العبارة الآتية « الشعر ! آه الشعر ، لشدّما أحببتُ هذا الفنّ ! في أوقات الوحدة، الشقاء، أو السعاد، تتفتّق قريحتي بعفوية عن أبيات من الشعر كمايماض البرق في الليل».«.

7. استخرج من النصّ بعض القصص التي تدل على ذكاء البدو، موضّحاً رأيك فيها.

8. جاء في النصّ « نحن من البدو، ولا نزال من أعماق نفوسنا بدوًا» ماذا تعني هذه العبارة؟

9. كان الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - رحمه الله - معجبًا بجده الشيخ زايد بن خليفة آل نهيان - رحمه الله - استخرج العبارات التي تدل على هذا.

10. لماذا أحب الشيخ زايد الكبير - رحمه الله - الشعر؟ ومن هو الشاعر برأيه؟

11. يضعُ الكاتبُ القارئَ في هذا الفصلِ أمام مهنة مهمة في ذلك الوقت، صف هذه المهنة، وكيفية ممارستها، وما الآثار الإيجابية والسلبية لها.

12. علّل سبب وصف الماء بذهب الصحراء حسب فهمك للرواية.

13. اعقد حلقة نقاشية مع زملائك وناقشوا العبارات الآتية:

- «العطاء هو أول عطر يخرج من شجرة الحب»

- «الشر لا يقضى عليه إلا بالخير وحده»

- «النسيان نعمة، وليس من المستحب إيقاظ الأشباح من سباتها»

2

لكلّ شيء أوانه تحت السماء.

واحة العين، 15 سبتمبر 1948

كانت شمس قاسية لا ترحم تلقي بأشعتها اللاهبة على
جدران قصر المويجعي القديم حتى لتكاد تسحقها. هذا
القصر كناية عن حصن مهيب مربع الشكل مبنيّ من الآجرّ في
كلّ زاوية من زواياه برج بارز وله بوّابة ضخمة.

قفز ولفريد ثيسغر بخفة عن رَحْلِ جملة وراح ينفذ
الغبار عن ثيابه ويسوي وضع غترته على رأسه. من بعيد كان
يتراءى رأس جبل حفيت، ذروة البلاد. وكان ثمة رجال
يسندون ظهورهم إلى أحد جدران الحصن جالسين على بُسْط
مفروشة على الرمال متحلّقين حول شخص يناهز الثلاثين

من العُمر ذي لحية داكنة ووجه مربع. كان يرتدي كندورة بيضاء وصداراً مفتوحاً بلا مبالاة. كان يُميّزه عمّن يحيطون به الشريط الأسود لغترته المرسلة على الكتفين غير مضمفورة على الرأس. علّق في وسطه خنجراً وكان حزامُ خرطوش مشدوداً على خاصرتيه. وفي متناول يده بندقية لا شك في أنها من طراز أنفيلد.

إنه الشيخ زايد، وهو الذي جاء ولفريد لرؤيته.

هو الأخ الأصغر للشيخ شخبوط - الذي يحكم البلاد منذ عشرين عاماً - ويشغل منصب حاكم منطقة العين الواقعة على مسافة مائة وستين كيلومتراً من العاصمة. عاصمة كان معظم الناس يجهلون أنها تقع على جزيرة. جزيرة أبوظبي. كانت منزلة الرجل عظيمة لدى مواطنيه. وكان يبدو لهم رجلاً بسيطاً محترماً لما يتميز به من حكمة وما يتصف به من قوة جسدية. «زايد بدويّ، كانوا يقولون، يعرف الجمال ويُحسنُ ركوبها مثلنا تماماً. بارعٌ في إطلاق النار براعته في القتال».

عرّف الإنجليزي بنفسه.

- سلام عليكم. أنا...

- ولم يكمل عبارته.

- وعلیکم السلام. أعرفُ مَنْ أنت. أنت إنجلیزی. اسمك
ولفريد تيسیغر. أنت ذلك المغامر الذي تجرّأ على تحدّي
صحراء الصحاري. وأنت الآن في طريقك إلى عُمان. تعال،
اجلس، أهلاً وسهلاً بك في بَرزَتنا. أخبرني أخي بقدومك.

بَرزَة... يقال أيضاً مجلس. تقليد قديم يتمثل في اجتماع
القوم للتداول في كلّ شيء أو لاشيء. هذا المجلس للشيخ أو
الحاكم وسيلة للتواصل مع رعيتّه.

ما إن جلس ولفريد حتى قدّم له خادم القهوة في فنجان
صغير.

- قدّم لي الشيخ شخبوط مساعدة كبيرة، قال تيسیغر،
وكان من الطيبة أن تفضّل عليّ بدليل يرشدني طوال الطريق.

- هذا لا يُدهشني. أخي يحمل قلبه على يده. مُحبّ
لفعل الخير. إذن، تريد الذهاب إلى عُمان؟ الطريق غير آمنة
وأظنّ أنك تعرف ذلك. سوف تتعرّض لمخاطر كثيرة.

ابتسم الإنجليزي.

- سبق لي أن غامرت في صحراء الصحاري.

- بالتأكيد، لكن الطبيعة أقلّ فظاظة من الناس أحياناً.

لماذا هذه الرحلة؟

- الدافع إليها هو الفضول كالعادة لكنني أقوم بها بوجه خاصّ لأنني أعتقد أن تقاليد البداوة سوف تتقلّص شيئاً فشيئاً، لذلك أريد معرفتها والحديث عنها لكي أنقذها من النسيان.

- قصدُ نبيل. لكنك تقتحم عالماً مترامي الأطراف لا

تكفي حياة واحدة لاجتيازها.

أوماً ولفريد موافقاً.

كان في الثامنة والثلاثين من عمره. وُلد في أثيوبيا حيث كان والده مندوب المملكة المتحدة. شُغِفَ منذ طفولته بحياة البادية والصحراء. منذ كان في السادسة عشرة من العمر قرّر أن يكرّس حياته لارتياح أكثر الأماكن نأياً وعزلة في شبه الجزيرة العربية. كان يدوّن انطباعاته ويرسم على أوراقٍ الأشخاص الذين يلتقيهم. طبعاً، لم يكن يخمّن أن آخرين سوف يحدون

حذوه ويأتون بمعلومات أكثر فائدة من معلوماته، غير أنه كان مقتنعاً بأنهم لن يكونوا أبداً قادرين على إدراك الشيء الجوهري: الروح السريّة لهذه البلاد. ستكون قد اختفت.

قدّم الخادم لهما القهوة مجدّداً دون أن يطلبها أيّ منهما. وسوف يستمرّ على هذا المنوال ما لم يقم الشيخ أو ضيفه بهزّ الفنجان بين أصابع يده اليمنى علامة على أنّهما لا يريدان المزيد.

- فعلاً. لقد ذهبت إلى هناك.

- كيف نجحت في الدخول إلى أراضيهم؟

- زعمت أنني تاجر سوري.

ضحك زايد.

- لقد حالفك الحظ. ما كنت لأفعل ذلك.

فجأة غير الموضوع سائلاً:

- هل تعرف شخصاً يُدعى بيرد، إنجليزي هو أيضاً؟

- نعم، ريتشارد بيرد. تعرّفت إليه منذ ثلاث سنوات في

البحرين. إنه ممثل شركة النفط العراقية. أعلم أنه يسكن حالياً في مكان قريب من هنا. عندما علم أنني قادمٌ عرض عليّ الإقامة عنده لكنني رفضت. إذا ما ارتبط اسمي بشركة نفط فإنّ ذلك يجعل دخولي الأراضي العُمانية محفوفاً بالمخاطر. لماذا هذا السؤال؟

- لأنّ بيرد هذا هو أول من حدّثني عنك. أعلم أنه يحاول أن يحصل من أخي على حق التنقيب عن النفط في المنطقة. لكنّ الشيخ شخبوط يولي للماء أهمية كبيرة ولا يعنيه التنقيب عن النفط. جاءه ذات يوم علماء جيولوجيا بريطانيون ليبشروه بأنهم عثروا على النفط فتذمّر قائلاً: «ماء، جدوا لي الماء». أنا أفهمه. الماء هو الحياة. غير أن ذلك لم يمنعه، قبيل حربكم الكبرى، من التوقيع على ترخيص بالتنقيب لمصلحة شركة تطوير بترول الساحل المحدودة⁽¹⁾. منحها امتيازاً للتنقيب مدّته 75 عاماً لقاء مبلغ قدره 115 ألف رويّة سنوياً⁽²⁾. يمارس البريطانيون علينا ضغوطاً شديدة لكي نسمح لهم بالتنقيب. في الحقيقة لا يعارض شخبوط ذلك لكنه لا يريد الخضوع

(1) Petroleum Development Tracial Coast (PDTC)، وقد وُقّع العقد في 14 يناير 1939.

(2) حوالي 115 ألف دولار.

لأَيِّ شرط ويفضّل الاستثمار في الآبار الارتوازية وبناء خط أنابيب لنقل الماء إلى عاصمتنا وهي جزيرة كما تعلم.

أشار الشيخ إلى نقطة غير مرئية.

- حتى الآن أمرنا ببناء خط ينطلق من منطقة السّاد القريبة من هنا. هكذا لم يعد مواطنونا الألفان أو الثلاثة آلاف الذين يقيمون على الساحل معرّضين للموت عطشاً.

سكت الشيخ وارتسم على شفّتيه ظلُّ ابتسامة.

- أظنّ أن أخي يمتلك حدساً فطرياً خاصاً. تصوّر أنه قبل أن يأمر ببدء العمل في بناء خط الأنابيب لنقل الماء طلب مشورة خبراء بريطانيين. كان السؤال المطروح بسيطاً: هل تحتوي الواحة على مخزون كافٍ من الماء؟ اقترح المهندسون على الشيخ شخبوط إجراء مسح لباطن الأرض قبل كلّ شيء فذلك من شأنه أن يمنع من الانطلاق بمشروع غير مضمون قد يُمنى بالفشل. هل تعلم ما الذي قرّره أخي؟

انتظر ولفريد التتمة.

- لقد اعتمد على حدسه المتميّز. ضرب صفحاً عن آراء

هؤلاء السادة ووفر مبلغ العشرة آلاف دولار التي كانت ستُنفق على الدراسة وأمر بتنفيذ مشروع الخط. وقد أثبتت الأيام أنه كان على حق. كان الماء متوافراً، وبغزارة. أمر مدهش، أليس كذلك؟ الماء، أقول لك، الماء هو شغله الشاغل.

كاد تيسیغر یجازف بتعلیق لکنه وجد أن التعلیق فی غیر موضعه.

كان تيسیغر يعرف الشيخ شخبوط معرفة حسنة. قابله للمرة الأولى قبل ثلاثة أسابيع في قصر الحصن، الذي سُيّد مكان برج المراقبة القديم. وكان ذلك البرج قد بُني منذ زمن بعيد في المكان الذي عُثر فيه على صياد ميت قرب بئر، ذلك الذي صارت كنيته «أبو ظبي». وقد تحوّل الحصن منذ أكثر من مائة عام إلى مقر إقامة آل نهيان. أدخله حارس إلى قاعة صغيرة حيث كان الحاكم مجتمعاً بأخويه هزّاع وخالد. كان هزّاع أصغر من شخبوط بعامين وهو يقارب الأربعين من العمر، أمّا عمّر خالد فيُقدّر بين ثلاثين وخمسة وثلاثين عاماً. بدا شخبوط دمثاً وإن على شيء من التحفظ. كان يتكلم بصوت مليء بالثقة والحكمة، ويتنقل ببطء، ويسيطر بحذر على مزاج انفعالي إلى حدّ ما. لكن سرعان ما اكتشف ولفريد

سِمة فيه غير منتظرة: الدُّعابة. دُعابة مُسْتَرَّة، ساخرة، لاذعة بما يكفي.

تكلّما كثيراً ذلك الصباح عن أشياء كثيرة. تكلّما، من بين أمور أخرى، عن اللآلئ - كان شخبوط يتدّمّر بحق من الأرباح الطائلة التي يجنيها البانيان، التجار الهنود، على حساب صيادي البلاد. لؤلؤة مشتراة بمبلغ 2668 روبية كان يُعاد تصديرها من بومباي إلى أوروبا بمبلغ 400 ألف روبية. علاوة على أن البانيان، بصفتهم رعايا بريطانيين، كانوا يستفيدون تحديداً من إعفاءات في عمليات النقل.

ومن موضوع إلى موضوع استرسل شخبوط في الحديث عن الحرب التي اشتدّ أوارها بين اليهود والعرب في فلسطين إثر الإعلان عن قيام دولة إسرائيل والظلم الفادح الذي حاق بالفلسطينيين.

في معرض الحوار أمكن لثيسيفر أن يلمس لمس اليد حجم الارتباب الكبير الذي يشعر به شخبوط حيال «الأخوات السبع»⁽¹⁾. وعنده أن اكتشاف النفط سيؤدي حتماً إلى فقدان

(1) لقب أعطي لأكبر سبع شركات نفطية منذ منتصف الأربعينيات حتى العام 1970.

الهوية فضلاً عن المخاوف من الإنجليز. مع ذلك كان لا بدّ من الاعتراف بأن هذا الارتياب لم يكن مُتناسباً. فالاعتراض المنهجي على كلّ تغيير يترك البلاد في حالة جمود لا تعرف التطوّر. كانت العاصمة قد أضحت تكتّلاً من بيوت البرستي⁽¹⁾ والعرشان المبنية من سعف النخيل بجوار الكثبان. لا طُرق، لا مستشفيات، لا إنارة عامة، لا مدارس، لا مطار ما عدا مدرجاً بسيطاً على الرمال في جزيرة داس الصغيرة ومعقلاً أنشأهما الإنجليز لطيّاري سلاح الجو الملكي. والمبنى الوحيد الجدير بهذا الاسم هو قصر الحصن الذي يعود بناؤه إلى القرن الثامن عشر. في حين أن عائدات النفط مكّنت البلدان المجاورة من شقّ طريقها نحو القرن العشرين.

وكما لو أن الشيخ زايد قرأ ما يدور في خلد ضيفه تابع كلامه ولكن بصوت خفيض:

- الحقيقة أنه، في ما يتعدّى النفط والماء، وكل الباقي، ثمة مأساة حقيقية نواجهها منذ نهاية الحرب.

سكت برهة ثم استأنف الكلام مشدداً على مخارج

(1) بيوت البرستي نوع من الخيم لها سقف على شكل مثلث وبه فتحات في أسفل جدرانها المصنوعة من الجريد. (م. م.)

الحروف.

- كوكيشي ميكيموتو!

ظنّ ثيسيفر أنه لم يُحسن الإصغاء.

- هذا الجنتلمان هو المسؤول عن كلّ مآسينا الراهنة.
السيد كوكيشي هو مخترع طريقة إنتاج اللؤلؤ الزراعي.
اختراع كاد يقودنا إلى الخراب. ثمانون في المائة من عائداتنا
تأتي من تجارة اللؤلؤ. منذ بدأ اليابانيون بتسويق لآلئهم التي
لا تعدو كونها مُزيّفة لم تعد سنايكننا تبخر تقريباً. وغرق
صيادونا في البؤس. بعضهم يحاول أن يُغيّر مهنته فيعمل في
تحميل السفن، أو في تربية الماشية، أو في الزراعة، وهاجر
آخرون طلباً للرزق في بلاد أخرى. يا له من وضع محزن.

سكت زايد لحظة. حرّك فنجان القهوة في يده وفي هذه
المرّة سارع الخادم لاستعادته. وتابع:

- كلّ واحد منا لديه طموح. شخبوط له طموحه.
وآخرون لهم طموحات أخرى. من جهتي، أنا مقتنع بأن لكلّ
شيء أو انه تحت السماء. إنّها مسألة صبر.

ركز نظره على نقطة غير مرئية وكرّر:

- لكل شيء أوانه.

فجأة برز من بين القوم بدويّ مُسنّ وقف قبالة الشيخ وجهاً لوجه. بعد أن ركز عصاه في الأرض بعنف صاح: «ماذا إذن يا زايد، ما الذي تنوي أن تفعله بشأن إبلي المسروقة؟».

لم يأت زايد بأية إيماءة تدلّ على أنه استاء من هذه الطريقة النزقة في مساءلته. بالعكس. ارتسمت على مُحيّاه أمائر الحفاوة وانتظر بأناة أن ينهي الرجل الدفاع عن قضيته. وعندما صمت أخيراً صدر الحكم:

- كن مطمئناً يا أخي، سوف نُعاقب السارق عندما نتعرّف إليه. حتى ذلك الحين سوف أُعوّضك عمّا خسرتَه. اذهب بسلام.

أنارت ابتسامة شكر وعرفان وجه الرجل المتغضّن. وبعد أن استرسل في الحمد والتبريك غادر وهو يعرج.

- الحكم ليس بالأمر البسيط دائماً. في بعض الأحيان يأتي صاحب شكوى يدّعي على أحد النارجين على القانون

أنه سلبه ماشيته. من المحتمل جداً أن يكون المذنب موجوداً بيننا. في حالة الشك أحاول ألا أُسيء إلى الخارج على القانون ولا أخسر سُمعتي كقائم بالعدل. أحاول بوجه عام أن أُصدر حكماً مرضياً للفريقين الحاضرين. قد يبدو لك هذا الأمر غريباً. لكنني أفضل أن أرى الخارج على القانون إلى جانبي لا إلى جانب أعدائي. هكذا أظل أراهم بأمّ العين.

في هذه اللحظة لمح ولفريد شخصاً آخر. كان يرتدي ثياباً بالية، ويبدو سقيماً، متعباً. كانت تتدلى من كتفه بندقية قديمة، وعلى وسطه حزام خرطوش فارغ، وخنجر في غمدٍ مشقق. ما إن رآه الشيخ حتى هتف:

- أهلاً وسهلاً! طال عُمرُك. أهلاً ومرحباً، أهلاً بك ألف مرة.

مُدّت له وحده سجّادة، وقُدّم له التمر والقهوة، وأعطاه زايد قبضة من الروبيات.

- يبدو بائساً جداً، علّق ولفريد.

- أمام عينيك مثال لحسّ الضيافة الذي لا حدود له عندنا. الاندفاع به إلى الحدّ الأقصى يمكن أن يؤدي إلى الخراب.

- لا أفهم.

- في الماضي كان هذا الرجل أحد أغنى رجال القبيلة.
اليوم لم يبقَ له إلاّ بعض رؤوس الماشية وليس لديه جمل
واحد.

- ماذا حلّ بجماله؟ هل مرضت فنفتت كلّها؟

- كلاً. لا شيء من هذا. لكنّ عبد الرحمن، وهذا هو
اسمه، كان لا يتصوّر، عندما يأتيه ضيفه، أن يسمح له بالذهاب
ما لم يولم له. فكان ينحر له جملاً ليطعمه. وانتهى به الأمر
إلى أن نحر لضيوفه قطيعه كلّه. مع ذلك، صدّقني، أصبح
بعضنا يحسده على ما فعل. كرم الضيافة لا ثمن له. لكن كُنْ
مطمئناً. إنني حريص على ألاّ ينقصه شيء.

غير الموضوع فجأة:

- قلت لي إنك رفضت دعوة بيرد؟ في هذه البلاد منزلي
مفتوح لك. سوف تكون عندي كما لو كنت في منزلك.
غير أنني آمل ألاّ يمنعك بكاء مولودي الجديد، ابني خليفة،
من النوم.

- لم أكن أعلم أن لك مولوداً جديداً، مبروك!

- أشكرك. ولد في السابع من سبتمبر. عمره أسبوع واحد.

نهض. تناول بندقية. وقال:

- تعال. سأصطحبك إلى غرفتك.

طوى الليل الواحة وأسوار حصن المويجعي المسننة التي
توحي بتخاريم حجرية.

ما هي إلا لحظات حتى كان تيسیغر ومُضيفه في قاعة
رحبة خالية من أيّ أثاث، ينيرها ضوء شاحب من مولد
كهربائي. وفي الخارج كان غزال يرتع. بسط السجّاد على
الأرض المطروقة. وقُدّم طعام العشاء في طبق كبير مليء
باللحم والأرز، إلى جانب التمر، ولبن حامض للشرب.

- هل تعلم أن هذا الحصن الذي نحن فيه الآن بُني قبل
نصف قرن. بناه أحد أعمامي، خليفة. أما جدّي فقد بنى في
مكان غير بعيد من هنا حصناً آخر هو قلعة الجاهلي. وأنا

بدأت ببناء حصن ثالث.

- إذن، أنتم تخشون من التعرّض لهجوم؟

قال الإنجليزي مُمازحاً.

- أنا لا أخشى أحداً، يا صديقي، غير الخالق. وأنت الذي تعرف هذا الجزء من العالم تعلم كم هو معقد، وكم أنّ القبائل على أتمّ الاستعداد لفعل أيّ شيء عندما ترى أنّها تمارس حقّها. كان على جدّي أن يواجه أزمات قبليّة، وأن يدخل حتى في مبارزات فردية دفاعاً عن بلادنا.

رفع يده مشيراً إلى نقطة غير مرئية.

- هذه الحصون ما هي إلاّ مبانٍ دفاعية سُيّدت هنا لحماية قومنا. في ما يخصّني أنا لن أحارب أحداً. الحرب أشبه بحزمة كبيرة من القشّ ما إن تأخذ في التدحرج حتى تجرف كلّ شيء في طريقها! يكفي أن ترى ما يحدث عندكم، في أوروبا، حيث تسببت الحرب بأكبر دمار حاق بالإنسانية يوماً. هل ينبغي أن أذكرك أيضاً بأن العنف مناقض لتعاليم الإسلام الذي يدعو إلى التسامح والرحمة؟

وتلا الآية الكريمة:

- «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا»⁽¹⁾.

واحتدم صوته:

- إذا ما يسّر الله لي سبيلاً في المستقبل فسوف أُكرّس كلّ جهدي وما أنعم الله عليّ به من قدرة لكي أسمع العالم كله صوت الشعوب المتطلّعة إلى الحرية وأساعدتها على العيش بأمان. سوف أمدّ يدَ العون للشعوب المعوزة والطامحة إلى النموّ والتي تبذل قصارى جهدها لإبعاد شبح الحرب.

ثمّ تحوّل إلى ما يُشبه المناجاة متحدّثاً عن المستقبل والوجود الإنجليزي الذي كان في نظره ضرورياً لأن الاتفاقات المبرمة مع المملكة المتحدة توفّر الحماية العسكرية لبلاده التي لا تملك بالضرورة جيشاً خاصاً بها، معتبراً مع ذلك أن كلّ شيء يمكن أن يُعقد وأن يُحلّ بطريقة عين. وختّم قائلاً بشيء من السخرية:

- لحسن الحظ، نحن نعيش في أمان.

(1) سورة النساء، الآية 93.

وأردف موضّحاً:

- مضى زمن مال فيه بعض سكّان السواحل إلى تجارة الذهب واللاّلى ينقلونها إلى الهند في المراكب. ولّمّا كانوا يخوضون معارك بحرية حقيقية في مضيق هرمز، ويهاجمون السفن الغربية ولا سيّما الإنجليزية منها، قرّر الإنجليز أن يضعوا حدّاً لهم. وفي عام 1853 أرسل الإنجليز بعض الزوارق المسلّحة إلى مياه الخليج، وفرضوا على الشيوخ «معاهدة السلم الدائم». منذ ذلك الحين أُطلق على هذا الساحل الذي كان يُعرف باسم «ساحل القراصنة» اسم «الساحل المُتصالح» وتولّت قوة مسلّحة بريطانية قليلة العدد، فرقة «كشّافة»، مهمّة بسط الأمن مجدّداً في المنطقة.

كان ولفريد قد سمع بهذه المعاهدة التي نصّت، من ضمن بنود أخرى، على أن إنجلترا تتعهد بحماية الدول الموقعة من أيّ هجوم بحري أو برّي. من هنا كانت ملاحظة زايد. وغنيّ عن القول أنّ إنجلترا بتصرّفها على هذا النحو إنما تعزّز نفوذها في المنطقة وتكبح مطامع القوى الأخرى.

كانا قد أنهيا عشاءهما، وتناول زايد حبة تمر أخيرة ثمّ

قال:

- تأخر الوقت. أودّ قبل أن نفترق أن أريك شيئاً.

قاد ولفريد إلى ساحة الحصن وبعد أن سارا بضعة أمتار أشار بإصبعه إلى سيارة مكونة هناك: لاندروفر سيريز ذات بابين، خضراء رمادية.

- اقتنيتها حديثاً. خرجت للتوّ من مصانع روفر. طبعاً، لا شيء يضاهي متعة امتطاء جواد أو جمل، لكن علينا مع ذلك أن نستفيد من حسنات القرن العشرين. مثلاً، أستطيع بهذه السيارة أن أذهب إلى أخي في غضون ثلاث ساعات. هذا توفير للوقت لا يُستهان به.

فيما كان الشيخ يتكلّم عادت الجملة التي قالها قبل بضع ساعات إلى ذهن الإنجليزي: «لكلّ شيء أوانه تحت السماء».

أسئلة الفصل الثاني

1. حملت العبارة الآتية « لكل شيء أوانه تحت السماء » معان كثيرة، استخراج هذه المعاني ووضوحها؟
2. تتبّع في هذا الفصل كلّ المواضيع التي يظهر لك فيها السمات التي كان الشيخ شخبوط - رحمه الله - يتمتع بها.
3. في الفصل الثاني ذُكر وصف دقيق للشيخ زايد - رحمه الله - جعلت منه قائداً استثنائياً، تقصى ملامح هذه الشخصية بأبعادها الاجتماعية والثقافية والنفسية.
4. ما الدافع وراء رحلة (ولفيريد ثيسيفر) في الصحراء؟
5. جاء في النص: «لكن الطبيعة أقل فظاظة من الناس أحياناً» هل تؤيد ذلك؟ ما دليلك؟
6. ورد في هذا الفصل موقف يدل على السنع الإماراتي، ما العادة التي ذكرت؟ وهل مازالت موجودة في زماننا؟
7. اتفق الشيخ شخبوط - رحمه الله - والشيخ محمد بن

زايد - حفظه الله - حول أهمية الماء، حيث قال الشيخ محمد بن زايد «المياه أهم من النفط بالنسبة للإمارات» استخرج قول من أقوال الشيخ شخبوط ما يتفق مع هذه المقولة، ثم بين ما لمستته في الوقت الحاضر مما يدعم هذه الأولوية.

8. ورد في الفصل: (أظن أن أخي يمتلك حدسًا فطريًا خاصًا) وضح معنى العبارة وقدم دليلاً على ذلك من الفصل.

9. اعتمد الراوي على أسلوب النص الوصفي في حديثه عن حصن «المويحي» تشارك أنت وزميلك في تتبع هذا الوصف.

10. وضح الآثار الاجتماعية والاقتصادية التي تسبب به ظهور اللؤلؤ الصناعي؟

11. وضح الوظيفة البلاغية في العبارة الآتية «ارتسمت على محياه أمائر الحفاوة».

12. ما المعنى الذي وصل لك حين قرأت الموقف الذي حصل بين البدوي الذي سرقت إبله وبين الشيخ زايد - رحمه الله -؟

13. كان للشيخ زايد - رحمه الله - رؤية واضحة حول مفهوم القاضي العادل، عد إلى الفصل ووضح هذه الرؤية وبين رأيك فيها.

14. من وجهة نظر الشيخ زايد - رحمه الله - لماذا كانت الاتفاقات المبرمة مع الإنكليز ضرورة؟

3

طوال حياتي كنت أحلم مستيقظاً.

يَعْلُ نَوِّ بَانَتْ مُزُونَهُ

يَسْجِي الظَّفْرَةَ وَيَرْوِيهَا

لِينِ يَزْخَرُ عَشْبُ بَيْنُونَهُ

وَالغِزْرُ تَسْقِي سِوَاقِيهَا

وَالرَّمْلُ يَعْشِبُ وَيَرْعُونَهُ

وَالبَدْوُ تَزْهِي مِبَانِيهَا

وَيَسْتَجِي مِ الغَيْثِ فِي السَّوْنَةِ

شَرْقِ وَالوُدْيَانِ يَبْرِئِيهَا

وَالجِبَلُ تَدْفُقُ رُكُونَهُ

وَيَمْلِي الْجِيعَانَ يَارِيهَا
وَالْغَضِي تَتَنَقَّلُ ظُعُونَهُ
لِي هُمُومِ الْقَلْبِ يَشْفِيهَا
وَإِنْ عَرَضُ يَمْشِي عَلَى هُونِهِ
بِيسٍ بِالْدُنْيَا وَمَا فِيهَا
هُوَ دَعَاهَا النَّفْسُ مَمْحُونَهُ
وَالطَّبِيبُ الَّذِي يُشَافِيهَا
مُحْتَرَمٌ وَالنَّاسُ يَحْظُونَهُ
لِي وَصُوفَهُ نَافِلٍ فِيهَا
نَطَقَتَهُ وَإِنْ يَأْتِ مَوْزُونَهُ
مِنْ صِخَاوَةِ نَفْسٍ يَفْضِيهَا
وَالْمَلَا حَهُ فِيهِ مَكْنُونَهُ
مِنْ لُبُوبِ الْوَشْيِ يَكْسِيهَا

ما عدت أذكر أين ولا متى كتبتُ هذه الأبيات. أغلب الظنّ أنني كتبتها ذات مساء بعد أن تأملت في أحلامي التي اتخذت شكلاً، تلك البيوت التي خرجت من الأرض، وأشجار النخيل التي انبثقت من الرمال. جميعنا نحلم، لكن ليس بالطريقة ذاتها. ثمة من يحلمون في الليل، مستغرقين في النوم، يرون أنفسهم وهم يرتقون القمم ويداعبون النجوم. لكن عندما تحين ساعة الاستيقاظ يدركون أن ما رأوه لم يكن إلاّ تخيّلات. ثمّ هنالك أولئك الذين يحلمون مستيقظين، في وضوح النهار. انتبهوا لهؤلاء! لأنّ أحلامهم مشاريع، ومشاريعهم تصبح حقائق عاجلاً أو آجلاً.

طوال حياتي كنت أحلم مستيقظاً.

حتى في هذه اللحظة بالذات، فيما تتراءى لي نهاية الرحلة، يحدث أن أحلم. إنها رؤى مختلفة. ليست من طبيعة أرضية، بل هي روحية تدفعني إلى أن أطرح السؤال الذي يشغل كلّ إنسان مع اقتراب المساء الأخير: «ماذا بعد؟ ماذا هنالك؟ ماذا سأجد؟».

في الذكر الحكيم: «مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ»⁽¹⁾.

أؤمن بذلك.

بكلّ كياني أؤمن به.

أؤمن بذلك المكان النهائي حيث يتواجد جميع البشر ذوي النيات الحسنة، من دون تفرقة في العرق، واللون، والمعتقد، متحدّين جميعاً في بوتقة متوهجة.

أؤمن بأنّ ليس هناك من إساءات ولا عنف ولا بؤس. شميم العطور يطيب أنفاسنا. آنذاك يكفّ الإنسان عن كونه عدواً للإنسان. والنساء المهانات يستعدنّ كرامتهنّ. يمشين رافعات رؤوسهنّ، فخورات، بمجد مستعاد. الأطفال يواسون. الأنهار الملوثة، والسواقي القذرة، والأراضي المحروقة، كلها تستعيد طهارتها، بهاءها الأول، في الأزمنة الأولى.

أحلم مستيقظاً. وأؤمن.

(1) سورة محمّد، الآية 15.

أؤمن بأنني سأرى ثانية أبي الذي فقدته باكراً. وسأرى
أمي، وأولئك الذين لشدما أحببتهم.

من دون هذه القناعات، ما الذي يتبقى لنا إلا اليأس؟ وأنا
لا أؤمن إلا بالأمل.

أحببتُ مبارك بن لندن. هكذا كنا نسَمِّي ولفريد ثيسغر.
شخص مدهش، شجاع، وخصوصاً أنه يُبدي نحونا، نحن
العرب، احتراماً جمّاً. أعترف بأنني تأثرت كثيراً عندما علمت
من الصحف أنه مات في العام الماضي⁽¹⁾، رحمه الله. كان
في الثالثة والتسعين من العمر. هذه سنّ لا يُحسب فيها الأمل
في البقاء على قيد الحياة بالسنة، بل بالشهور، بل بالثواني،
ويجب أن نحمد الله على كلّ دقيقة إضافية يمنحنا إياها،
وليس لنا، نظرياً، حقّ فيها.

ما زلت أتذكر جواب بن لندن يوم سألته لماذا يقوم بهذه
الأسفار؟ فقال: «لأنني أعتقد أن تقاليد البداوة سوف تتقلّص
آجلاً أو عاجلاً، لذلك أريد معرفتها والحديث عنها لكي
أنقذها من النسيان».

(1) في 24 أغسطس 2003.

يومها لم أُبدِ أيّ ردّ فعل. كان بوسعي أن أجيبه بأنه لا ينبغي عليه أن يقلق بشأننا، نحن في أبوظبي. فنحن نجمع بين البحر والصحراء، لأننا في فترة من السنة نقصد الساحل حيث نعيش حياة الصيادين. وعندما ينتهي موسم صيد اللؤلؤ نعود إلى عيشنا الحضري. بدو وحضر. إذن، عالمنا لا يمكن أن يندثر مهما بلغ من التطور والرقى. والدليل أننا لا نزال هنا على الرغم من عصف رياح الأزمنة بشعورنا الرمادية.

عندما تطرّقنا إلى موضوع «الحماية البريطانية» بعد الاتفاق الذي أبرمته دول الهدنة لم أشأ أيضاً التوسع في الأمر. كان ولفريد إنجليزياً، وخشيت أن أجدش شعوره. إذا كنت لا أنكر أن البريطانيين قدّموا لنا مساعدة قيّمة فأنا ما زلت أذكر أنهم كانوا متغطرسين جداً في تعاملهم مع جدّي، زايد الكبير. عندما رغب ذات يوم في اتخاذ علم جديد يعكس المكانة الرفيعة لبني ياس قوبل برفض قاطع من قبل المفوض البريطاني، الميجر⁽¹⁾ كوكس. ثم إن هذا الضابط نفسه رفض بعد مدة وجيزة، ولأسباب واهية، طلب جدّي السماح لأحد أفراد عائلته بالإقامة في جزيرة لا تبعد عن عاصمتنا سوى

(1) Major: ضابط برتبة رائد. (م. م.)

بضعة كيلومترات. هذا بصرف النظر عن أنهم لم يأخذوا بعين الاعتبار ما قام به جدّي في تلك المرحلة لترسيخ السلم بين القبائل، ومقدرته على حلّ النزاعات بالصبر والحوار. وهناك الكثير من أوجه المناكدة أيضاً، لكن لا طائل من وراء العودة إليها.

البريطانيون، الذين ما زلت أحتفظ بقدر من الإعجاب بهم، كانوا آنذاك سادة العالم أو يكادون. لماذا إنكار ذلك؟ هكذا تتحرّك السياسة. لكن يبدو لي أن المرء لا يصبح كبيراً إلاّ عندما يصغي إلى الصغار. في المقابل، لقد استخلصت عبرة من تلك المرحلة: لكي لا تفقد أمة هويتها، ولكي تحافظ على كرامتها، ولكي تتوقّى الضربات العنيفة المتوقّعة من أعداء مُحتملين، وتتصدّى لمطامع الأقوياء، يتعيّن على هذه الأمة أن تتحد، أن تكون يداً واحدة. إنّ في تفرّقها تهديداً لوجودها، وفي اتحادها تكون كما في الصلاة، منصهرة قلباً وروحاً.

أولّ رحلة قمت بها إلى خارج البلاد العربية كانت في يناير 1946. أوفدنا شخبوط، أنا وأخي هزّاع، إلى الهند لحلّ مشكلة كان لها تأثير كبير على اقتصادنا الذي كان يحتضر.

كانت السلطات الهندية قد فرضت رسماً جمركياً على وارداتها من اللؤلؤ: عقوبة انضافت إلى منافسة اللؤلؤ الزراعي المتعاضمة. بخلاف دُبي التي نجحت في أن تصبح المرفأ الأكثر نشاطاً في الخليج على صعيد الاستيراد والتصدير، ظلّ مصدر عائداتنا الأهمّ، إن لم يكن الوحيد، هو تجارة اللؤلؤ وكانت الهند أكبر زبائننا. كنا نسعى للتفاوض مع الحكومة الهندية بغية خفض ذلك الرسم. ولكن بلا جدوى. لذلك كان علينا أن نتعامل مع شركة الهند الشرقية.

كنت سعيداً بمشاركة أخي هزّاع هذه الأوقات. كان شخصاً حساساً. واسع الحيلة. عيّنهُ شخبوط والياً يمثله في غرب البلاد. كانت تجمعنا، أنا وهو، هواية صيد الصقور. كنا نقضي ساعات لا تُحصى في الصحراء، نتسامر تحت نجوم السماء، نتحدّث عن أنفسنا، عن عائلتنا، عن مستقبل البلاد. كنّا نحمل حسّ الشرف ذاته ونفس مشاعر المودّة حيال أخينا شخبوط. وحافظنا على القسم الذي أدّيناه في حضرة الوالدة.

في 12 يناير ركبنا سفينة بخارية تعمل على خط دُبي - كراتشي. بمزيج من الإثارة والخشية بدأت هذه الرحلة. أولاً،

لأنني لم أركب البحر إلا مرّات قليلة ولفترات قصيرة؛ وتالياً،
لأنني لم أركب القطار ولا الطائرة من قبل أبداً.

كان لأخي ولي قمرّيتان⁽¹⁾ منفصلتان، مريحتان، لكنهما
بعيدتان عن أن تكونا فاخرتين. كان ذلك يناسبني. لم أولد
وفي فمي ملعقة من ذهب وثيابي لم تكن من الحرير. ولا
أحببت الأبهة قطّ ولطالما آثرتُ على ذهب القصور حميمية
غرفة لا زُحرف فيها. غرفتي لا تزال بسيطة حتى اليوم. ما
كنت لأقدر على النوم في قصور فاخرة، مع أنني أصبحت
في ما بعد، في التسعينيات، مالكاً لقصر بايون في ناحية أنبير
سور واز الفرنسية. لم يكن شراء القصر على سبيل الأبهة أبداً،
ولكن لأن مضمار سباق الخيل كان قريباً منه بحيث يمكنني
أن أشبع، من وقت إلى آخر، شغفي بالسباق، وأن أذهب مرّة
في السنة إلى معرض بورجيه للطيران. على أنني تخلّيت أخيراً
عن هذا المكان من دون أن يفوتني إعطاء البلدة مبلغاً⁽²⁾ لإنقاذ
تجارة كانت آيلة للانقراض.

في غضون تلك الرحلة البحرية إلى كراتشي انتهزت

(1) القمرية حجرة للمسافر في السفينة. (م. م.)

(2) ما يعادل 250 ألف يورو.

ساعات الفراغ للتدرّب على المطالعة. في صغري لقّنتني والدتي سورة الفاتحة، وكان عمري ما بين 7 و9 سنوات. في القرآن الكريم اكتشفتُ الأبجدية. كان ذلك أمراً مألوفاً لأن هذا المصحف الشريف يحتلّ منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة مكان الصدارة عند عائلي وعندي. ألا يقال إنّ أهل المنطقة تلقّوا من النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، حوالي العام 630 م، رسالة يدعوهم فيها إلى ترك عبادة الأوثان وأن يعبدوا الله وحده؟ وهذا ما فعلوه. كان الذكر الحكيم هو أوّل ما قرأتُ.

في شهر يناير ذاك من عام 1946 بلغتُ الثامنة والعشرين من العمر ورأيت أن الوقت حان لإتقان هذا العلم على غرار شخبوط الذي كان يقرأ بسهولة الصحف العربية والإنجليزية. لقد أُتيح لهزّاع وشخبوط أن يدرسا مهارات الكتابة والقراءة على أيدي معلّمين مختصّين. لكن لم يُتَح لي ذلك حينها نظراً لظروف تنقّلي التي مرّت بنا مبكراً، حيث ولدتُ في قصر الحصن ونشأتُ في العين.

في ما بعد شُغِفْتُ بأشعار أبي الطيّب المتنبيّ. هو في نظري سيد الكلمة، وأحد أكبر الشعراء العرب، لا بل هو

الأعظم بينهم، ويتمتع بموهبة خارقة في وصف العواطف والفهم العميق للحياة. أشعاره حول طباع البشر وتقلبات القدر مصادر للحكمة، ويطيب لي أحياناً أن أرددها.

لكن ألمجرد كونه ناظماً مبدعاً للشعر قدرته بالغ التقدير؟ أعتقد أن تقديري له يعود أولاً إلى رغبته الشديدة في التحرر من الأفكار الجامدة التي يرى فيها أدوات اضطهاد. كانت شخصيته معقدة، أعترف بذلك، فهو قادر على أن يمدح الأقوياء ويتقرب منهم، وكان بوسعه في الوقت نفسه أن يهجوهم أقذع هجاء. من ذلك على سبيل المثال قوله:

ولولا فضولُ الناسِ جئتُكِ مادِحاً

بِمَا كُنْتُ فِي سِرِّي بِهِ لَكَ هَاجِياً

فَأَصْبَحْتَ مَسْروراً بِمَا أَنَا مُنْشِدٌ

وَإِنْ كَانَ بِالْإِنْشَادِ هَجْوُكَ غَالِياً

أكبر الظن أن موت المتنبي كان بسبب كبريائه المفرطة. عرض له جماعة في بادية السماوة فأراد أن يفرّ إلا أنه ذُكر

بشعره:

الخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني

والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ

فرجع إليهم وقاتلهم حتى قُتِلَ.

لما وصلنا إلى كراتشي كان علينا، أنا وهزّاع، أن نمكث ثماني وأربعين ساعة قبل متابعة السفر إلى نيودلهي وجهتنا النهائية. اغتنمنا هذه الفرصة للقيام بجولة قصيرة في المدينة وزيارة سوق الخضرة فيها⁽¹⁾. على قول الدليل، كانت كراتشي «بقالة الهند» وسوقها هو الأكبر في العالم. لم أجد صعوبة في تصديقه. كنت منبهراً بكل هذه البقول والتوابل التي تشبه، لكثرة ما فيها من ألوان، لوحة رسام غير مرئي. كيلومترات من الأقمشة الحريرية، ومن اللوزيات، ومئات الأصناف من الفاكهة، من أشدها غرابة إلى أكثرها عادية، ومن أنواع البخور، والأسماك، واللحوم، جميعها تحاذي منتوجات مؤشاة وأشياء مبتدلة من كلّ نوع. ثم إن المدينة تمتلك شبكة

(1) The Empress Market .

خطوط للسكة الحديد، وفيها شوارع مبلّطة. همست لأخي:
«يوماً ما سوف نضع ما هو أفضل من ذلك في بلادنا». نظر
إليّ وجهاً لوجه وقال: «بجهدك، إن شاء الله».

غادرنا إلى كراتشي مسرعين تحت وابل من المطر.
طوفان حقيقي. عرفتُ تساقط المطر عندنا. ربما كان بمثل
هذه الغزارة لكنه نادر جداً. كانت في انتظارنا طائرة ذات
محركين تابعة للخطوط الجوية الإمبراطورية. للوهلة الأولى
تساءلت كيف يمكن لهذه الكتلة الثقيلة أن ترتفع في السماء.
ثم فكرت في الصقور، شغفي. فكرت في براعتها في الطيران،
في سرعتها المذهلة عند انقضاضها على فريستها: حوالي
مائتي كيلومتر في الساعة. مع مراعاة الفارق، إذا كان طائر
وزنه لا يتعدى الكيلو الواحد يستطيع أن يطير، فلماذا لا
يمكن لطائرة أن تطير؟ إذن لا يتعلّق الأمر بالوزن. كان هذا
الاستدلال تبسيطاً، أعترف بذلك، لكنه كان مطمئناً لي قبل
الصعود إلى الطائرة.

كم استغرقت الرحلة، ساعتين أو ثلاث ساعات؟ ما عدت
أدري. كلّ ما أتذكره أنني كنت محشوراً في المقعد، وسط
دخان الغلايين والسجائر، في حجرة الركاب، أرى طرفاً من

السماء عبر كوة. لتهدئة مشاعري أغمضت عينيّ وسرح بي
الخيال إلى العين حيث وجدّني مستلقياً في ظلال النخيل
أرتجف في مهبّ الريح. يمتلك الخيال هذه المقدرة الخارقة
على جعلنا نتنقل كما يحلو لنا، فلنتقي الأحيّة، ونداعب وجنة
غائبة، ونحتضن حبيباً نائياً. وأنا في تلك الطائرة لذت بأرضي.

- زايد، استيقظ، لقد وصلنا.

انتشلي صوت هزّاع من حلمي.

حطّت الطائرة في مطار سافدار جونغ، على مسافة ساعة
بالسيارة من نيودلهي. وما إن توقفت المراوح عن الدوران
حتى التصق سُلمان متحرّكاً بهيكل الطائرة. تقدّم نحونا
هنديّ مُلتح متوّج بعمامة. بسط ذراعيه مُرحّباً بابتسامة عريضة
وعرّف بنفسه: «فيكرام تجبال، رئيس التشريفات، باسم
الحكومة أرحّب بكما متمنياً لكما طيب الإقامة في الهند!».

كانت في انتظارنا سيارة رسمية، مرسيدس رائعة. بعد
دقائق كنا على الطريق متجهين نحو مقرّ شركة الهند الشرقية.
آنذاك كانت المملكة المتحدة تحكم القسم الأعظم من الهند
حكماً مباشراً، وتمارس الرقابة على باقي البلاد عبر المعاهدات

المُبرمة مع المسؤولين المحليين. وفي تلك المرحلة أيضاً كان اسم شخصية خارقة على كلّ شفة ولسان: موهاننداس غاندي، الملقب بمهاتما: «الروح العظيمة». كان قد أُسرّ إلي قائلاً إن المهاتما كان سجيناً وأطلق سراحه حديثاً بسبب صحته الواهية. لم يرغب البريطانيون في أن يموت في السجن لأن من شأن ذلك أن يُحدث انتفاضة تشمل الهند كلها. لذلك لم يتسنّ لي أن ألتقيه. لشدّ ما كنت راغباً في لقائه.

كان الطريق حتى مقرّ الشركة مزدحماً، وكان السائقون يطلقون العنان لأبواق سيّاراتهم ويناورون بمهارة كي يتجنبوا في اللحظة الأخيرة راكبي الدراجات أو العربات التي تجرّها الثيران، لكننا وصلنا إلى وجهتنا سالمين.

حصيلة إقامتنا في الهند لم تكن سارة. عندما غادرنا كراتشي بعد يومين كنا محبطين جداً. لم نحصل إلا على وعود، ولا شيء ملموس. في الحقيقة لم يكن لديّ أي أمل بنجاح المهمة. منذ البداية كان الشيخ شخبوط قد نبّهني: البريطانيون يمكنهم أن يكونوا متشدّدين في موقفهم. كان على دراية كافية بهم هو الذي أمضى أيامه في التفاوض معهم. عندما كنا على متن السفينة البخارية التي تقلّنا إلى دُبي

فكرت في المهمة التي تنتظرني. قبل بضعة أسابيع اتخذ الشيخ
شخبوط قراراً بتعييني ممثلاً رسمياً له في العين، حاكماً على
الواحة. ولقد منحني بذلك شرفاً كبيراً.

أسئلة الفصل الثالث

1. جميع الناس تحلم ولكن هناك فرق بين حلم وآخر ،
وضح الفرق بين من يحلم نائمًا وبين من يحلم مستيقظًا،
أي نمط تفضل؟

2. قَدِّمَت الآية القرآنية من سورة محمد - كما جاء في
الفصل - وصفًا للجنة التي وعدها الله للمتقين، ورسم
الكاتب وصفًا لحال الفائزين في الجنة، وضح كلا
الوصفين.

3. جاء في هذا الفصل حديث عن الأمل في الحياة، وضح
الجوانب الإيجابية التي طرحت في هذا السياق.

4. كانت نظرة مبارك بن لندن (لفريد ثيسغر) إلى بعض
الأمر في الحياة البدوية مختلفة. هات مثالًا من هذا
الفصل يجلي ذلك، وفسّر مقصوده. هل تتفق معه ؟
ولماذا؟

5. صور الكاتب حال الشعب الإماراتي طوال السنة أنهم
يقصدون الساحل في موسم الصيد ثم يعودون إلى

حالمهم، اكتب ماتتخيله عن حال هؤلاء.

6. اعقدوا حلقة نقاشية، للعبارة الآتية: «لا يصبح الكبير كبيرًا إلا عندما يصغي إلى الصغار».

7. هناك فقرة تحدثت عن أول رحلة قام بها الشيخ زايد مع الشيخ شخبوط - رحمهما الله - حدد هذه الرحلة والدافع من ورائها؟

8. كان الشيخ زايد - رحمه الله - كثير التأثير بالشاعر المتنبى لعدة أسباب، اذكر هذه الأسباب وبين أثرها على شخصيته.

9. كان لتجول الشيخ زايد والشيخ هزاع - رحمهما الله - في سوق الهند أثر في تبني فكرة تطوير البلاد؟ وضح المشاهد التي أثرت فيهما، وعلى ماذا صمما بعد ذلك؟

10. تضمن الفصلان الأول والثاني عددًا من الكلمات الوصفية حدد مشهدا واحد أعجبك وبين الكلمات التي وظفت فيه.

4

لا ينتصر الناس على الطبيعة إلا
بالخضوع لها.

الشاهين، الصقر الجوّال، كان مهيباً.

رأس دقيق، ظهر رماديّ غامق، صدر بلون الرمل، ساقان
صفراوان زاهيتان، وجناحان طويلان مُدبّيان، ومنقار أسود
وعينان سوداوان. روعة!

بخفة رفع زايد، مستويّاً على جملة، البرقُع عن رأس
الطائر، فغادر في الحال قفاز القبضة، باسطاً جناحيه، مُحدّثاً
حفيفاً لا يكاد يُسمع.

هناك في الأعالي، في سماء معدنية، صافية، كان يمكن
تمييز الحُبّارى وجلده الموشّي بخطوط سُمرٍ داكنة. كان
الطائر يرتفع، ويرتفع. رأى الموت في أعقابه. يظهر من
حجمه أنه ذكرٌ بالغ. فجأة، وفيما الصقر يهّم بالانقضاض

عليه أفرز سائلاً زيتياً على طول مجراه.

- ما هذا؟ سأل تيسيغر مندهشاً.

- هذه مادة غريبة يفرزها الحُبارى ويلقيها على مهاجمه حالما يشعر أنه في خطر. إذا أصابت عيني الشاهين أعمته مؤقتاً، وإذا مسّت جناحيه اندبقا فيضطرّ إلى العودة ليرتاح.

- حقاً، علق ولفريد، عجائب الطبيعة لا تُحصى.

لكنّ زايد لم يُصغِ إليه.

كانت عيناه تتابعان وقائع المعركة الدائرة فوق الرؤوس. كان المشهد ساحراً. ومؤثراً في آن. الصقر قد يتحوّل إلى أسد مُجنّح والحُبارى كخفّاش أعماه الضوء ينطح برأسه جدار السماء غير المرئي.

بدأ كلّ شيء قبل ثلاثة أيام عندما طلع بدويّ وسط البرزة وأعلن بحماس: «زايد، رأيت حُبارى قرب البحر هذا الصباح!». «

أنارت وجه الشيخ ابتساماً عريضة.

استعلم:

- كم لدينا من الصقور؟

- ثلاثة، من ضمنها صقرك، أجاب البدوي.

- زين، غداً ننطلق فجرًا.

والتفت نحو تيسيفر سائلًا:

- هل شهدت من قبل صيداً بالصقر؟

هزّ الإنجليزي رأسه نافيًا.

- إذن تأتي معنا!

صباح الغد كان زايد يُرتّب كلّ تفصيل يتعلّق بالقنص. المؤمن، الماء، حالة الجمال. ولما تفقّد الصقور الثلاثة وجد أن أحدها - لا ريب في أنه لا يزال في مرحلة الترويض - مَخِيط العَيْنين: جفونه مُطبقة بخيط من القُطن.

- انزعوا الخيط، أمر الشيخ.

كان في جناح الصقر الثاني، وهو ذكر، ريشة مكسورة

عالجها الشيخ بمهارة تامة مستخدماً جبيرة من شظيتين من قرن الغزال.

كانت الشمس في كبد السماء عندما أعطى الشيخ إشارة الانطلاق. تقدّم الركب، يتبعه حوالي عشرة من البدو، ممتطياً غزالة، ناقته الأثيرة، الأجل في شبه الجزيرة العربية كلها، على ما يقول بعضهم.

كان السير خبيماً في اتجاه الشمال على إيقاع الوثة⁽¹⁾ يؤدّيها الرجال. ساروا حتى المغيب في متاهة من الكثبان تتخللها في بعض الأماكن شجيرات صحراوية. ومع حلول الظلام حطّوا الرحال. قطعوا بعض جذوع الأشجار وصنعوا منها مصداً للريح. ثم أشعلوا ناراً عظيمة، يدرأون بها برداً قارساً. ثم ذبحوا أرنيين تناولوا لحمهما مشويّاً طعام عشاء.

في ضوء ألسنة اللهب المتماوجة بدوا متشابهيين، الوجوه مُسمرة، العيون سود، القسمات حازمة، وعقود من اللحي، كانوا توائم أسلافهم، إخوة الصحراء.

ومن حين إلى آخر كان ولفريد يلقي نظرة على الشيخ.

(1) الوثة: فنّ شعري بدويّ يؤدى بصورة فردية أو ثنائية.

لو كان للسعادة وجه لكان وجهه.

بعد أن استدار الصقر على نفسه دخل في مسار الحُبَارَى.
تموضع أفقياً وانقضَّ بسرعة صاعقة على فريسته فصدمها.
هوى الحُبَارَى شبه مغميٍّ عليه، وارتطم بالأرض كالحجر
مُحدثاً ضجَّةً خرساء.

- أسقطه! ارتفع صوت.

كان زايد أول مَنْ انطلق بناقته عبر الكثبان، وحذا حذوه
الآخرون. هبطوا منحدرات، وارتقوا هضاباً واجتازوا بطاحاً.
ولقي ثيسيفر عناء في مجاراتهم، على الرغم من كونه هجَّاناً
ماهراً. وصلوا بأقصى سرعة إلى المكان الذي سقط فيه
الحُبَارَى. كان الصقر الجائع قد هَمَّ بتمزيقه، غير أن أحد
الرجال انبطح أرضاً وبضربة خاطفة شقَّ رأس الطير وأعطى
رأسه للصقر فارتدى فوقه والتهمه ببضع لُقيمات، وإذ بقي على
جوعه حاول أن يلتهم بقية الحُبَارَى. لكن فات الأوان. كان
أحد الرجال قد دفن الطائر في الرمل. لا يُسمح للصقر أبداً بأن
يأكل حتى الشبع، لأنه متى شبع طار ولم يُعثر عليه بعد ذلك.

جلس زايد على الرمل وأعاد الصقر إلى قفّاز قبضته
المصنوع من جلد غليظ.

- معركة جميلة، قال ملتفتاً نحو الإنجليزي.

- يبدو أنك قد مارست هذه الهواية مبكراً.

- بالتأكيد. كان عمري بين السابعة والثامنة عندما
اشتركت في أوّل رحلة صيد. تعلّمتُ الصيد، إذ كان أبي
قد توفّي. السيطرة على فريسة، في مباراة ثنائية شبه متعادلة،
متعة لا تُضاهى أين منها إسقاط الطريدة بطلقة بندقية. ثم إن
هذا أحد سببين لامتناعي عن الصيد بالبندقية. السبب الآخر
هو خشيتي من الإخلال بالتوازن الطبيعي. إن الإسراف في
استخدام السلاح الناري قد يؤدّي بسهولة إلى انقراض أجناس
من الطير مثل الحُبارى في بضع سنين. يجب أن تُترك لها
فرصة للبقاء. هل تعلم أن الحُبارى يصرع شاهيناً بضربة واحدة
من جناحيه؟ هذا أمر نادر لكنني كنت شاهداً عليه. من جهة
ثانية، يا عزيزي مبارك، هذا ليس بالصيد السهل وإنما هو فنّ
كامل. أتدري كم يلزم من الصبر لترويض صقر؟ يقتضي ذلك
ساعات وأياماً من العمل الدؤوب. يبدأ ترويضه على ضوء

شمعة، أو في الظل الخفيف، يُنزع عن رأسه البرقع، أو يُداعب بلطف. يُغريه المروّض بمحاكاته لصوته.

توقف زايد، ليطلق صيحات صغيرة تشبه «هش، ها، هش».

ثم استطرد:

- عندما يُطلق الصقر في الهواء تكون هذه الصيحة التي اعتاد عليها هي التي تعيده إلى سيّده. والأهمّ هو جعل الطائر متعلّقاً أو تابعاً. يجب فتح قابليته، إرهاف ذوقه، بقطع صغيرة من اللحم. ما يكفي فقط لتعويده على الرجوع إلى مروّضه لينال مكافأته قطعة صغيرة أخرى. هكذا ينتهي به الأمر إلى أن يفقد الرغبة في الفرار. طوال مدة الترويض يبقى المروّض والصقر معاً لا يفترقان لحظة واحدة. حيثما ذهب المروّض يأخذ الطائر معه. عندما يتناول طعامه يبقى الصقر جاثماً على قفاز قبضته. وعندما ينام يقف الصقر على مجثم قريباً جداً من سريره. يجب أن يداعبه بلا انقطاع، أن يكلمه، أن يضع على رأسه البرقع وأن ينزعه مراراً.

سكت برهة قبل أن يتابع:

- في الحقيقة، إنّ الصقور هي أشبه بالناس الذين يشبّههم
القول القديم بالصناديق المقفلة: التجربة وحدها هي التي
تفتحها.

توقف مجدداً، وتاهت نظرتة في البعيد.

- أودّ أن أخبرك بما يُسرّك يا مبارك بن لندن. إنني
أشاطرك الرأي إلى حد ما. أنا نصير متحمّس للتقدّم. أتطلّع
إلى أن أرى بلادي تدخل ذات يوم في القرن العشرين، لكنني
أدرك أيضاً أن هذا التحوّل المثير للبلبلّة سوف يترتب عليه
كثير من المشكلات: تلوث البرّ والبحر، تقلّص المساحات
الطبيعية، تدمير الأماكن التي تُؤوي الأجناس البريّة. الحُبّارى،
شأنها شأن الصقور، ستعاني هي أيضاً. من أجل ذلك، إذا
كنّا نتمنّى أن نترك كوكبنا في حالة جيّدة، كالتّي كان عليها
في عهد أسلافنا، أو أفضل، يجب علينا أن نكون حذرين. لا
ينتصر الناس على الطبيعة إلا بالخضوع لها.

حقاً، فكّر ولفريد، هذا الرجل لا ينفكّ يُدهشني. كنّا في
عام 1948 وكان زايد حاكم واحة لا تتعدّى مساحتها بضعة
كيلومترات، وها هو يُلفي نفسه متقدّماً في الزمن نصف قرن،

معرباً عن مخاوف لم تخطر على بال تيسيغر نفسه. أكانت لديه موهبة السفر عبر الزمن؟ لا، كان يقرأ خطوط الرمل.

بقي زهاء شهر في ضيافة الشيخ.

كلّ صباح يذهب إليه ليجده مترئساً برزته في ظلّ شجرة خارج الحصن، ويأخذان في تجاذب أطراف الحديث. وعادة ما كان يقطع حديثهما زوّار قادمون من هنا وهناك؛ بعضهم لا يأتي إلاّ ليطلب هدية أو عطاء.

كان قد انقضى قسم كبير من شهر يونيو لذلك قرّر تيسيغر تأجيل رحلته العُمانية إلى فصل الخريف وقضاء الصيف في العاصمة. قرار حكيم، قال زايد، وعرض عليه أن يوصله إلى الساحل في سيارته اللاندروفر. رفض الإنجليزي. كان يفضل الذهاب على ظهر جمل لتأخير لحظة الافتراق عن أصحابه.

- إذن، سأضع دليلاً في تصرّفك وأعيرك غزالة!

- لن تفعل ذلك، هتف تيسيغر متعجباً.

- بلى! هكذا يمكنك أن تقول إنك امتطيت أجمل ناقة

في العالم! وسيحسدك البدو جميعاً.

بدا ولفريد متأثراً، وانحنى واضعاً يده على قلبه.

- بالتأكيد. لكنني سأقول لهم بوجه خاص إنني التقيت

الشيخ زايد.

أسئلةُ الفصلِ الرابعِ

1. اعقدوا حلقة نقاشية للعبارة الآتية: « لا ينتصر الناس على الطبيعة إلا بالخضوع لها » هل توافق أم تعارض؟
2. جاء في هذا الفصل وصف للحبارى والصقر بصفات دقيقة، بينها، ثم تعاون مع زملائك في جمع معلومات وصور عنها من مصادر أخرى، ثم رتبوا المعلومات في عرض تقديمي واعرضوها في الفصل.
3. عظمة الخالق - سبحانه وتعالى - تظهر في كل شيء من حيوان أو إنسان أو نبات، وضح هذه العظمة في طائر الحبارى كما جاء في هذا الفصل.
4. تحدث عن مراحل ترويض الصقور كما جاء في هذا الفصل.
5. وضح وظيفة الصورة الجمالية في العبارات الآتية:
- إن الصقور هي أشبه بالناس الذين يشبههم القول القديم بالصناديق المقفلة: «التجربة وحدها هي التي تفتحها».

- كانت الشمس في كبد السماء عندما أعطى الشيخ إشارة الانطلاق.

- في ضوء أسنة اللهب المتماوجة بدوا متشابهيين.

6. جاء في الفصل بيان لقاعدة مهمة من قواعد ممارسة هواية الصيد، حدد هذه القاعدة، وبين أثرها على ممارسة هواية الصيد بالصقور.

7. بالرغم من عدم تلقي الشيخ زايد - رحمه الله - تعليمًا كافيًا، كان (ولفريد) يزداد إعجابًا به في كل مرة يلتقي به ما السبب برأيك، دعم رأيك بأمثلة من الفصول الثلاثة السابقة أيضًا.

8. ماذا تستنتج من إعرارة الشيخ زايد - رحمه الله - (غزالة) لولفريد.

5

حيث أرى البحر يرى هو مركباً.

العين، 27 يناير 1950

- زايد، نحتاج إلى المال، ويلزمنا خصوصاً معدّات للقيام بأعمال الحفر. أخشى ألاّ نتمكن من تنفيذ مشروعك على الوجه الأكمل.

عوضاً عن الإجابة المباشرة، هتف الشيخ الذي كان قد صعد إلى سيارته اللاندروفر:

- سوف أعود بعد بضعة أيام.

انطلقت السيارة محدثة غيمة من الغبار ووجهتها الساحل. لمن كانوا على معرفة جيدة بالرجل كان من الواضح أنه في

مزاج عكر.

قاد بسرعة قُصوى إلى أن توقف أمام مدخل الحصن.

كان المبنى المحصن بأربعة أبراج صغيرة في زواياه، وثلاثة أبراج مربعة الشكل، مستننة، إضافة إلى سقيفة تعلوها قبة، يُشرف على مشهد شبحي. بضعة عرشان من سعف النخل، ونحو مائة بيت مبنية بالآجر توحى بأن المكان قرية صغيرة لا عاصمة إمارة. وغير بعيد تلوح بضعة سنايك هائمة على وجه البحر، وصيادون ينصبون شباكهم على الشاطئ الرملي.

ترجل زايد من السيارة. حيّا الحرس القائمين على المدخل. وبعد أن عبر فناءً فسيحاً دخل إلى الجناح الأيمن للمبنى وصعد ممراً طويلاً مجتازاً صفاً من الغرف. وعندما همّ بدخول إحدى تلك الغرف رأى رجلاً أصهب الشعر يرتدي زيّ الجيش البريطاني خارجاً منها. لم يجد صعوبة في التعرف إليه: إنه بييري غوردون⁽¹⁾، مندوب جلالة الملك جورج السادس المفوض بالعلاقات البريطانية في المنطقة.

(1) Pirie-Gordon.

عندما أصبح في موازاة زايد توقف وانحنى واضعاً يده على قلبه.

- السّلام عليكم، رطّن بعربية ذات إيقاع إفرنجيّ.

- كيف حالك يا مستر غوردون؟

- جيّد جداً، يا شيخ زايد، أو لنقل بأحسن ما يمكن. ولولا بعض المشكلات الحدوديّة لكنت بحال أفضل بكثير يقيناً.

هزّ زايد رأسه.

- نعم، أدرك ذلك. لكن ما من مشكلة إلّا ولها حلّ لأنّ الحلّ بأيدينا.

عبس الإنجليزي. من الواضح أن الجواب لم يُرضه.

- اسمح لي بالانصراف. أمامي طريق طويل للوصول إلى دبي.

- بأمان الله، سيد غوردون. سوف نلتقي مجدداً بالتأكيد.

حيّاه الإنجليزي واتجه بخطوات واسعة نحو المخرج.

شيّعه زايد بالنظر للحظات قبل أن يدخل إلى الغرفة التي كان
المندوب الإنجليزي قد غادرها. غرفة بسيطة لها منور وحيد
ينفذ منه شعاع الشمس الشاحب. الأرض مفروشة بالسجاد
والأثاث يقتصر على مقعد طويل منجد يُحاذي أحد الجدران
مغطى بمخدّات متعددة الألوان، وبكرسيين ومكتب... خلفه
رجل مائل برأسه على أوراق يقرأها. أوّل ما يصدم في مظهره
شحوب ملامحه. هو رجل نحيل، قسماته دقيقة ومنتظمة
تزيّنها لحية سوداء مُشدّبة وعينان واسعتان داكنتان. حالما
رأى الزائر ارتسمت على شفّتيه ابتسامة عريضة.

كان ذلك هو الشيخ شخبوط، نهض بعفوية وأسرع نحو
أخيه ليحيّيه أنفاً لأنف تبعاً للعادة، قبل أن يأخذه بين ذراعيه.

- أهلاً وسهلاً!

صفق بيديه. فظهر خادمٌ كما لو بفعلٍ سِحريّ.

- أحضر القهوة، وليعدّوا العشاء.

وأشار إلى كرسيّ.

- تفضّل، اجلس.

امثل زايد فيما جلس شخبوط مقابله.

- سعيد جداً برؤيتك. أرى أننا قلماً نلتقي. ينبغي أن أذهب لزيارتك في العين ولا سيما أنني هناك أشعر بأنني أفضل حالاً.

- غنيّ عن القول طبعاً أنك تكون هناك في منزلك. كيف حالك؟ كيف حال أمّنا؟

- أمّنا، حفظها الله، بصحة جيدة. أما في ما يخصني فلا أعلم شيئاً. منذ بعض الوقت ما عدت أدري ما بي، بصري يخف، وعظامي تؤلمني. بعد ثلاثة أشهر أكمل الخامسة والأربعين من العمر.

- هيا، أنت شابّ! وزوجتك الشبيخة مريم؟

- تنتظر مولوداً.

كان الخادم قد عاد حاملاً فنجانين صغيرين ودلّة⁽¹⁾.

قدّم القهوة وانسحب باحترام.

(1) إبريق القهوة، ويقال أيضاً الركوة. (م.م.)

- هزّاع متوعّك قليلاً، لكنّه بخير. وولدي خليفة بلغ عامه الثاني.

ثمّ أعلن:

- رأيت للتوّ بيري غوردون، كان مُغتماً.

- دائماً هذا النزاع الحدودي. لا ينتهي.

هزّ زايد رأسه. كان الموضوع واحة البُريمي، وفي ما يخص زايد كان همّه الوحيد تجنّب سفك الدماء مهما كان الثمن. في رأيه أنّه لا يمكن لعربيّ، ولا ينبغي له أن يسفك دم عربيّ آخر.

رفع شخبوط الفنججان إلى شفّتيه. وتابع الرجلان حوارهما المفعم دماً إلى أن قرّر زايد أن يُفصح عن سبب زيارته.

- أخي، اسمح لي أن أكلمك بصراحة.

- أليس هذا ما اعتدنا عليه؟ أسمعك.

نهض الشيخ. مسح براحته تجعيداً خفياً في كندورته. وتقدّم نحو المكتب بوقار.

- يا أخي، لا يغرب عنك أن العين منطقة زراعية على مدار السنة، وترتبط كثيراً بالمياه المنحدرة من جبل حفيت. هذه المياه بحاجة إلى قنوات تجري فيها. جدُّنا، رحمه الله، كان يدرك أهمية هذه القنوات. منذ بدء الأزمة المالية التي حاقت بنا - أتكلّم طبعاً عن تدهور تجارة اللؤلؤ - لم نتمكن لعدم توافر الإمكانيات من صيانة القنوات الموجودة. وهذا ما أدّى إلى جفاف بعض الأفلاج وانسداد غيرها بفعل الرواسب. والحال أننا نمتلك منذ بعض الوقت موارد أخرى من...

قاطعه شخبوط.

- تريد أن تتكلّم عن النفط.

- 115 ألف رويّة من العقد المُبرم مع شركة تطوير بترول الساحل. ألا ترى أن بإمكاننا الإفادة من هذه العائدات؟

بدا شخبوط مرهقاً.

- أنا في حالة نزاع مع هذه الشركة. يحاول مسؤولوها الاحتيال عليّ، وممثّلهم، المدعو لونغريغ، يهدّد بمقاضاتي في المحكمة.

- ما هي الأسباب؟

- أخبرك في ما بعد. لنُعد إلى ماخذك؟ ألم أبنِ خط أنابيب لنقل الماء من العين إلى هنا؟ وأعتزم إنشاء وحدتين لتحلية المياه. وطلبت من مهندس أن يضع تصميمًا لمرفأ.

- بلى، يا أخي، أعلم ذلك. وعلينا أن نسدد مبلغ 23 ألف دولار وعدنا بها المهندس الذي عاد أدراجه متأبطاً التصميمين. وينبغي أن نستمرّ في شقّ الطرق وبناء المدارس والمستشفيات واستيراد الأجهزة والاستعانة بمستشارين ماليين والتعامل مع البنوك.

- المستشار المالي الذي اقترحوه عليّ كان أجنبياً! وأنا لا أريد أن يدسّ الأجانب أنوفهم في قضايا بلادنا. أمّا بشأن البنوك فقد قبلتُ مؤخراً بالتعامل معها وفتحتُ حساباً مصرفياً.

ارتسمت على شفّتيه ابتسامة وأضاف:

- لكنّ ذلك لا يمنع من اختباري لهم في أيّ وقت للتأكد من جاهزيتهم لإمدادي بأيّ مبلغ في أيّ وقت.

- ولكنّ المستقبل لا ينتظر أحداً يا أخي، علينا أن نذهب

إليه.

هذه المرّة وقف شخبوط.

حدّق في عيني أخيه ثم قال بصوت بالغ التأثير:

- أنا قلق يا زايد. قلق من أن تفقد بلادنا أصالتها. يقرعون أذني كلّ يوم بهذه الكلمة: «تقدّم»، «تقدّم». ما هو التقدّم؟ تطوير الفرد؟ أو تطوير المنافع الماديّة؟ لكنني أقول إن ما يسمّونه التقدّم ما هو إلاّ استبدال مشكلة بأخرى. لقد عشنا حياة طيبة على مدى قرنين من دون سيارات، ولا طُرق، ولا كهرباء، لا شيء سوى مهارتنا وتقاليدنا. لماذا هذا الإصرار على تغيير ما نحن فيه؟ نعم، أعلم أنك ستردّ عليّ قائلاً إنّ الآخرين قد بنوا مستشفيات ومدارس. لكن لماذا نقلد ما يفعلونه؟ بما أنك تحدّثني عن مدارس، ما الفائدة من بنائها وليس لدينا معلّمون؟

ما إن همّ زايد بالردّ حتى أكمل الشيخ شخبوط حديثه:

- نعم، أفهمك. تريد أن تقول لي إن بوسعنا أن نأتي بهم من الخارج. أنا أرفض ذلك. التعليم عمل مقدّس ولا ينبغي أن يتولّاه إلاّ معلّمون من بلادنا.

أخذ نفساً قصيراً.

- تريد أن تعلم ما هو التقدّم في نظري؟ إنّه خطر يهدّد
الأصالة والهويّة.

خيّم صمت ثقيل قبل أن يستعيد زايد دوره في الكلام.

- ما رأي هزّاع وخالد في ذلك؟

- تريد أن أجيبك بصراحة؟ أشعر بأن أخويّ لا يوافقاني
الرأي، لكنهما يدعمانني. وأنت؟

قدّم الخادم لهما القهوة ثانيةً وهمس:

- العشاء جاهز.

ولمّا لم يكن زايد قد أجاب بعد، كرّر شخبوط السؤال.

اقترب أخوه منه وأحاطه بذراعيه وقبّل جبهته.

- أنت أخي الكبير وأنت قائدنا. بصفتي أخاك أمنحك

حُبّي وولائي، وبصفتي مواطناً أوليك طاعتي واحترامي،
وسأبقى هكذا دائماً، ما قدر الله لنا من حياة.

لا ريب في أن شخبوط تأثر بهذه المحادثة لأنه بعد أسبوعين على لقائنا أمدني بالوسائل اللازمة لبدء الأشغال.

على مدى الأزمان كان الوصول إلى الماء امتيازاً في العين. كان موقوفاً على عائلات الوجهاء، أما الآخرون فلا يصلون إليه إلا بقدر إمكاناتهم المتواضعة. هذا ما اعتبره إجحافاً. الماء يجب أن يكون في مُتناول الجميع، أغنياء وفقراء. ولقد عزمت على إنهاء هذا الوضع.

قرّرت في المرحلة الأولى تنظيف قنوات الري المكتظة بركام من الحجارة أو المسدودة بالرمل. كان المشروع معقداً، خصوصاً ونحن لا نملك أية معدّات حديثة. استغرق التنفيذ وقتاً طويلاً وكان العمل شاقاً وعندما انتهى تبين أن المنسوب لن يكون كافياً لتلبية احتياجات جميع السكان. ما العمل؟ لا بدّ من العثور على مصادر تموين جديدة. ومرّة أخرى واجهتنا الحقيقة القاسية: عدم وجود المعدّات المناسبة.

- هذا محزن، لكن الإناء ينضح بما فيه. وإنّاؤنا فارغ.

هكذا شرح الأمر فارس، صديق العمر، الذي كان يقال

عنه: «له قوّة الأسد وقلب حمل». كنت أودّه كثيراً. كنّا
يُكمل أحدنا الآخر. حيث أرى البحر يرى هو مركباً. لم
أعرف أصله أبداً، وذلك لا يعنيني: كان اسمه فارس.

أجبتّه:

- أنت متشائم جداً، يا أخي.

- وأنت، يا زايد، متفائل جداً. لاحظتك أمس. انعقد
لساني عندما رأيتك ترسم بعضاً خطوطاً على الرمل وسمعتك
تتكلم وحدك. كنت تقول: «هنا ستقوم مدرسة ذات يوم،
وهناك مستشفى، وهناك مدرسة أخرى!»! ينقصنا الماء لكن
دماغك غارق.

- ماذا تريد؟ المتفائل يحلم لينسى والمتشائم ينسى أن
يحلم.

أشرت إلى فضاء يكثر فيه النخيل، وأعلنت مشدداً على
الكلمات:

- نعم. هنا ستقوم ذات يوم مدرسة، وهناك مستشفى.

- أنت امرؤ لا يمكن تقويمه!

- لا، يا صديقي، لديّ الحلّ. بما أننا لا نملك الوسائل
الفعّالة فسوف نستخدم الوسائل التي وهبتنا إياها الطبيعة.
سوف نوجّه نداءً إلى جميع الرجال ذوي النيات الحسنة
ونذهب للبحث عن الماء حيث ينتظرنا: في الطبقات الجوفية.
حالما تُحفر البئر الأمّ ويتم الوصول إلى الماء نوصله بأفلاج⁽¹⁾.
هكذا نكوّن شبكة.

رفع فارس يده إلى جبهته.

- يا الله! لستَ جاداً، يا زايد. أتدري ما يعنيه ذلك؟ حفر
حوالي أربعين متراً في الأرض الوعرة وصولاً إلى مجرى الماء
في الظلمة. هذا مستحيل.

- لا، إذا اشترك فيه كلّ الرجال القادرين على العمل.

- لكننا لا نملك رويّة واحدة لمكافأتهم.

- سوف يعملون مجّاناً. سأقنعهم.

- كيف؟

- بأن أوضح لهم أن هذا المشروع لمصلحتهم، بفضله لن

(1) أفلاج: جمع فلج، وهو ممرّ مائيّ. (م. م.).

يعودوا يخافون الجفاف، لا هُم، ولا أولادهم، ولا مواشيهم.
ثم إن الرسوم الصغيرة التي نجبها عن المشروع سوف تُستثمر
فوراً لخلق أفلاج جديدة، وهذه المياه المستخرجة من أعماق
الأرض تصبح ملكاً مشتركاً لجميع السكان.

حلّ صمّت لا يكاد يخرقه حفيف مرور الريح بسعف
النخيل.

- جيّد جدّاً، تنهّد صديقي، كما في القول القديم: «إن
تقدّمت مُتّ وإن تراجعَت مُتّ. فلماذا تراجع؟».

في اليوم نفسه قمت بجولة على رجال القبائل. زرت كلّ
بيت، وتحدّثت مع ربّ كلّ أسرة، وعرضت عليهم مشروعني.
لم يكونوا بحاجة إلى التشاور، وكان ردّ فعلهم واحداً.

- مجّاناً، العمل مجّاناً؟ أفلا يستحقّ كلّ جهد أجرأ؟

- هل يُدفع لكم أجر لكي تتنفسوا؟ الماء والهواء ملك
لجميع الكائنات. انظروا أولاً إلى الفوائد التي ستجنونها أنتم
وعائلاتكم من هذه القنوات الجديدة.

- لكن لا أحد اندفع في مثل هذا المشروع! من الصعب

جدّاً تحقيقه! ليس لدينا المؤهلات اللازمة لإنجازه.

استمرّ الجدل مدّة طويلة إلى أن صاح فارس:

- يا إخواني، نحن لا نجرؤ على الأشياء لأنها صعبة،
بل إنها صعبة لأننا لا نجرؤ عليها. هيّا! أين ذهبت نخوتكم
البدوية؟ أين شجاعتكم؟ أين ثباتكم؟

أصابتهم كلمات صديقي في الجانب الأكثر حساسية
لدينا: الكبرياء. قبلوا التحدي.

عهدت إلى أهالي العين بمهمّة حفر البئر الأم⁽¹⁾ وكلفت
عدداً من الأشخاص بشقّ الصاروج⁽²⁾. بناءً على التصاميم التي
وضعتها كان على الماء أن يجري في هذا الفلج ثم يمرّ
في قنوات ثانوية، في ساعات معيّنة، وعلى فترات منتظمة.
والهدف هو توزيع الماء على السكان بالتساوي لقاء رسم
زهيد. غير أن الإنصاف لم يعمر طويلاً، ويا للأسف! سارعت
العائلات الأكثر غنىً إلى شراء كمّيات كبيرة من الماء لكي
تعود فتبيعها بسعر أكبر مرتين أو ثلاث مرّات إلى العائلات

(1) أمّ الفلج: مصدر إمداد بقية الأفلاج بالماء. (م. م.)

(2) الصاروج: من الأفلاج الكبيرة في العين. (م. م.)

الأكثر فقراً. والذين لا يقدرّون على الدفع باتوا محرومين من الماء.

الغضب ليس من شيمى. ولكن كيف لي أن أتمالك نفسي أمام ما كنت أعتبره عملاً من أعمال القرصنة؟ على مدى أيام طويلة جهدت في محاولة إعادة المسؤولين عن هذا الانحراف إلى رشدهم. بلا جدوى. ما يفعلونه هو في نظرهم تجارة. وما من قانون يمكن أن يمنعهم من التجارة. لغياب أيّ حلّ آخر، قرّرت أن أتخذ قراراً قاسياً. جمعت الوجيهاء وأبلغتهم:

- من اليوم فصاعداً يصبح ماء الصاروج للفقراء وخدمهم. والذين يجمعون الثروات من مصائب غيرهم لن يعود لهم حق في هذا الماء.

وأضفت:

- سوف تكتفون بأخذ الماء من الأفلاج القديمة، ولن تحصلوا على قطرة زيادة. أما أنا فأتخلّى عن الرسم المُجيبى وأطلب من عائلتي وأصدقائي أن يقتدوا بي.

لكن هؤلاء الأغنياء أدركوا بخفاء أنهم لن يحصلوا، آجلاً أو عاجلاً، على ما يكفي من الماء لإرواء عطشهم أو ريّ

مزرروعاتهم، فوضعوا حدّاً لتجارتهم غير المشروعة. هكذا
بات الحصول على الماء مُتاحاً للجميع من دون قيد ولا
شرط.

أسئلة الفصل الخامس

1. تصدر هذا الفصل تدوين للمكان والتاريخ، ما أهمية ذلك من وجهة نظرك؟ حاول دعم إجابتك بالأدلة والبراهين.
2. تتبع الحوار الذي دار بين الشيخ شخبوط والشيخ زايد -رحمهما الله- ثم بين صفتين من صفات الحوار، دعم إجابتك بأدلة من الحوار.
3. كان الشيخ شخبوط - رحمه الله - في اختلاف مع شركة تطوير البترول، أذكر أسباب هذا الاختلاف ونتائجه.
4. جاء في النص عبارة: «المستقبل لا ينتظر أحداً يا أخي، علينا أن نذهب إليه» فسر المقصود بها. مبينا رأيك ومعللا له؟
5. برز في هذا الفصل مفهوم الاعتزاز بالهوية، تتبع مشاهدته والأقوال التي تؤكده.
6. أثبت الشيخ زايد - رحمه الله - في هذا الفصل أن لكل

مشكلة حل، حلل وناقش.

7. قال الشيخ زايد - رحمه الله - واصفًا صديقه: « له قوة الأسد وقلب الحمل، حيث أرى البحر يرى هو مركبًا» ما الدلالة التي تحملها هذه العبارة؟ وهل كانت معبرة عن معرفة الشيخ زايد بصديقه فارس؟ وضح ذلك.

8. اعقدوا حلقة نقاشية للعبارة: « المتفائل يحلم لينسى، والمتشائم ينسى أن يحلم». وضح ذلك.

9. قال الشيخ زايد - رحمه الله - : « الماء يجب أن يكون في متناول الجميع، أغنياء وفقراء» هذه المقولة تؤسس لمفهوم العدالة قولاً وفعلاً؟ وضح ذلك.

10. اشرح بلغتك لماذا كان مشروع الماء معقدًا؟

11. « إن تقدمت مت وإن تراجع مت فلماذا التراجع» اكتب فقرةً تتحدث فيها عن المواقف التي لها ارتباط بالمقولة السابقة.

12. انتهى هذا الفصل بنتائج جميلة ومميزة ماهذه النتائج؟

6

من اختلافاتنا يجب أن تنشأ الرابطة
التي توحد الناس.

باريس، 22 أغسطس 1951.

كنت أفضل أن تكون هذه الرحلة للاستجمام فقط.
للأسف، سافرنا، أنا وشخبوط، لتسوية خلاف نجم منذ أشهر
بيننا وبين شركة تطوير بترول الساحل.

قبل عام، عندما قمت بزيارة أخي لأعرض عليه تظلماتي
أثار هذه القضية جزئياً رافضاً في الوقت ذاته إطلاعي على
التفاصيل، وقد عرفت عنها المزيد مذاك.

كانت القضية بسيطة ومعقدة في آن.

في عام 1939 منح الشيخ شخبوط هذه الشركة امتيازاً

بموجب المادة 2 من العقد. يغطي الامتياز «جميع الأراضي الخاضعة لسلطته وملحقاتها، وكذلك جميع الجزر والمياه الإقليمية». لكن في عام 1945 أبصر النور مفهوم جديد للقانون الدولي بإيعاز من الولايات المتحدة هو مصطلح «الأوفشور»⁽¹⁾! ينصّ هذا المصطلح على أن أعماق البحر الواقعة في أعالي البحار لكنها مجاورة لسواحل بلد ما هي ملك لهذا البلد. أي أبعد من الحدّ التقليدي للمياه الإقليمية المقدّر بثلاثة أميال، أو خمسة كيلومترات، الساري حتى ذلك الحين.

عندما علم شخبوط بهذا الوضع الجديد سارع - باستحقاق - إلى بسط سلطتنا على هذا الجزء المسمّى «أوفشور». كان ردّ فعل الشركة مباشراً. اعتبرت أن هذه المنطقة الجديدة⁽²⁾ هي جزء من امتياز عام 1939 الموقع مع أخي. والحال أن مصطلح «الأوفشور» لم يكن موجوداً آنذاك. لم يرفض شخبوط طلب الشركة، وله كلّ الحق في ذلك، فحسب بل عمد في ديسمبر 1950 إلى منح امتياز «الأوفشور» إلى شركة «سوبريور أويل

(1) الجُرف القارّي. (م. م.)

(2) التربة المغمورة في الجرف القارّي. (م. م.)

أوف كاليفورنيا»⁽¹⁾. طبعاً، اعترضت شركة تطوير بترول الساحل على القرار وتعيّن أن تخضع القضية للتحكيم في باريس. وهذا ما جاء بنا إلى العاصمة الفرنسية.

كان القاضي الناظر في القضية يدعى لورد أسكويث⁽²⁾، وهو في الستين من العمر، ابن رئيس وزراء إنجليزي سابق، وشخصية متميزة جداً! استعلمت عنه ووثقت به. كان قد أظهر في أحكامه السابقة حكمة ونزاهة مثالية.

في الثامن والعشرين من شهر أغسطس، أي قبل أسبوع من وصولنا إلى باريس، أصبح تفاؤلي مؤكداً. حكم لورد أسكويث بأحقّيتنا. لا يمكن للشركة المعارضة أن تدّعي لنفسها أيّ حقّ في ما يتعدّى الحدّ التقليدي المقدّر بثلاثة أميال. وبالتالي تعود ملكية منطقة «الأوفشور» لنا ونحن أحرار في منح امتيازها لمن نشاء. تنفّسنا، أنا وشخبوط، الصّعداء، على الرغم من المرارة التي شعرنا بها جرّاء وصف لورد أسكويث لبلادنا في ديباجة حكمه بأنها: «بلاد واسعة، بدائية، فقيرة، وقليلة السكان».

(1) Superior Oil of California.

(2) Lord Asquith.

أثناء إقامتنا في باريس تساءلت غير مرّة عن السبب الذي من أجله لُقِّبَت «مدينة النور». فسّر لي ذلك ستيفان شامبان⁽¹⁾ أحد المحامين الإنجليز الذي دافع عنا. قال إن ذلك يعود إلى عهد الملك لويس الرابع عشر حين وضعت آلاف الفوانيس والمشاعل في الشوارع وعلى واجهات المباني بأمر من رئيس شرطة باريس. بذلك كان الموظفون يأملون أن يتحسّن الوضع الأمني في الشوارع لردع قطاع الطرق عن مهاجمة المارّة. ومنذ ذلك الحين دأب زوّار المدينة العابرون الذين أُعجبوا بهذه الإضاءة العامة، التي يبدو أنها الأولى في العالم، على إعطاء العاصمة الفرنسية هذا اللقب: «مدينة النور».

من أعلى بُرج إيفل كان المشهد غير عادي. التهمت بعيني كلّ تفصيل فيه. لكن أفترض أنني كنت أنا أيضاً، شخصاً غير عادي في نظر أولئك الذين يشاهدونني في لباسي البدوي، مغطّي الرأس بغترة. لم أنس تعبير المارّة عندما رأوني نازلاً جادّة الشانزليزيه. كنتُ مشاراً للدهشة في كلّ مكان. ومن

(1) Stephan Chapman

غير المستبعد أن يتخيّل مَنْ يراني من الباريسيين أنني شخصية خارجة من صفحات ألف ليلة وليلة وأن ثمة شهرزاد تنتظرني في مكان ما. لكل بلد عاداته وتقاليده وثقافته، وكلها توحى بالاحترام. وأسوأ المواقف ليس أن ترتدي هذا الزيّ أو ذلك، أو أن تعيش بهذه الطريقة أو تلك، لا، أسوأ المواقف هو أن تسعى لتفرض على غيرك نمط تفكيرك. فمن اختلافاتنا يجب أن تنشأ الرابطة التي توحد الناس. ذلك أن الله أرادنا أن نكون كما نحن: مختلفين.

كانت زيارة متحف اللوفر لحظة افتتاح رائعة. عندما دخلت إلى حرم المتحف شعرت وكأنني ألج بقدم ثابتة تاريخ البشرية العالمي. حضارات شرقية قديمة، مصرية، يونانية، أثرورية⁽¹⁾، رومانية، وفنون الخطّ وفنون الإسلام، من قاعة إلى قاعة كان هذا المتحف الرائع يكشف لي عن نفائسه. أفكان من الطبيعي ألاّ أحلم بأننا نستطيع أن ننعم ذات يوم بصرح عظيم كهذا الصرح خدمة لرفاهية شعبنا⁽²⁾؟

(1) Etrusques نسبة إلى أثروريا التي كانت تقع قديماً غربي إيطاليا. (م. م.)

(2) أكان بوسع الشيخ زايد أن يتخيّل أنّ حلمه هذا سوف يتحقّق بعد 13 عاماً على رحيله، وذلك بافتتاح لوفر أبوظبي بتاريخ 8 نوفمبر 2017؟

وأثناء إقامتنا في باريس حصل شيء من الاستلطاف بيني وبين وزير الخارجية الفرنسي موريس شومان، وهو رجل ذو مكانة. أخبرني أنه توجد في فرنسا، منذ قرن تقريباً، إدارة مهمتها الحرص على ألاّ تعتمد بعض الأمّهات البائسات، اللواتي لا يمكنهنّ الاحتفاظ بأطفالهن، إلى التخلّي عنهم. من أجل ذلك خُصّصت لهنّ مساعدات مالية وعينية على شكل بياضات وملابس، إضافة إلى دفع أجره المرضعات. وتُستدعى قابلات لزيارة الحوامل منهنّ في بيوتهنّ لمساعدتهنّ عندما يحين وقت ولادتهنّ. ومنذ قرن تقريباً طوّرت في المستشفيات وسائل التدفئة، والتهوية، والحمّامات، وحلّت مكان الأسيرة الحديدية أسيرة خشبية. وتم بناء العديد من خزانات المياه في أنحاء المدينة ليُعمّ استخدام المياه الجارية البيوت كافة. وفي أقلّ من ثماني سنوات شُيّد أكثر من 62 مدرسة تستوعب 17 ألف تلميذ. وعند حلول الليل تُنار الشوارع في أقلّ من ثلاثين دقيقة. وفي تلك المرحلة نفسها ظهرت الجادّات العريضة المحفوفة بالأشجار. وعلى قول السيد شومان، حدثت كلّ هذه التغييرات بإيعاز من رجل واحد هو نابليون الثالث، أوّل رئيس للجمهورية الفرنسية. قلت في نفسي إنّ ما استطاع أن يحققه حاكم فرد بعزيمته وحدها قبل مائة سنة يمكننا نحن

أيضاً أن نحققه. يكفي أن نريده.

مكان في الصحراء، 6 فبراير 1954

أوقف زايد سيّارته اللاندروفر عند كثيب، قريباً جداً من سيّارتين أُخريين، إحداهما لشيخ من المنطقة، والثانية لصديقه فارس. الجوّ خانق، مع أن الفصل شتاء، لكن الشمس ما انفكت ترمي بسهام أشعتها على المدى الرحب. كان برفقة الشيخ نجله الأكبر خليفة الداخل في عامه السادس عشر. تغطي رأس الفتى غترة ناصعة البياض تعطيه سنتين أو ثلاث سنوات زيادة في العمر. غير بعيد كان حوالي عشرة مراهقين يمتطون جِمالاً ذات وبر أصهب، تُرغي، وتضرب الأرض بأخفافها، في نظام مُشتّت إلى حد ما. بخلاف الجِمال ذات السّنامين، هذه الجِمال العربية صالحة للسباق. إنّها حيوانات ضخمة، فارعة، مطوّقة بحزام تحت البطن، والنخطم بالمرصاد. كان على ظهر بعضها غطاء صغير مرقش، وعلى غيرها قطع من نسيج خامّ. وكان أصحابها، وهم مُدربوها أيضاً، يقودونها بحبال رفيعة؛ لقد غدّوها، ودربوها، واعتنوا بها لهذا اليوم

المشهود، سباق الثمانية كيلومترات عبر الرمال.

على ظهور الجمال أيضاً، متأخرين قليلاً، كان آباء المتبارين المراهقين، والعديد من المشاهدين الذين جاؤوا من القرى المجاورة، يترقبون متوترين إشارة الانطلاق من يد الشيخ زايد. تناول الشيخ بندقيته وخرج من اللاندروفر، يتبعه ابنه خليفة، مصحوباً بصيحات الابتهاج وهتافات الترحيب وطلقات البنادق. مرّ من مُتبارٍ إلى آخر، مُداعِباً عُنق بَعير، وكَفَلَ آخر، مشجّعاً راكبيها المنتصبين بفخر على رحالهم الصغيرة الخشبية.

سأل خليفة مشيراً إلى سنام جمل:

- أهنا يحتفظ باحتياطيّ الماء؟

- آه، لا. يظنّ ذلك الغرييون وحدهم. هذا مخزن الشحم لا الماء. الشحم غنيّ جداً بالمعادن ويمكن الجمل من الصمود ثلاثة أسابيع تقريباً من دون أن يأكل أو يشرب لأنّ هذا الشحم ينتج الماء أيضاً، لكن بعد فترة طويلة من الصوم يمكنه أن يتلّع حتى مائة لتر من الماء.

- ماذا تقول، يا زايد! هتف فارس، أما زلت ترى أن ابني،

أحمد، لن يفوز بهذا السباق؟

- أتريد أن تضحك؟ على جملك الهزيل؟

واتخذ الشيخ خليفة شاهداً:

- يا بني، انظر إلى هذا الحيوان: لم يعد أمامه عُمر، أُذناه قصيرتان جداً، وعُرقوباه بارزان للخارج ومُرتدّان للخلف، عنقه غير سويّ، وجلده مترهّل.

والتفت نحو فارس ليردّ على سؤاله:

- لا حظّ له البتّة!

- سوف نرى!

خطا زايد خطوة إلى الوراء. لوّح ببندقيته. انتظر حتى صَفّ المتبارون جمالهم - وهذا ليس بالمناورة السهلة - ثم رفع البندقية نحو السماء وأطلق رصاصة.

في الحال، ثارت الصحراء وعلا الغبار واهتزت الأرض كما لو أنها تعرّضت لزلزال. مرّت الجمال المستحثة مرّ السهام مندفعة إلى الأمام. ركض فارس نحو سيارته، وهرع زايد وابنه

إلى سيارتهما. استقرّ الشيخ أمام المقود وضغط برجله على الدواسة فانطلقت اللاندروفر كأنها تقفز وحادت إلى اليسار لكي ترقى إلى مستوى المتبارين. بأية سرعة؟ لامست إبرة العداد الـ 50 كلم في الساعة.

- تمسّك جيداً! أمر زايد ابنه.

ما إن أطلق هذا التحذير حتى - وهذا ما أسعد خليفة كلّ السعادة - طفرت اللاندروفر متراً وارتفع الدولابان الأماميان في الهواء لينحدرا بسرعة خاطفة على أحد الكثبان.

سجّلت إبرة العداد 60 كلم في الساعة.

ألقي زايد نظرة على المرآة الخلفيّة. كان فارس خلفه مباشرة. أما بقية البدو فكانوا يحاولون اللحاق بهم حاثين جمالهم على الجري بأسرع ما تستطيع. كلّ ذلك وسط ضوضاء اختلطت فيها أصوات الصراخ والحثّ بأزيز المحركات وارتجاج الصحراء.

لم يمضِ وقت طويل حتى بان العمود الذي يحدّد خط الوصول في السباق. وفي اندفاعة أخيرة تخطّته الجمال الثلاثة الأولى. وتقاطرت الجمال الأخرى إثرها.

كبح زايد اللاندروفر فجأة. نزل منها مع ابنه وتوجّها نحو
بدويّ مُسنّ كان يقف منذ بداية السباق قرب العمود. تبعهما
فارس مسرعاً.

سَلّم البدوي المسنّ على الشيخ أنفاً لأنف.

- ماذا؟ سأل زايد.

- الرقم ستّة، أعلن البدويّ، أنا...

لم يُكمل عبارته، في هذه اللحظة كان فارس يطلق صيحة
النصر.

- ماذا كنت أقول لك؟ ابني.

ثمّ مال نحو خليفة وكرّر الكلمات التي سبق لزايد أن
قالها:

- «لم يعد أمامه عمر، أذناه قصيرتان جداً، وعُرقوباه
بارزان للخارج ومُرتدّان للخلف، عنقه غير سويّ، وجلده
مترهّل». ها أنت ترى يا عزيزي، اعلم أن أباك على حقّ
دائماً، وأنه لا تخفى عليه خافية في أحوال الصقور والبشر
والجياذ والجمال. لكنّ فراستي في السباقات لا تخطئ أحياناً.

هزّ زايد رأسه مُبتسماً:

- الحقّ معك يا صديقي. لكن لا يهمّ أن تفقد جهة الشمال إذا كنتَ تعرف أين الجنوب. تهانني. الآن ابتسم لك الحظّ وحوّل جملك إلى جواد أصيل.

أخرج مُغلّفاً من جيبِ كندورته لدى وصول والدي الفائزين اللذين جاءا ثانياً وثالثاً في السباق، وكانا يرفعان رأسيهما فخراً واعتزازاً.

أعطى زايد مبلغاً من المال لوالد الفائز الثالث. ومبلغاً آخر لوالد الفائز الثاني. وحين أعطى فارسَ المبلغ الذي يستحقّه ابنه استأذن فارس الشيخَ زايد بأن يوزّع جائزة ابنه على الفائزين الآخرين تشجيعاً لهما.

- وزّعه عليهما، قال مشيراً إلى الرجلين، أنا كفاني الله من فضله.

أيّده الشيخ زايد ثم جلس مع خليفة على الرمل، وتحلّق حولهما الآخرون وشرعوا في تقييم السباق، ومزايا الإبل، وسرعتها. وحين همّ الشيخ بالاستئذان للمغادرة وصل فارس على حين غرّة.

- زايد، قال وهو يتصّبب عرقاً، وفد علينا زائر أجنبيّ،
وصل على متن سفينة حربية. كان يريد مقابلة الشيخ شخبوط،
لكنه غادر فجراً إلى دُبَي، وهو يرجوك أن تتحقّق من مقاصد
هذا الرجل.

بعد ثلاث ساعات كنت في العاصمة.

في الواقع كان هناك سفينة راسية على بعد أمتار من
الساحل، لكن لا شيء فيها يدلّ على أنها سفينة حربية. كانت
مركباً يبلغ طوله حوالي خمسين متراً، أبيض بالكامل، ذو
هيكل خشبيّ، وخط تعويم أسود. على متنه أكوام متناثرة من
المعدّات. وقد أثار فضولي تفصيلاً: كرة ضخمة، بيضاء هي
أيضاً، مشرفة على الجسر الضيق، وما كان في نظري اكتشافاً
هو مروحية جاثمة على مزلقة القذف في مؤخرة المركب.

- أرى أن كاليبسو، سفينتي، تثير اهتمامك.

استدرتُ. كان مُكلّمي رجلاً أربعينياً، نحيلاً، عظمي
الوجه، عيناه صغيرتان زرقاوان تحيط بهما نظاراتان معدنيّتان،
وعلى رأسه طاقة حمراء. لكلامه باللغة الإنجليزية لُكنة مُغايرة

تميّزه حتى أنني لم أستطع أن أتبيّن هويته للوهلة الأولى.
وكانت برفقته امرأة، شقراء، ممشوقة.

كان كلاهما يحمل سلّة مصنوعة من سعف النخيل،
ممتلئة بالفواكه والخضار.

- أعرّفك بنفسي، قال الرجل الذي بادرنى بالكلام، أنا
الرائد جان إيف كوستو⁽¹⁾.

وتابع مشيراً إلى المرأة:

- زوجتي، سيمون.

في تلك المرحلة لم أكن متمكناً من اللغة الإنجليزية لكن
كنت أتوصّل إلى فهم ما يقال.

سألت:

- رائد؟ أنت عسكريّ إذن.

- عسكريّ متقاعد. كنت في سلاح البحرية الفرنسية
إبان حرب الأربعين.

(1) Jean-Yves Cousteau

- أنت فرنسي إذن...

- تماماً. ولدت في سانت أندريه دو كوبزاك. أظن أنك لا تعرفها. إنها بلدة في جنوب شرق فرنسا. هل سبق لك أن زرت بلادنا؟

- طبعاً. زرتها، أنا وأخي الشيخ شخبوط، منذ أربع سنوات وأحتفظ عنها بذكرى رائعة.

حملت المرأة مندهشة.

- أنت أخو الشيخ؟

أكدت.

- يا لها من مصادفة مذهلة. كنا نعتزم زيارته لكن قيل لنا إنه غائب، للأسف.

هتف كوستو متعجباً:

- إذن، لعلك زايد؟ الشيخ زايد؟

أكدت مجدداً.

- لي مزيد الشرف، أضاف الفرنسي، حدثت عنك كثيراً،
وعن أخيك طبعاً. هل تعلم أن التنقيبات التي أعتزم القيام بها
تعنيكم بصورة غير مباشرة؟ لدينا مصالح مشتركة.

- لا أفهم.

سدّد إصبعه نحو المركب الراسي في عُرض البحر.

- هبّ لنا شرف دعوتك إليه، سوف نشرح لك الأمر.

ركبنا في زورق مطاط. وما هي إلا لحظات حتى كنا
على متن كاليبسو حيث استقبلنا الطاقم بحفاوة. أعطاهم
الزوجان سلال المؤن وتبعتهما نحو غرفة قالا لي إنّها بمثابة
صالة الطّعام، فيها مقعد طويل وطاولة ومناضد.

أعلن كوستو بابتسامة:

- هذا قصرنا. هنا نجتمع لاتخاذ القرارات الكبيرة. تفضل
بالجلوس، أرجوك. هل ترغب في شراب مُعيّن؟ شراب طازج؟

طلبت ماء.

أخرجت سيمون، زوجته، من ثلاثّة صغيرة قنّيتي مياه

معدنية والتقطت كوبين ووضعت الجميع على الطاولة أمامي.

- أترككما، قالت، لديّ عمل ينتظرني.

حيّتي وتوارت.

- والآن، سألت، هلاًّ شرحت لي؟

- طبعاً سأشرح لك. لكنّ أنبّهك، سيكون ذلك طويلاً.

وكان الحديث طويلاً بالفعل. لكنني ما زلت أحتفظ
بجوهره في ذاكرتي.

في سنّ مبكرة جداً طوّر الفرنسي هواية التصوير في أعماق
البحر لكنّ نظراً إلى نقص الأوكسجين كان من المستحيل
أن يبقى طويلاً تحت الماء، وهذا أمر طبيعيّ. بالاشتراك مع
صديق له مهندس عملاً على فكرة تطوير جهاز تنفس تحت
الماء⁽¹⁾، أو الرئة المائية. هذا الجهاز يسمح للغوّاص بالتنفّس
تحت الماء لأكثر من ساعتين. أثار الاختراع اهتمام كوستو
للتصوير في أعماق البحر بحثاً عن حُطام أو مواقع أثرية. لكن
هل من غوّاص بلا مركب؟ في عام 1950 عثر على المركب

(1) Aqualung.

المثالي، في شكل كاسحة ألغام قديمة تابعة للبحرية الملكية كانت تُستخدم كمُعَدِّيَّة⁽¹⁾، سمّاها صاحبها كاليبسو. ولكن يا للأسف، لم يكن كوستو يمتلك المال اللازم لشرائها. إلا أنّ صديقاً له اشتراها وأجرها له بمبلغ رمزي قدره فرنك واحد في السنة. أعمال إعادة التأهيل مولّتها شركات خاصة والبحرية الفرنسية وآل كوستو أنفسهم. اعتقدُ أنني فهمت أن حُلِّي السيدة كوستو كانت جزءاً من التمويل.

في هذه المرحلة من الحكاية فهمت لماذا أشار الفرنسي إلى «مصالحنا المشتركة».

عام 1950، في أعقاب النزاع الذي نشأ بيننا وبين شركة تطوير بترول الساحل منح أخي امتياز التنقيب في منطقة الأوفشور لشركة سوبريور أويل أوف كاليفورنيا. لكن بعد سنتين قررت هذه الشركة الانسحاب من الخليج العربي تاركة لشخبوط ملء الحرية في منح الامتياز لمن يرغب. وفي عام 1953 اختار شركة دارسي إكسبلوريشن كومباني⁽²⁾ التي ما

(1) مركب يستخدم للعبور من ضفة إلى أخرى (م. م.).

(2) D'Arcy Exploration Company.

لشت أن تحوّل اسمها إلى شركة النفط البريطانية⁽¹⁾. كانت هذه الشركة قد تعهدت بموجب العقد القيام بعدد مُعيّن من عمليات التنقيب تحت الماء قبل نهاية شهر مارس 1954. كنا في شهر فبراير.

من ضمن التحدّيات التي كان على الشركة البريطانية مواجهتها جمع عيّنات من الصخر في أعماق تصل إلى 250 قدماً تحت الماء، وهذا ما لا يمكن لأيّ من معدّات الغطس المتوافرة أن تسمح به. عندها فكّر أحد علماء الجيولوجيا العاملين في الشركة الإنجليزية في كوستو. وكان الفرنسي قد أصدر للتوّ كتاباً لاقى نجاحاً عالمياً هو «عالم الصمت». باستخدام كاليبسو وجهاز التنفس تحت الماء يمكن الحصول على خرائط وعيّنات من صخور الأعماق البحرية بنصف كلفة استخدام المنصات المألوفة لاستكشاف البحار. عندئذ أوفدت الشركة البريطانية مبعوثاً إلى كوستو يقترح عليه التنقيب في بلد يدعى أبوظبي. عندها سألتُ سيمون «أين؟». ابتسمتُ. في تلك السنوات كنا نُعرف باسم «الإمارات المتصالحة». هكذا ارتبط مصير كوستو بمصائرنا.

(1) B. P.

أمضيت العديد من الساعات على متن كاليبسو وأمكنني التحقق بنفسي أن بإمكان فردٍ مُزوّد بجهاز التنفس تحت الماء أن يغوص إلى عمق 300 قدم والبقاء ساعات وهو يتحرك بحرية. وكان كوستو قد صنع قفصاً يمكن للغوّاصين أن يلجأوا إليه إذا ما هاجمتهم أسماك القرش. لم يوجد منها قرش واحد ولله الحمد. وسرعان ما طُرحت مسألة إنشاء قاعدة أرضية توضع فيها المعدات وتكون مؤهلة لاستقبال مروحية. كانت المسافة بين مواقع الاستكشاف والساحل حوالي مائة كيلومتر، أو مئتين ذهاباً وإياباً. لذلك قرّر كوستو ورجاله وضع معدّاتهم في إحدى الجزر التابعة لنا، جزيرة داس. آنذاك لم تكن الجزيرة سوى صخرة جرداء وصحراء بطول كيلومترين وعرض كيلومتر واحد. جاؤوا بعمال من الكويت، وعمال فلسطينيين ولبنانيين وأردنيين. وما كانوا يدرون أنهم بصدد تغيير وجه المستقبل.

في 28 يناير 1958، بعد أربع سنوات على قدوم كوستو، أخبرني أنهم اكتشفوا حقلاً يُحتمل أن يكون غنياً بالنفط. لم يكن على ثقة تامّة بكلامه. لكن بعد ذلك تبين أن الحقل

يحتوي على أربعة مليارات برميل. ولما انتهت مهمّة كوستو قال لي عبارة لم أنسها قطّ: «المهمّات المستحيلة وحدها مرصودة للنجاح».

في 2 ديسمبر 1996، يوم الاحتفال بعيدنا الوطني، سُررت باستقبال الفرنسي وقلّده الميدالية المزدوجة للاستقلال اعترافاً بخدماته المسداة للعلم والإنسانية خلال أكثر من 50 عاماً. غادرنا كوستو بعد عام وله من العمر 87 سنة.

أسئلةُ الفصلِ السادس

1. اعقدوا حلقة نقاشية للعبارة: « من اختلافاتنا يجب أن تنشأ الرابطة التي توحد الناس » .
2. ما سبب ذهاب الشيخ شخبوط والشيخ زايد - رحمهما الله - إلى باريس، هل نجحت مهمتهما؟ وضح ذلك.
3. كانت لزيارة الشيخ زايد - رحمه الله - لمتحف اللوفر لحظة افتنان رائعة، هل تظن أن إنشاء متحف اللوفر في أبوظبي في الوقت الحاضر له علاقة بتلك اللحظة؟
4. وضح الصورة الجمالية في كل مما يأتي:
 - التهمت بعيني كل تفصيل فيه.
 - تنفسنا أنا وشخبوط الصعداء.
 - لكن الشمس ما انفكت ترمي بسهام أشعتها على المدى الرحب.

5. من خلال الحوار الذي دار بين الشيخ زايد - رحمه الله - وفارس، تبين أن الشيخ زايد على دراية واسعة بعناصر الجمال الفني، وضح ذلك بشواهد مناسبة من الفصل.
6. بدأ الشيخ زايد إنساناً متواضعاً دلى على ذلك من النص.
7. ورد في النص: «المهمات المستحيلة وحدها مرصودة للنجاح»؟ بين رأيك وعلله.

7

أكثر من كونها زوجتي، كانت الرفيقة
والذخر والسند والمُلهمَة.

لندن، نوفمبر 1955

كيف يمكن لكائن بشري أن يعيش في مُناخ بارد جداً، تحت سماء تُطبق على السطوح؟ مضى على وجودنا في العاصمة البريطانية ثلاثة أيام ولم أتمكن بعدُ من الشعور بالدفء، مع أننا نقيم في فندق فخم، الدورشوستر، حيث التدفئة المركزية ممتازة.

كان قدومنا إلى إنجلترا مرتبطاً بالخلاف الممتد بيننا وبين جيراننا حول مشكلات حدودية. وكنت أضع دوماً نصب عينيّ إنهاء الخلافات، وأن يعيش أبناء المنطقة بأمن وأمان ورخاء، وأن نلتفت إلى المستقبل ونسير في طريق التنمية،

وقد قلت أكثر من مرّة: «أفضّل أن أعيش حياة متواضعة في بلدي على أن أكون صاحب ملايين وحدي». وإذا ما قدّم لي بعض التجار أو الزوّار هدايا -عادة ما تكون أكياساً من الأرز- كنت أوزّعها على العائلات المحتاجة أكثر من غيرها في الواحة. كنت مدفوعاً بقوة قاهرة تمنعني من التصرف بطريقة أخرى. لقد اعتقدت دائماً أن إعطاء بعض من النفس خير وسيلة للانتماء إلى الذات. وبشيء من الأنانية لاحظت أنّ كلّ ما نهبه يعود إلينا أضعافاً ذات يوم، كما لو أنّه ينطبق عليّ قول عروة بن الورد:

أقسّم جسمي في جسوم كثيرة

وأحسو قراح الماء والماء بارد

لندن مشيرة للاهتمام مثل باريس. في تلك السنة، 1955، كانت المدينة لا تزال في طور إعادة الإعمار، لكن المرء يشعر بفرح الحياة الذي يعمر نفوس سكانها وكأنها تنبعث بعد سنوات الحرب التي شهدتها البلاد. في الشوارع يُرى سادة مهذبون بقبعات مستديرة منتفخة، وسيارات أجرة سوداء، وأحياء راقية وأخرى وجدتها بائسة. تحت الأرض يسير في

أنفاق متعرّجة قطار يسمّونه الأنبوب⁽¹⁾، دُشن، كما أكدوا لي،
قبل مائة سنة تقريباً.

شخبوط الذي كان يعاني من ضعف في البصر اغتتم
وجودنا في العاصمة البريطانية لإجراء فحوص في مستشفى في
وسط لندن، مستشفى سان توماس. أدهشتني نوعية العلاجات
المقدّمة وزادت دهشتي عندما علمت بأن هذا المستشفى
موجود منذ القرن الثامن عشر. سمعت به للمرة الأولى من
أخي هزّاع الذي كان يذهب إليه بانتظام لكي يتابع علاجاً
ما. ما هو؟ لا أعلم شيئاً عنه وكان هو يرفض دائماً أن ييوح
لنا بما يُعانيه لكننا عرفنا أخيراً. لم يسبق لنا، أنا وشخبوط،
أن استقبلنا في باكنغهام، لكن أُتيح لي أن أتأمل القصر من
الخارج وأشاهد تبديل الحرس. ولم أتمالك أن أبتسم لرؤية
الزّي المضحك الذي يرتديه الخيّالة من فرقة الحرس. لم أكن
أتخيّل للحظة رؤية أحد رجالنا البدو معتمراً خوذة ذات عُرف
غزير! أما الخيول فلا تبدو تشبه جيادنا العربية الأصيلة في
رشاقتها وعدوها وجمالها.

(1) The Tube

أذكر أنني سألتُ دليلنا كم عُرف القصر فردّ عليّ أنّ عددها 775 غرفة مزوّدة بالماء الجاري، وأكمل: «منذ عام 1801». جوابه ذكرني فوراً بأوجه النقص في بلادي. ثمة عالم يسبقنا بقرون عديدة وتزداد معرفتي به يوماً بعد يوم. طوال مدة زيارتنا كانت صور بلادي تتراكم مع الصور التي كنت أكتشفها وينتابني شعور بالانقباض لم أتمكن من تجنبه. لقد تأخرنا جداً، وإني لأتساءل هل يمكن ردم هذه الفجوة ذات يوم؟

في ذلك العام، 1955، كانت قد مضت ثلاث سنوات على وفاة الملك جورج السادس وجلوس ملكة على عرش بريطانيا هي إليزابيث الثانية. امرأة على رأس إمبراطورية. من جهتي كنت أعتبر دائماً أن دور المرأة يجب ألا يقتصر على الطبخ وتحضير القهوة أو الشاي. هذا مُنافٍ للعقل. ينبغي لها، على غرار زوجها، أن تنتهز كلّ فرصة لتنمية شخصيتها. أليس الرجل أحياناً للمرأة والمرأة أحياناً للرجل؟ وليس لشيء أن يميّز بينهما إلا العمل الذي يقوم به كلّ منهما.

كان من حُسن الحظ في لحظة معيّنة من وجودي أنني ربطت مصيري بمصير امرأة استثنائية. نادرة. فريدة. زوجتي

فاطمة. كان لديها، على صغر سنّها، عطش لا يرتوي للتعلّم، والفهم، والإفهام. كانت تصغرني بخمس وعشرين سنة، لكنّ الانطباع كان يتولّد لديّ عندما ترفدني بنصائحها أحياناً بأنّ هذا الفارق كان معكوساً. وكانت مثلي لم يُتَح لها أن تتعلّم في المدارس الكبيرة، إلاّ أنها كانت تعلم من شؤون العالم والحياة أكثر مما يعلمه كبار المعلمين.

حدث ذلك في العين في شهر ديسمبر من عام 1960. كان ذلك في يوم عيد، وكان نسيم عليل يداعب قمم أشجار النخيل، وثمة رجال يؤدّون فناً شعبيّاً، متراصّين كتفاً لكتف في صفّين متقابلين، يمسكون بأيديهم قضباناً دقيقة من الخيزران، كنايةً عن سهام أو سيوف، يقذفونها عالياً ثم يلتقطونها مجدّداً. كانوا يتمايلون على إيقاع الطبول والصنوج ويردّدون أبياتاً من الشعر النبطي قديمة تروي تاريخنا، تاريخ البدو، وتمجّد قيم الشرف، والحنين إلى الماضي، والتضامن. على بُعد خطوات من هؤلاء الرجال كانت ستّ فتيات صغيرات ينعشن⁽¹⁾. في ذلك اليوم كان حفل زفافنا أنا وفاطمة

(1) أي يؤدّين النعاشات، وهي رقصة تقليدية تقوم بها النساء وهنّ يطوّحن بشعورهنّ. (م.م.)

بنت مبارك في العين. كانت تلك سعادة مطلقة. السعادة هي
أثمن ما لدى الإنسان على وجه الأرض، وأنا أتمناها للجميع.
وقد رددتُ آياتاً كثيرة تعبر عن حبي لها، ومنها:

لا شفتُ انا شرواكُ ولا اتصوّرُ ولا ريت

مثل الحيا تضي على الأرض بهجاته

ربي عطاك اخلاقٍ تُميّزك واحظيت

حتى جميل الخود تشهد لك أصواته

*

عز من بالحسن سواكم

بالجمال وهور لعيونا

نور بازغ في محياكم

يا ثقيل الروز ووزونا

لم تكن بلغت العشرين بعد. و كنت أنا قد شارفت على

الثانية والأربعين. ما اثنان وعشرون سنة من فارق العُمر وأنت تكتوي بنار الحبّ؟ ذلك أنّني أحببتها حقاً. من يوم خطوبتي لها اتّحد مصيرانا. وبقيا كذلك إلى اليوم، بعد مرور أربع وأربعين سنة. أكثر من كونها زوجتي، كانت الرفيقة والذخر والسند والملهمة.

في يوم الزفاف شاءت المصادفة أن يقوم وكيل بريطاني، هو النقيب أنطوني شيفرد، بزيارة العين. أرسلتُ إليه أعلمه أنه يحلّ على الرحب والسعة.

فعلاً، كنت، أنا أنطوني شيفرد، حاضراً. مضت سنتان وأنا عضو في فرقة «الكشافة»، القوّة البريطانية المكلفة حفظ السلام في المنطقة. وكنتُ نُقلت للتو إلى العين.

ما إن وصلت حتى قدّم لي البدو القهوة. ثم دعوني للجلوس في خيمة كبيرة حيث كان لفيف من المشايخ. النساء كنّ في خيمة أخرى غير بعيد. قيل لي إن زايد لن يتأخّر، وكان ذلك من قبيل التشريف لي لأنني كنت أستعجل تقديم التهاني له. لم يكن الانتظار طويلاً. سلّم عليّ تسليماً حاراً،

وبعد أن تناقشنا برهة طلب تقديم مائدة الغداء. عندئذٍ وضعوا على حصائر من قصب أطباقاً كبيرة مملوءة بالدجاج والأرز. اكتفى زايد بشرب لبن النوق. وعندما أبدت له ملاحظة بهذا الصدد أجابني مبتسماً: «ما من غذاء أكمل منه! إنه دواء لكل داء. جرعة سحرية!»

بعد الوليمة، استأذن بالذهاب للقاء مدعوّين جُدد.

كنا في اليوم الثالث من الاحتفالات بعرسه. وكان نحو من مائة بدويّ قدموا من المناطق المجاورة، وحتى من العاصمة، ليسلموا عليه ويتمنّوا له حظاً سعيداً. معظمهم جاؤوا على الجمال، وآخرون، أقلّ عدداً، جاؤوا بسيارات اللاندروف. حين هبط الليل، وفيما كان الطبّاخون ينشطون حول النيران الموقدة بالأخشاب، أفرغ آخرون خزّانات بنادقهم مطلقين الرصاص باتجاه القمر. حوالي الساعة الثامنة دُعينا لوليمة العشاء. طلب مني زايد أن أجلس إلى يمينه. وفي هذه الأثناء كان بعض الموسيقيين يضربون على طبولهم الصغيرة، فيما كانت عشرات القناديل الزيتية تضيء المكان وسيارات اللاندروف توجّه أضواء مصاييحها نحونا.

فجأة جاء رجال يغطون رؤوسهم بكوفياتهم، وفي أيديهم بنادق، وعلى أوساطهم خناجر وبدأوا يخطون خطى راقصة، وبين الفينة والفينة يقذفون بنادقهم نحو السماء ثم يلتقطونها ثانية. لكن في لحظة ما هوت بندقية أحدهم على أنفه فأدمته، وقهقهه القوم. والذين فاتهم المشهد راحوا يدفعون بمرافقهم جيرانهم لكي يصفوا لهم ما حدث. أمّا المسكين الذي كان ينزف بغزارة فأخذ جانباً ليُعالج. وعندما ظهر بعد لحظات مُتورّم الأنف قام إليه زايد ليعرب له عن تعاطفه.

في غضون ذلك كان خادم يروح ويجيء وسط القوم حاملاً مدخناً صغيراً يحترق فيه البخور ويغمرنا بدخانته. وكان خادم آخر يرش على رؤوس المدعوّين ماء الورد. وألقى أحد الشعراء أبياتاً تهنيئاً لزايد. وعند منتصف الليل نهض الشيخ زايد وسلّم علينا فرداً فرداً وانسحب إلى الخيمة التي كانت تنتظره فيها العروس، مودّعاً ببضع طلقات نارية. وعاد المدعوون كلٌّ إلى منزله.

لا أحد رأى العروس، ولم تُنثر قُصاصات الورق الملوّنة، ولا أنفقت مبالغ طائلة، لكنه كان عُرساً مشهوداً. أعتقد أنني فهمت في أثناء محادثة على انفراد أن الشيخ يعارض الإسراف

في إقامة حفلات الزفاف والمغلاة في قيمة بعض المهور، ويرى في ذلك إرهاقاً بلا مبرر لميزانية الزوجين الشابين في مستهلّ حياتهما الزوجية.

بعد تلك السهرة لم يتسنّ لي رؤية الشيخ زايد ثانيةً. كان موسم الصيد قد بدأ والحياة الحضرية في الصيف حلّت مكانها أشهر الصيد بالصقور. ومن ثمّ علمت أن الشيخ ربما اختفى عن الأنظار طوال أسبوعين، أو أكثر، وهو في هذه الأثناء يتنقل في الصحراء على رأس موكب لممارسة رياضته المفضلة: الصيد.

عدنا، أنا وشخبوط، إلى الدور شستر، في أعقاب المؤتمر الذي جمعنا من جديد حول قضية البريمي. وكنا نشعر بأننا مُحبطون نوعاً ما. لم يسفر اللقاء عن أيّة نتيجة. والمشكلة القائمة بيننا وبين إخواننا ما زالت على حالها. أما الخلاصة التي توصلنا إليها فهي إحالة القضية إلى المحكمة الدولية، ما يُنذر بأشهر وسنوات من المرافعات.

أكره المرافعات.

أسئلة الفصل السابع

1. في حياة الشيخ زايد - رحمه الله - كثير من الأشخاص الذين تأثر بهم وأثروا به. وقد جاء في النص: « أكثر من كونها زوجتي، كانت الرفيقة والذخر والسند والملهمة.» كيف تفهم تقدير الشيخ زايد للمرأة من خلال ثنائه على زوجته فاطمة؟
2. ناقش مع زملائك العبارة الآتية « أفضل أن أعيش حياة متواضعة في بلدي على أن أكون صاحب ملايين وحدي.»
3. هل الاطلاع على إنجازات المتقدمين حضارياً مدعاة وحافز للتقدم؟ علل.
4. ما الدور الذي تقوم به المرأة في المجتمع العربي حسب نص الرواية بين القديم والحديث؟ ما رأيك؟
5. ما مظاهر الاحتفال التقليدي بالأعراس حسب ما ورد في الفصل؟ اختر الوصف الذي أعجبك مبيناً سبب إعجابك به.

6. لم برأيك كان الشيخ زايد يعارف المغالات في إقامة الحفلات، وغلاء المهور؟
7. لخص ما ورد في هذا الفصل في سطرين، من دون الدخول في التفاصيل.
8. جرب أن تكتب قصيدة قصيرة حول شيء يحرك مشاعرك كثيرا.
9. علل: لم يعد المجتمع ملاذا لراحة الفرد وسعادته حسب رأي الكاتب؟
10. «ما نهديه يعود إلينا أضعافا» حلل العبارة مبديا رأيك.
11. «السعادة هي أتمن ما لدى الإنسان على وجه الأرض» اشرح وعلل.
12. كيف كان البدو يحتفون ويكرمون من يزورهم؟
13. ما علاقة رياضة الصيد بالصقور بشخصية الشيخ زايد في نظر؟

8

كلّ كتاب يقرأه الصغار سوف يفتح
عيونهم على عوالم جديدة، ولسوف
يُبدعون هم أيضاً بدورهم.

العين، سبتمبر 1960

ما زالت ترنّ في أذني صرخات الأم، وأرى الأب متعلّقاً
بذراعي كالغريق، والطفلة الصغيرة راقدة على حصير من
قصب، منطوية على نفسها، تتلوّى من الألم.

خرجت مسرعاً لأجدني في غرفة صغيرة، عاجزاً، غير ذي
فائدة، موزّعاً بين اليأس والسخط. الطفلة ذات السنوات العشر
تتألم ألماً مبرحاً وليس من طبيب، لا هنا في العين، ولا في
أي مكان آخر في البلاد، وما من مستوصف، ولا مستشفى.

قبل شهرين، عندما مرضت والدتي سلامة -رحمها الله- اضطررنا إلى استدعاء طبيب إنجليزي من دبي، أمضى وقتاً طويلاً للوصول نظراً إلى عدم وجود طرق للمركبات. لا توجد لديّ أيّة معرفة طبيّة بحالة الفتاة لكنني أيقنت أنّها معرضة للموت إن لم تتلقَّ العلاج على وجه السرعة.

أمرتُ الأب: «ارفعها! حملها إلى سيارتي». تمتم:
«إلى أين تأخذها، يا زايد؟» «إلى الشارقة». ولولت الأم:
«الشارقة؟ لماذا؟»، «لأنّ أقرب مستشفى يوجد هناك».

مائة وخمسون كيلومتراً تفصلنا عن الشارقة، والمستشفى المقصود هو مستشفى سارة هوسمان⁽¹⁾، على اسم الطبيبة النسائية البريطانية التي أسّسته منذ عشر سنوات، في الخمسينيات، بإيعاز من الشيخ صقر بن سلطان القاسمي. هناك سيكون الأطباء قادرين على علاجها.

لُفّت الفتاة بغطاء، ومدّدت على المقعد الخلفي للاندروفر. كيف أصف تلك اللحظات؟ مستحيل. ما من كلمة تفي بالغرض. كانت حزمة الضوء المرتعشة الصادرة عن مصابيح

(1) Sarah Hosman.

السيارة تكتسح الكثبان وتضفي على الليل إحساساً بالوحدة هائلاً. شعرت كما لم أشعر من قبل بما للصحراء من حضور كُلي، ساحر وقادر على سلب اللب. عبر واقية الريح يتسلل نور الهلال وبريق النجوم. هل دعوتُ لها؟ أظنّ أن نعم. من كلّ كياني ابتهلت لخالق الأكوان. ما عدت أذكر ماذا طلبت. لا شك في أنني طلبت أن تتمّ مشيئته. على نحو متقطع كنت أُلقي نظرة على مرآة الخلفيات التي تعكس لي وجه الفتاة وقسماتها التي شوّهها الألم. أسمع أُنينها فأطمئن. ألا يدلّ الأنين على أن جسدها الصغير ما زال يقاوم الموت؟

لا أدري لماذا كان تفكيري يتجه نحو هزّاع. لا شك في أنني ما زلت أفقد أخي. فارقنا منذ سنتين. أذكر ذلك وكأنه حصل البارحة.

في العشرين من يناير 1958 كنّا في نيويورك. من خلال الكوّة الزجاجية في إحدى غرف المستشفى⁽¹⁾ رحت أتأمل مياه نهر هادسن⁽²⁾ المنسابة ببطء تحت سماء كئيبة. عن يميني يرتسم جسر جورج واشنطن. وكانت تمطر.

(1) Presbyterian Hospital.

(2) Hudson River.

عدتُ لأجلس قرب السرير. وجهُهُ هزّاع صافٍ هادئ. المخدّر الذي حُقِنَ به قد فعل فعله. قبل أسبوع، عندما علمت بالخبر من الطبيب برسكوت⁽¹⁾ خارت ركبتي: «سرطان مُتفشٍّ. لا أمل». لم أقل شيئاً لأخي. ما الفائدة؟ لقد فهم.

سواء أعاش المرء حياة سعيدة أم لا، وسواء أخاب أمه في الوجود أم نال ما يرضيه، يبقى متعلقاً بالحياة وهشاشة ما تبقى له من وقت يربطه بالعالم. يُحدّق في باب الغرفة. يخمّن خطوات الذهاب والإياب ويحلم باجتياز العتبة. حركة بسيطة، لكنها في تلك اللحظات تكتسب قيمة لا تُقدّر.

أمسكتُ بيد أخي. فتح عينيه. ابتسم لي ابتسامة واهنة. انفرجت شفّته لكن لم ينبس بكلمة. أحياناً كنت إخال أنه لم يعد يتنفس لفرط ما كان تنفسه ضعيفاً. من وقت إلى آخر كانت تدخل ممرّضة، تقيس ضغطه. تفحص القطّارة. تتبادل معي نظرة آسفة، وتخرج.

أخي الأكبر، خالد، كان هناك أيضاً، وكذلك والدتي. أصرّت على مرافقتنا إلى نيويورك على الرغم من أنّها قاربت

(1) Prescott.

السبعين من العمر. ظلّت صامتة. برقعها يغطّي وجهها وكانت
عينها مغرورقتين بالدمع. يمكنني أن أقرأ فيهما كلّ يأس
العالم واحتضار النجوم.

انقضت ساعات. حوالي الثالثة بعد الظهر أسلم هزّاع
الروح لبارئها. انفجرت أمّي بالنحيب مخفية وجهها بين
ذراعي خالد. أما أنا فأشحت بوجهي ورحت أهدق في
المباني عبر الحاجز الزجاجي. حقدتُ على هذه المدينة التي
تواصل حياتها، غير آبهة بحدادنا. تمنيت لو أنّ أبراجها،
وشوارعها، وحدائقها، تتشح بالسواد. أن تتوقف عقارب
ساعاتها. ويتحوّل النهر إلى صحراء.

كانت اللاندروفر تتقافز، مشيرة زوبعة من الغبار الأبيض.
كم كيلومتراً قطعْتُ على هذا المنوال، يداي تضغطان على
المقود، ورجلي على الدواسة؟ لا أعلم إلاّ أنني في لحظة ما
لم أعد أسمع شكوى الفتاة. التفتُ نحوها. بدت ساكنة. أتنام
حقاً؟ ناديتها باسمها: «أمينة، أمينة» لم تردّ. ضغطت على
المكبّح. توقفت السيارة فجأة على قمة كثيب. قفزتُ خارجاً.
فتحت الباب الخلفي، قلبت المقعد إلى الأمام. انحنيت على

الفتاة. أدنيت أُذني من شفّتها لأفحص تنفّسها. لا شيء. وضعت راحة يدي على صدرها الصغير. كان هامداً، جامداً كحجر. قُضي الأمر. ركعتُ على الرمل. رفعتُ وجهي نحو السماء، وصلّيتُ مجدّداً، لكن هذه المرّة كي يرحم الله أمينة.

- أريد أن أبني مستوصفاً في العين! أحتاج إلى مال. حالياً، الآن.

ما زلت أرى أمائر الدهشة التي اعترت أخي عندما أحطته علماً بقراري. تابعت: «ما فائدة المال من دون الصحة؟» ورويتُ له بأدقّ التفاصيل مأساة الصغيرة أمينة. ذكّرتُه بأن أحد أفراد عائلتنا لو مرض لأمكنه أن يسافر إلى الخارج لتلقي العلاج. أما أفراد شعبنا فلا. وشخبوط نفسه ألم ينتهز فرصة وجودنا في إنجلترا لاستشارة طبيب عيون؟ لا بد أنني كنت عاقد العزم على نحو رهيب حتى وافق في الحال. في غضون الأشهر الستة التالية فُتح مركز طبي أبوابه في العين. مركز الواحة. طبعاً، كنا لا نزال على بُعد آلاف الفراسخ من مستشفى

سانت توماس⁽¹⁾، أو البرسبيتريان⁽²⁾ في نيويورك. لكن كان ما قمنا به يُعدّ تقدّماً. بيد أن المسألة الأكثر تعقيداً كانت إيجاد طبيب. أفلحت أخيراً في إقناع اثنين، كانا مُبشّرين أمريكيّان. حتى أنني عرضت عليهما أن أبنى لهما كنيسة صغيرة إن رغبا في ذلك. بعد ثلاث سنوات أصبح هذا المستوصف مستشفى. هذه المرّة قرّرت أن أذهب أبعد من ذلك.

بعد بضعة أشهر على إنشاء المركز الطّبيّ كان على شخبوط أن يذهب في زيارة رسمية إلى لندن. زيارة تليها رحلة خاصة إلى ألمانيا الشرقية، تعقبها إقامة لتلقّي العلاج في أمريكا، أي أنه سيغيب عن البلاد - وهذا أمر نادر - بضعة أسابيع.

كانت هذه اللحظة هي الفرصة المناسبة التي لا تتكرّر أبداً.

هل يجب التذكير بأنّ عاصمتنا كناية عن جزيرة؟ يتعيّن على مَنْ يريد القدوم إليها أن ينتظر حصول أقصى الجزر

(1) St. Thomas Hospital

(2) Presbyterian

ليجتاز الرصيف الرملي، على ما في هذا الانتقال من مخاطر. يكفي خطأ واحد في التقدير حتى تغرق الناس والبهائم، أو تغوص الشاحنات في الرمال وغالباً بصورة نهائية. وربما استغرق الوصول إلى طرف الجزيرة نصف نهار. هذا بغض النظر عن أن المبادلات التجارية بيننا وبين جيراننا تتضرر من هذا الوضع حتى أن العديد من المؤسسات التجارية تحجم عن الاستقرار عندنا.

في اليوم الذي غادر فيه شخبوط البلاد ذهبت على وجه السرعة إلى قصر الحصن. الجدير بالذكر أنني كنت العضو الوحيد في العائلة الذي يُسمح له بالإقامة في القصر سواء في حضور أخي أو في غيابه. في ذلك اليوم استدعيت إلى البرزة أهم مالكي الأسواق، وكبار التجار، والزعماء المحليين، وأبلغتهم: «سوف نشق طريقاً، وأنا بحاجة إليكم جميعاً». كان جوابهم مطابقاً لجواب سكان العين عندما اقترحت عليهم بناء الصاروج. كنت في الثانية والأربعين من العمر، وقد علمتني الحياة أنه لإقناع محفل ينبغي أولاً حملهم على الإصغاء، ثانياً أن تحظى بحسن انتباههم، وأخيراً أن تحصل على موافقتهم. في غضون ساعات نجحت خطتي. وفي اليوم

التالي كان جميع المقتدرين قد شرعوا بالعمل.

تخيّلت شارعاً رئيسياً عرضه أربعة أمتار تقريباً مرصوفاً بالحجارة والطين المجفّف. لا شيء يستحق المشاهدة فعلاً. لكن كانت هذه خطوة إلى الأمام قياساً على الدروب الرملية التي كانت تخرق «الإمارات المتصالحة» آنذاك.

الشاحنتان الوحيدتان اللتان كانتا عندنا وُضعتا في خدمة المشروع - ويعلم الله كيف - مهّدنا الكثبان، ونقلنا أطناناً من الرمال، بلا معدّات ولا رفاشات ولا ملاط. وكرّست أغلب أوقاتي لمتابعة تقدّم الأشغال وحثّ الرجال ما وسعني الأمر. هكذا أنجزنا بسرعة قياسية أول طريق شقت في بلادنا. ولمّا لم يكن شخبوط قد عاد من سفرته المتعدّدة المحطات اقتطعت من الخزينة المبالغ الضرورية لإقامة مضخات للريّ، وبناء سوق ومنشآت تجارية في العين. ولم يبقَ إلاّ انتظار رد فعل أخي. ولم يتأخّر.

بعد ثمان وأربعين ساعة على عودته استدعاني إلى مكتبه. تبادلنا التحية كالمعتاد. أمعن النظر إليّ طويلاً، ثم سألني :

- لماذا؟

- لا أفهم. لماذا؟

جوابه حيرني:

- لماذا أخذت أموالاً نقدية من الخزائن دون أذني؟

- يبدو لي أنك منحنتني هذا الحق في غيابك، هل كنت مخطئاً.

لم يردّ، فاستطردت:

- هذه الطريق التي شقققتها، ألم ترها؟ كان من الضروري أن أكافئ أولئك الذين شاركوا في بنائها، وأن أدفع أُجرة استئجار الشاحنتين. كما أنني أنشأت مضخات للري في العين...

- والآن سوف نبني مدرسة ابتدائية، هنا، في العين.

هذه المرة تمكنت، بفضل أمي العزيزة، سلامة، من إنجاز هذا المشروع الجديد. فقد عرضت عليّ من تلقاء نفسها أن

تضع في تصرفي مبلغاً من المال. بعد أشهر، احتفلنا بتدشين مدرسة المويجعي. هنا أيضاً لا يتعلق الأمر بمأثرة تبقى محفورة في الذاكرة. على أنني ما زلت أشعر بشيء من الفخر بهذا الإنجاز. كانت المدرسة عبارة عن مبنى من خشب قادر على استيعاب أربعين تلميذاً من الصبيان - وضع سوف يتغير في ما بعد - وقد لبّي مدرّس أردني طلبي وجاء للإقامة في العين. إرسال الأبناء إلى المدرسة قد يبدو أمراً طبيعياً. لكن ليس عندنا في تلك الأيام. كان الأهل لا يستسيغون الانفصال عن فلذات أكبادهم ولو لبضع ساعات في النهار. ذلك لسبب وجيه: كان الأولاد في نظرهم يداً عاملة في الحقول أو رعي الماشية، وغيابهم يؤدي إلى خسارة في الدخل. وكان عليّ أن أقاتل، حتّى مع صديقي فارس.

- هل تعلم القراءة والكتابة يجعلنا أذكى أو أفضل؟ ما فائدة التربية؟ التعليم؟ انظر إلى نفسك! أتظنّ أنك لو كنت تلقيت تعليماً عالياً لكنت رجلاً أكثر تألقاً مما أنت عليه؟ إن ما لديك من قوة وطاقة ما كان لأي مدرسة أن تغرسهما فيك.

عاينتُ فارس لبرهة وجيزة.

- أنت أب لولدين، أليس كذلك؟

أوما برأسه موافقاً.

- لو خُيِّرَتَ بين أن تعطيهما بيتاً صغيراً من بضعة أمتار
مربعة مع إطلالة وحيدة على بستان نخيل وجمل، أو أن
تعطيهما قصرأً بآلاف الغرف من حيث يمكنهما أن يتأملا
العالم كله، فأيهما تختار؟

ضحك فارس.

- أيهما أختار؟ أعطيهما القصر طبعاً.

- هو ذاك. فهمتَ كلَّ شيء. هذا القصر هو التعليم
وآلاف الغرف التي فيه. كلَّ كتاب يقرأه الصغار، وكلَّ معلومة
جديدة، سوف يفتحان عيونهم على عوالم جديدة، وانفعالات
جديدة، ومشاهد طبيعية لا متناهية، وسوف يُدعون هم أيضاً
بدورهم. أنت لا تريد أن تحرم ولديك من هذه الثروة طبعاً.

كان كلامي مقنعاً، ففي اليوم التالي أخذ فارس ولديه إلى
مدرسة المويجعي.

لقلة ذات اليد، كنتُ، على سبيل التشجيع، أقدم البلح، أو

الفاكهة، وبعض الروبيّات لذوي التلاميذ الأكثر مواظبة على الدروس. حولنا كان العالم في تطوّر مستمر. وكنت مدركاً كلّ الإدراك أننا بدأنا سباقاً مع عقارب الساعة.

لم تُتَح لي يا للأسف فرصة الالتحاق بالجامعات الكبيرة، بخلاف أبنائي خليفة، أو سلطان، أو محمد، الذين شجّعتهُم على الالتحاق بالأكاديمية العسكرية الملكية في ساندهرست⁽¹⁾. وليس بمستبعد أن يكون هذا النقص هو الذي دفعني طوال حياتي إلى أن أجعل من التعليم أولوية. التعليم مُرادف للتقدّم أيضاً. على العكس من أخي، لم أفكر يوماً أنّ التقدّم كان فأساً في يد مجنون. في المقابل، أدرك تماماً أن التنمية إذا كانت على حساب هويّتنا فقد تكون ضارّة. في الحقيقة، علينا أن نكون أشبه بالعجلة. إنها تدور، لكن مركزها بلا حراك.

(1) Sandhurst.

أسئلةُ الفصل الثامن

1. قارن بين دولة الإمارات العربية في سنة 1960 وبين ما هي عليه الآن، ما الذي تغير في نظرك؟
2. صف كيف كانت معاناة الناس مع الحياة قديماً حسب ما فهمت من النص.
3. كيف كانت مسالك الطرق بين الإمارات سبباً في صعوبة الحياة؟ وكيف صارت؟
4. كيف يتصرف الحكماء وقت المحن والأزمات؟ قدم نموذجاً على فهمك من هذا الفصل؟
5. لم برأيك عيون الأم تعكس الأحزان والأفراح بوضوح ينذر مع غيرها؟
6. كيف كان وقع خبر وفاة الشيخ هزاع على أخيه الشيخ زايد - رحمهما الله -، وعلى أسرته كافة؟

7. كيف كان الشيخ زايد - رحمه الله - يحرص على الخير لشعبه ولأمته كما يفعل ذلك لأسرته وعائلته؟ دعم رأيك بأمثلة من النص.
8. « علمتني الحياة أنه لإقناع محفل ينبغي حمله على الإصغاء» اشرح وعلل.
9. تحدث النص عن بعض المعوقات في طريق المبادلات التجارية؟ حدد بعضها منها.
10. ورد ذكر قصر الحصن في سياق التخطيط والترتيب لإدارة التجارة. ما دلالاته التاريخية قديماً وحديثاً؟
11. كيف تحولت أحلام الشيخ زايد - رحمه الله - إلى واقع حسب ما ورد في الفصل؟
12. لماذا بدأ الشيخ زايد - رحمه الله - بالبنية التحتية لتأسيس دولة قوية متينة؟
13. هل التقدم يعني التخلي عن القديم؟ أبد رأيك.
14. بمن استعان الشيخ زايد - رحمه الله - في بناء مدرسة بالعين؟

15. كيف كانت علاقة الأطفال بأسرهم في المجتمع

الإماراتي إبان التأسيس؟

16. ما الأسس التي أرساها الشيخ زايد - رحمه الله - في بناء

جيل مثقف ومتعلم يواصل مسيرة البناء؟

9

لا أوْمَنُ بالمصادفةِ. أوْمَنُ بالقدرِ.

اسمي سوزان هليارد.

أنا من سورية في كندا. بعدما درستُ فيها، علّمتُ التاريخ
واللاتينية والإنجليزية في سويسرا وكيبيك.

لدى عودتي إلى كندا تعرّفت إلى زوج المستقبل، تيم،
وهو مهندس نفط يعمل في شركة النفط البريطانية⁽¹⁾. بعد ثلاثة
أسابيع على زواجنا عام 1950، نُقل تيم إلى بغداد وقمتُ
بتدريس التاريخ في جامعتها.

بعد ثلاث سنوات عرضت الشركة البريطانية على تيم
المجيء إلى أبوظبي للإشراف على منصّة الأوفشور التي
كانت قيد الإنشاء غير بعيد عن جزيرة داس.

(1) BP: British Petroleum

عندما علمتُ بالخبر وباسم المكان الذي سنعيش فيه،
علاوة على أنني يجب أن أتعلم اللغة العربية، شعرتُ بالهلع.
«الأمر سهل، قال تيم مُمازحاً، سوف تذهبين إلى حديقة
الحيوانات وتقفين أمام حاجز الجمال، وعندما تتمكنين من
أن تنطقي «غوكغك» مثلها تكونين قد تمكنت من اللغة!»
تجدر الإشارة إلى أننا كنا قد رُزقنا حديثاً بطفلة أسميناها
ديورا.

وصنا إلى أبوظبي عبرَ طريق البحرين-دُبي على متن
مركب شراعي. في أثناء الرحلة، عندما حاولتُ أن أغسل
حفاضات ديورا في ماء البحر وثب قرش رمادي ضخمة
واختطف الحفاضات. أعتقد أنني لم أعرف في حياتي خوفاً
كالخوف الذي اعتراني عندئذ.

لم يكن أهل البلد قد رأوا من قبل امرأة أجنبية ترتدي
ملابس مثل ملابسي.

وضعت الشركة في تصرُّفنا بيتاً متين البناء. كان عبارة عن
مُكعب بسيط مُبيّض بالكلس، جدرانُه من الشُّعب المرجانية
التي جلبها غواصو اللؤلؤ -تساعد نفوذيتها على الاحتفاظ

بالبرودة- والإسمنت مستورد من دُبي. وسرعان ما أصبح يُعرف هذا البيت باسم «بيت اليارد»، تخفيف هليارد.

الفترة الأولى من إقامتنا لم تكن سهلة لي. حياة قاسية ووحدة مُقنِطة. ولا إمكانَ البتّة لتبادل الرسائل بيني وبين عائلتي في إنجلترا. المياه المجلوبة من دُبي توزّع بالبراميل التي تفوح منها رائحة النفط. والمطار كناية عن مدرج صغير في جزيرة داس، على بعد مائة كيلومتر من العاصمة. غير أنني سرعان ما تمالكت نفسي. فيمَ كان سيفيدني التدمر من قدرتي؟ التدمر مضجر والضحك مُسلّ. وشيئاً فشيئاً أخذت أشعر بعاطفة حقيقية تجاه البلاد وسكانها. كان ذلك في منتهى البساطة: أغراني نمط حياة طبيعية مختلف جداً عن الحياة في إنجلترا.

أحببتهم كما هم: بدو لهم روح صعبة المراس لكنها صادقة. أحببت شمسهم، على الرغم من قسوتها، وأحببت البحر. أحببت أولادهم. وأحببت الصيادين كبار السن. أحببت نساءهم أيضاً. كلّ ثلاثة أيام كنت أزور أمّي، سلامة، والدة الشيخ زايد. وبالرغم من انتمائنا إلى ثقافتين متعارضتين كلّ التعارض انعقدت بيننا عُرى صداقة وثيقة. شيء ما كان يضيفي

الحيوية على لقاءاتنا. في الوقت نفسه كنت مُقرّبة جداً إلى شخبوط، شقيق الشيخ زايد. وأعتقد أنّه كان يقدرني كثيراً. أحفظ بصورة لنا بالأسود والأبيض يظهر فيها وهو يداعب خدّ ابنتي ديورا التي تنظر إليه بابتسامة مشرقة.

كان من عاداتي تنظيم حفلات بمناسبة عيد ميلاد ديورا ظلّ الناس يتحدثون عنها سنوات طويلة. كنت أدعو أطفال الجوار الذين يجمعهم سائق الشركة البريطانية منادياً بأعلى الصوت: «عيد ميلاد ديورا! عيد ميلاد ديورا!». وكان الأطفال المدعوّون يحصلون على قطع الحلوى والألعاب الاجتماعية المجلوبة خصيصاً من البحرين. أتذكّر أنّ الشيخ زايد قد حضر الاحتفال ببلوغ ديورا ربيعها الخامس.

في موازاة ذلك كُنّا، أنا وتيم، نحاول المساعدة في توفير العناية الطبية للسكان، وإن كانت لا تزال بدائية.

وسرعان ما انصرفتُ لتعلّم اللغة العربية حتى توصلت في نهاية إقامتي في أبوظبي إلى التعبير بهذه اللغة بصورة صحيحة إلى حدّ ما، وذلك ما يشعرنني بالزهو. وقد أطلق عليّ الشيخ زايد وباقي أهل البلاد كنية «أمّ ديورا». أذكر أنّ الشيخ كتب إليّ بعد سنين طويلة: «يا أمّ ديورا، أنت الشخص الوحيد

الذي يذكر بلادنا كما كانت أولاً. الحاضر يغطي الماضي دائماً حتى يمحي نهائياً جيلاً بعد جيل، إلا إذا تمت المحافظة عليه عبر الكتابة».

استلمت هذه الرسالة في عام 2002، بعد أن جمعتُ كلَّ الملاحظات التي دوّنتها خلال إقامتي في أبوظبي وأصدرتها في كتاب عنوانه «قبل النفط»⁽¹⁾.

آخر مرة رأيتُ فيها الشيخ زايد كانت في عام 1980. كنت قد عدت لزيارته بعد اثنتين وعشرين سنة من الغياب. يمكن تخيّل الصدمة. لقد أحببت هذه المدينة الحديثة، لكنها ليست تلك التي تخطر على بالي عندما أتذكر أيام الشباب، في بلاد الرمال هذه، المشرعة على كلِّ الرياح، حيث البرستي⁽²⁾، والأكشاك الصغيرة العابقة برائحة الخبز الساخن. فكّرت في قصر الحصن، في الشاطئ، في بيتنا، في الماشية وغزالتني

(1) Before the Oil. وقد رفض نشر هذا الكتاب أكثر من خمسين ناشراً وكانت الطبعة الأولى على نفقة المؤلفة. وفي عام 2015، بعد وفاة سوزان، عادت ابنتها ديورا إلى بلد طفولتها لتمثل أمها وتلقى جائزة فخرية عنها من يدي نجل الشيخ زايد، ولي العهد الشيخ محمد بن زايد. بعد ذلك تُرجم الكتاب إلى اللغة العربية وطبع بدعم من وزير التسامح الشيخ نهيان بن مبارك آل نهيان، صديق طفولة ديورا.

(2) البيوت الصغيرة المبنية بسعف النخيل. (م. م.)

سموكي، في الجمال والجياد والمراكب الشراعية، وفي
سيارتنا اللاندروفر التي كانت من السيارات النادرة في البلاد
يومذاك، والتي غالباً ما كانت تغوص في السَّبْحَة⁽¹⁾.

إن كنت، أنا زايد، فكَّرتُ في سوزان فجأة هذا اليوم
فذلك، من بين بواعث عديدة، لأنَّ الفضل يعود إليها، وإلى
زوجها، في اكتشافنا، أنا وأخي شخبوط، أنَّ الوجود الإنساني
في إقليمنا يرقى إلى أكثر من ألفي سنة.

إنني لا أوْمِن بالمصادفة. أوْمِن بالقدر.

لطالما استشعرت في قرارة نفسي أنَّ كلَّ ما في حياتنا
لو كان يجري طبقاً لمخططاتنا، أكانت معقولة أم لا، عظيمة
أم متواضعة، لكانت حياتنا اليومية رتيبة لا طعم لها. وما كُنَّا
سنعيش مطلقاً هذه الانفعالات، ولا هذه التقلبات التي تكبِّرنا
وتجعل منا أشخاصاً آخرين كما كان ينبغي أن نكون دائماً.
ثم لا بد أن تأتي اللحظة التي نلاقي فيها أحدهم، ونعيش
انفعالاً ما، حيث نقع ضحية مرض أو حادث، حتى يأخذ

(1) منطقة مستنقعية لا تصلح للزراعة بسبب ملوحتها الزائدة.

وجودنا منحىً جديداً يُحدث الفرق في النهاية. مَجِيء عائلة هليارد وما ترتب عليه من نتائج ينتمي إلى عالم الرسائل غير المرئية المكتوبة من لَدُن العَلِيِّ القدير.

في عام 1974 تقاطعت طريق تيم هليارد، زوج سوزان، مع طريق الإنجليزي المدعو جيوفري بيبي⁽¹⁾. كلاهما كانا يعملان لحساب شركات نفط. وكلاهما يتشاطران نفس الشغف بعلم الآثار. غير أن جيوفري، بخلاف تيم، كان عالم آثار حقيقياً. لكن بعد أن يئس من الحصول على عمل ضمن اختصاصه قَبْل وظيفة في البحرين. بعد فترة وجيزة تباعدت طريقهما. جاء تيم إلينا. وتمكن جيوفري من تحقيق حلمه إذ عُيِّن من قِبَل مؤسسة دانمركية على رأس بعثة استكشاف للتنقيب عن الآثار في منطقتنا حيث عثر على قبور غامضة شبه مطمورة في الرمال تبين في ما بعد أنها تمثل حضارة كبيرة منسيّة: دِلْمون.

ما كاد تيم يستقرّ عندنا حتى عثر مصادفة على أنقاض غربية في «أمّ النار» وهي جزيرة صغيرة لا تتعدى مساحتها

(1) Geoffrey Bibby.

كيلومتراً مربعاً واحداً. بادر إلى إبلاغ صديقه جيوفري الذي كان لا يزال على اتصال به، وتمنّى عليه أن يترك ما بيده من عمل في البحرين وينضم إليه حالاً. هكذا اكتشفنا، أنا وأخي، تاريخاً موعلاً في القدم...

إلى السيد جيوفري يبي، البحرين

اكتشاف اثنتي عشرة أكمة في جزيرة أم النار

الرجاء القدوم. عاجل. تيم

عندما تلقيت هذه البرقية من تيم فوجئت كثيراً، وذلك أنه كان كتب إليّ منذ بعض الوقت، 24 فبراير 1958، رسالة يُبلغني فيها أن الشيخ شخبوط، الذي لا شك في أنه أحيط علماً بالأشغال التي أقوم بها في البحرين، يرغب في مجيئي لإلقاء نظرة على الأطلال التي كان قد عاينها.

أعترف بأنني كنت مرتاباً جداً. أطلال في أمّ النار لعلّ لها علاقة بالحضارة التي أخرجتها أنا قبل فترة إلى النور في البحرين، قديمة ترقى لأكثر من ألفي سنة. دلمون. يصعب

التصديق. كنت قد نقت في أماكن أبعد من قطر ولم أجد أي أثر. غير أن فضول عالم الآثار كان أقوى من الارتياح. جمعت زوجتي الدانمركية فيبك وطفلي، ابنتي أنيت وهي في السابعة من العمر، وابني ميخائيل وهو في ربيعته الثاني، وسافرنا إلى أبو ظبي.

أثناء مناورة الهبوط حلقت طائرتنا ذات المحركين فوق المدينة على علو منخفض وأمكنني أن أتأمل على مهل المدينة وأكون فكرة عنها: مساحة صحراوية واسعة، شواطئ رملية بيضاء، و صفوف من بيوت البرستي، وبرج مراقبة، ونخيل، ومزيد من الرمال. بحثت عيناى عن المطار عبثاً. وحين انعطفت الطائرة انعطافاً حاداً رأيت صفين من براميل النفط المطلية باللون الأسود يشيران على نحو مبهم إلى ما يشبه مدرجاً للهبوط كان على مقربة منهما كوخ صغير توقفت إلى جانبه سيارة لاندروفر. كانت تلك سيارة تيم.

حالما نزلت من الطائرة رأيت تيم وزوجته سوزان وابنتهما ديورا. لا ضابط ولا موظفون ولا من يطلب منا أوراقنا الشبوتية. فيما كنا نتحدث وصلت راندروفر ثانية وقام موظف هندي بنقل حمولتنا من علب المؤن. بعد دقائق توزعنا على

السيارتين. كان علينا أن نقطع مسافة مائة كيلومتر تفصل بين جزيرة داس، حيث هبطنا، والمدينة. هذه الكلمة «المدينة» يصعب انطباقها على المشاهد التي كنت قد رأيتها وأنا في الطائرة. سرنا بين العرشان، والجمال، والحمير، إلى أن بلغنا بيت هليارد.

قُدِّم العشاء مبكراً، إذ كان علينا أن نذهب في الساعة الثامنة لمقابلة الشيخ شخبوط. ذاك طقس على كلِّ أجنبي يفد من مدينة أو مخيم قبلي في الخليج أن يخضع له لكي ينقل إلى الشيخ آخر الأخبار. والشيخ بصفته حامياً لشعبه يجب أن يكون مطلعاً على ما يجري في بلاده. ومن جهة ثانية ألم يكن هو من التمس هذا اللقاء أولاً؟

بلغنا قصر الحِصن ساعة الغسق. كانت آخر أنوار المغرب تصبغ بألوان الباستيل أسوار الحِصن المسنّنة. الحراس الذين كانوا على علم بحضورنا سمحوا لي بالدخول مصدرين أوامر لآخرين باستقبالي على عتبة قاعة الاجتماع.

ما إن رأني الشيخ شخبوط حتى نهض لاستقبالي وأمطرني بوابل من الأسئلة على الفور. كما كنت أظنّ، كان على اطلاع بحفرياتني في البحرين. علم بها من مقال كنت كتبتّه

في صحيفة بريطانية، وما رغبته في قدومي إلا لأنه يتوقع مني أن أقدم له جواباً شافياً عن تساؤله الأساسي: من هم أسلافه القدماء؟

كان يعرف جزيرة أم النار معرفة ممتازة. وأعتقد أنني فهمت أنه اكتشف الأكمات⁽¹⁾ قبل وقت طويل من اكتشاف تيم لها. أخبرني أنهم وجدوا في المكان أيام الشيخ زايد الكبير، جدّه، تماثيل من حجر لحيوانات معبودة، لا شك في أنها صُنعت قبل الإسلام. وبعد ظهور الإسلام حُطّمت هذه التماثيل ورُميت في البحر. لكن، أضاف، من غير المستبعد وجود غيرها وعليها نقوش. وفي هذه الحالة قد نتمكن من معرفة صانعيها. أعلمني أيضاً أنّ في الجزيرة خزاناً لتجميع مياه المطر أنشأه زايد الكبير. أوضحت له أن النقوش الكتابية ليست أساسية. يكفي أن تكون قادراً على تحديد تاريخ صنع القطعة الأثرية حتى تعرف أصلها. على سبيل المثال، إذا وجدنا إناء، أو جرّة، على أرض أم النار فبوسعنا أن نعرف ما إذا كانت القطعة صُنعت في العراق أيام إبراهيم أو لا.

(1) Tumulus. هذه الأكمات رُكّام من التراب والحجارة فوق قبر.

اتّخذ شخبوط وضعية المفكر قبل أن يردّ: «إذن، ليس من المستحيل أن تجد أشياء ترقى إلى زمن مدينة أور مسقط رأس النبي إبراهيم».

استغرقت محادثتنا وقتاً طويلاً. ثم نهض الشيخ وأمكنني أن أتأمل بإعجاب الخنجر الذهبي الرائع المشدود إلى وسطه. استأنف كلامه وهو يذرع الغرفة. «أتشوّق لمعرفة من هم الناس الذين عاشوا هنا قبل الإسلام وهل كانوا عرباً؟».

قبل أن نفترق، رغب إليّ أن أبقيه على اطلاع وأخبره بما نحتاج إليه أياً يكن معرباً عن سروره بمساعدتنا.

في اليوم التالي ذهبنا، أنا وتيم، وزوجتنا، إلى أم النار.

في أثناء تفحصنا الأكمات وبعض حُطام الأواني تبين لنا بجلاء أن هذا المكان عرف حضوراً بشرياً قبل الإسلام بحوالي ألفي سنة على وجه التأكيد. لكن معرفة المزيد تقتضي مجيء بعثة تنقيب عن الآثار كاملة العدد والعدّة. قدّرت أن مثل هذه البعثة تكلف حوالي ألفي جنيه استرليني. وعندما عرضت الأمر على شخبوط في اليوم التالي كان ردّ فعله مباشراً «المبلغ بتصرّفكم!»!

أعترف بأنها كانت مفاجأة سارّة. تواعدنا على بدء الأشغال في الشتاء القادم. وفي الأسابيع القليلة التالية تابعنا أبحاثنا، أنا وتيم. وفيما كنا نكدّ تحت الشمس كانت زوجتي فيبك وسوزان تمضيان معظم أوقاتها عند الشيخة مريم زوجة الحاكم.

مما ذكرته لي فيبك عن عائلة مضيفنا يمكنني التأكيد أنها كانت بعيدة كلّ البعد عن الفكرة النمطية السائدة في الغرب عن الحرّيم والدسائس. لا شيء من ذلك إطلاقاً. وجدت فيبك عائلة شخبوط وأخواته في منتهى اللطافة، بشوشات، ومتطلّعات لمعرفة أوجه الحياة في الدانمرك مسقط رأس زوجتي. كانت فيبك من الجرأة أن أبدت استغرابها لبقائهنّ محجّبات حتى داخل الحصن، قدّمت الشيخة مريم لفيبك برقعاً لتكون محتشمة في بيتها هي أيضاً.

لم يكن ذلك حجاباً بل هو بُرّقع مصنوع من القماش الخاصّ يغطي الجبهة، والأنف والفم. والأصل في ارتداء البُرّقع أنه كان يستخدم لوقاية الوجه من شمس الصحراء ورمالها.

عدت إلى أبوظبي في خريف العام 1960، وبدأت الحفريّات.

نقّبنا عن ستّ أكمات كانت عبارة عن مقبرة تعود إلى ما قبل الإسلام. من حيث حجمها والعناية ببنائها كانت فوق المستوى المتوسط وهذا في حدّ ذاته مدعاة للدهشة في جزيرة بلا ماء تبعد حوالي مائة كيلومتر عن أقرب موقع معروف. وشيئاً فشيئاً بات من الواضح أننا كنا أمام آثار وجود إنساني يعود إلى الألف الثالث قبل عصرنا. لعلّها أرض «مجان» الأسطورية⁽¹⁾.

دأب شخبوط على زيارتنا بانتظام في موقع العمل، مصحوباً بنجليه سعيد وسلطان. جاءنا ذات يوم برفقة شخصية جديدة: رجل طويل القامة، نحيل، لكنه عريض المنكبين، له وجه صقر ولحية سوداء مشدّبة بعناية. عرفني بنفسه: «أنا الشيخ زايد». وفي السياق أعلن: «إذا أردتم رؤية أكمات كهذه بالمئات تعالوا إلى البريمي. سوف أهتم بكل شيء». أجبنا بحماس أن لا شيء أحبّ إلينا من ذلك.

بعد بضعة أسابيع كنا في العين. وكم كانت دهشتي كبيرة عندما شاهدت بساتين رائعة تحميها جدران عالية من

(1) لم تصلنا عن حضارة مجان سوى معلومات قليلة، فلا نجد إلّا في بعض الكتابات السومرية ذكراً لهذا الشعب الذي كان يستخرج النحاس ويصدره إلى سكان بلاد ما بين النهرين. ولم تترك هذه الحضارة أشياء ذات بال، خلا بعض آثار القلاع وما يقرب من ألف مقبرة لا تزال تشهد على أنها كانت قائمة.

زحف الرمال. كانت شديدة الاضرار بما فيها من أصناف
البقول والخضار المزروعة بين أشجار النخيل المتباعدة،
ترويتها قنوات اصطناعية.

وراء البساتين، جنوباً، يحجب السماء جبل حفيت الذي
تمتد على طرفه الشمالي سلسلتان صخريتان تنحدران نحونا.
سرعان ما دُعينا للعشاء في القلعة عند زايد.

طرح علينا خلال نصف ساعة أسئلة عن أم النار وجُملة
المسائل المتعلقة بالتاريخ القديم لشبه الجزيرة العربية. كان
لديه عطش للمعرفة لا يُروى.

بعد أن غسلنا أيدينا بماء إبريق ذي عُروة يحمله خادم ذهبنا
إلى الفناء. دعانا زايد للجلوس أمام حائط مُبيّض بالكلس.
بغته، فوجئنا بأحدهم يحمل آلة عرض (بروجكتور)، وما هي
إلا لحظات حتى كنا نشاهد فيلماً سينمائياً.

كنت في أثناء العشاء قد لاحظت أن الإضاءة لم تكن
صادرة عن فوانيس أو شمعدانات بل عن مصابيح كهربائية.
كان زايد يمتلك المولد الوحيد في البريمي وعلمنا في ما
بعد أن السبب الحقيقي لتجشّم عناء نقله بصعوبة عبر الطريق

الصحراوي كان لاستخدامه في عرض الأفلام.

الفيلم الذي شاهدناه كان يروي البطولات الأسطورية للبطل العربي عنتر، حيث كان هذا المحارب يقود المقاومة ضد أباطرة بيزنطة. انتهى الفيلم حوالي الساعة الرابعة صباحاً بمبارزة بالسيف تدور في القصر الإمبراطوري بالقسطنطينية.

اقترح زايد على الفور مشاهدة فيلم ثان، لكننا كنا مرهقين، وكان علينا أن ننهض باكراً لنرى ما يمكن أن تقدمه لنا البريمي من بقايا أثرية. ابتسم زايد وهزّ رأسه قائلاً: «سأتي لاصطحابكم في الساعة السابعة».

في طريق العودة قلنا إن الشيخ سوف يتأخر على الأرجح، لأن الدقة في المواعيد ليست ميزة العرب الأولى. لكن على سبيل الكياسة ومن باب الاحتياط قرّرنا أن نكون مستعدين عند الساعة السادسة والدقيقة الخامسة والأربعين.

في الساعة السابعة ودقيقتين سمعنا هدير المحرّك. كان زايد في أتمّ اليقظة وهو يقود السيارة الأولى. هتف: «هل تأتون؟».

أسئلة الفصل التاسع

1. ما سبب حضور سوزان وزوجها تيم إلى أبو ظبي؟
2. كيف كان الفترة الأولى من إقامة عائلة هليارد في أبو ظبي؟
3. بم وصفت سوزان طبع البدو وأخلاقهم؟
4. ما طبيعة العلاقة التي بصمت عائلة هليارد بمجتمع البدو؟
اشرح وعلل.
5. ماذا دونت سوزان في كتابها « قبل النفط »؟ ولماذا؟
6. كيف كان شعور سوزان بعد عودتها للإمارات بعد مرور
اثنى وعشرين سنة على رحيلها؟
7. ابحث عن حضارة « دلمون » واكتب فقرة تعريفية
مركزة عنها.
8. ما التاريخ الذي اكتشفه الشيخ زايد مع أخيه الشيخ
شخبوط - رحمهما الله -؟

9. بم وصف جفري أول هبوط له في جزيرة داس؟
10. ما دلالة السؤال الأساس الذي طرحه الشيخ شخبوط -
رحمه الله - على جيفري؟
11. لم بنظرك يعد البحث والتنقيب عن التراث مسألة مهمة
لدى الشعوب وحكامها؟
12. ما محتويات الآثار التي تم اكتشافها في «أم النار»؟ وما
دلالتها التاريخية؟
13. ما القاسم المشترك بين منطقتي «أم النار» و«البريمي»؟
14. أين يتجلى اعتزاز الشيخ زايد-رحمه الله- بالتراث
العربي؟
15. ما أهمية مشاهدة الأفلام التاريخية في وضع رؤية
مستقبلية؟

10

مَنْ يملك الخيار يملك معه أيضاً القلق
الذي يرافقه.

العين، 17 أبريل 1962

العقيد يوغ بوسفيد، المندوب السياسي لجلالتها إلى أليك
دوغلاس هوم، وزير الخارجية وشؤون الكومون ويلث.
مقتطف.

«السيد وزير الخارجية، إن الشيخ زايد، في رأينا، يمتلك
المميزات الضرورية ليكون حاكم الإمارة وهو يتمتع بشعبية
ويحظى باحترام كبير من السكان والجيران. إنه لطيف ومنفتح
جداً، ومن سماته الشخصية الشجاعة، والصراحة، والكرم.
همّه الوحيد مساعدة شعبه، وانفتاح البلاد على الحداثة. هنا

يكمن الفارق الكبير بينه وبين أخيه، الشيخ شخبوط. هذا لا يعني مع ذلك أن الشيخ زايد سيكون حاكماً نستطيع أن نتلاعب به كما نشاء لأنه يمتلك كلّ أنفة البدو ومتمسك جداً باستقلاليته. من المؤكد أنه لا نحن ولا أي سلطة أخرى سنكون قادرين على التأثير في قراراته. غير أنه لما كان مدركاً لأهمية المشكلات التي تواجهها بلاده فلا شك في أنه سوف يقبل المساعدة التي يمكننا تقديمها لحلّ تلك المشكلات. نحن مقتنعون بأنه شخصية يمكن لحكومة جلالته التعامل معها لما فيه مصلحة المنطقة كلها. الأهم من ذلك أيضاً، بناء على المعلومات التي نملكها، أنه إذا ما قرّر أن يتسلّم السلطة فلن يلقي أية معارضة من جانب عائلته، أو السكان أو قوى الأمن».

لم أعلم بهذه الرسالة الموجهة إلى دوغلاس هوم⁽¹⁾ إلا بعد سنوات طويلة. غالب الظن أنني لو علمت بها في حينه لذهبت لرؤية العقيد بوستيد وأوضحت له بحدّة طريقتي في

(1) Alec Douglas-Home.

التفكير. إن أفعالنا وحركاتنا كانت مرصودة إذن ومروية. كنت مدركاً أن الحماية البريطانية عزيزة علينا، لكنني لا أستطيع أن أتحمّل تدخّل حكومة أجنبية في شؤون بلادنا الداخلية. لا من البريطانيين، ولا من الأمريكان، فضلاً عن ذلك. منذ بعض الوقت - تحديداً منذ اكتشاف النفط - أخذ الأمريكان يبدون اهتمامهم بنا. قبل أسبوعين تقريباً قام وفد من القنصلية الأمريكية في الظهران بزيارتي في العين. لم أحتج إلى وقت طويل لكي أدرك أنهم يحلمون سرّاً بالحلول مكان الإنجليز في الخليج. يجب الاعتراف بأننا كنا نجتاز مرحلة اضطرابات كبيرة. في مصر، استولى البكباشي عبد الناصر على السلطة، وأنهى الحكم الملكي، ثم كانت قضية السويس. في العراق أيضاً كانت الأمور تتحرّك. كذلك الأمر في سوريا. وكانت الولايات المتحدة تبحث عن تحالفات جديدة. كلّ هذه الاضطرابات كانت تعني لي شيئاً واحداً: أكثر من أي وقت مضى علينا أن نحمي أنفسنا. وأول ما علينا القيام به هو تشكيل جيش. لا لمهاجمة أي كان بل للدفاع عن أنفسنا إذا ما تعرّضنا لعدوان، كما كنت قد أوضحت ذلك لثيسينغر.

في السادس من يوليو 1962 تلقيت من رسول لشخبوط
النبأ السار: عشية ذلك اليوم غادرت جزيرة داس ناقلة نפט
إنجليزية⁽¹⁾ وخزاناتها ممتلئة بالنפט الخام حتى الجمام. في
غضون ستة أشهر متتابة تمّ تصدير حوالي 170 ألف طنّ من
النפט الخام بلغت عائداتها مليوني دولار. كان هذا أكبر مبلغ
تلقيناه حتى ذلك الحين. وأوّل سؤال خطر على بالي هو:
«كيف سيستخدم أخي هذه الهبة السماوية؟».

أواخر أبريل 1966، كان عليّ أن أذهب إلى لندن لسببين:
إجراء لقاءات مع المسؤولين البريطانيين، وعرض ابني خليفة
على طبيب عيون لفحص نظره. اغتنمت فرصة وجودي في
العاصمة البريطانية لأقوم بزيارة سفارة الأردنّ.

أثناء زيارتي للسفارة أُتيح لي التعرّف إلى شابّ في
العشرينيات من عمره كان حاضراً يومذاك. كان نجل سفير
الأردنّ، وهو فلسطينيّ مثل أبيه، وولد في القدس. أخبرني أنه
يتابع دراسته في الكلية الملكية بجامعة كامبردج، ويحضّر
رسالة الماجستير في الاقتصاد. لم أتخيّل آنذاك أن قدرينا
سوف يتقاطعان في يوم ما.

(1) British Signal

ولمّا عدنا من لندن بعد أسبوع كانت في انتظاري مفاجأة كبيرة.

في أثناء غيابنا قام شخبوط بزيارة للأردن حيث استقبله الملك حسين استقبالاً حافلاً. هل أثر فيه هذا الاستقبال؟ هل بولغ في الاحتفاء به؟ لن أعرف أبداً. كل ما علمته أنه منح الحكومة الأردنية مبلغ 700 ألف جنيه استرليني هبة. أعترف أنني ذهلت. فيما كان أخي يبدي هذا السخاء المفاجئ، بقدر ما هو غير مفهوم، لم يتقاض أفراد القوى الأمنية عندنا مُرتباتهم منذ عدة أشهر وكانوا ما زالوا ينتظرون معاشاتهم المتأخرة. لم أسع إلى طرح السؤال على أخي. لكن هُمِس لي أنه آسف لإقدامه على هذه الخطوة. وهذا ما أكّده لي بعد ذلك السير وليام لوس⁽¹⁾، المندوب البريطاني الجديد. لقد تلقيت منه بعد فترة وجيزة رسالة يُعلمني فيها أنني بتّ من ذلك اليوم فصاعداً مُطلق الصلاحية في توقيع شيكات وإجراء تحويلات مالية باسمه. كان ذلك تحوّلاً حقيقياً. أكّد لي أيضاً أنه طلب من أرايكون أن تقدّم له مشروع شبكة طرق. كنت على اطلاع بشأن أرايكون، فالأمر يتعلّق باتحاد شركات

(1) Sir William Luce

أسسه بريطانيون قبيل ذهابي إلى لندن وعرضوا خدماتهم الاستشارية على أخي. لكن شخبوط استمرّ، ويا للأسف، في سياسته الحذرة والقلقة تجاه تطوير البنى التحتية. بتنا محبطين، أنا وعائلتي. وعيل صبر الإنجليز وأخذوا يهدّدون بوقف دعمهم: أصبحت بلادنا عبئاً عليهم. هذا فضلاً عن أنّ بعض شيوخ القبائل بدأوا يعلنون امتعاضهم لعدم وجود تحسّن على أوضاعهم المعيشية.

ما عدت أذكر على وجه الدقّة متى انقلب الوضع رأساً على عقب. لكن لا شك في أن ذلك قد حدث أواخر يوليو 1966. في ذلك اليوم جاء عدد كبير من أفراد عائلتي، أعمامي وأقاربي وإخوتي وأمي، إلى العين لمقابلتي. اجتمعنا في إحدى القاعات التي اعتدت على أن أتلقى فيها شكاوى سكان الواحة والزوّار. كانت الوجوه مقطبة والنظرات تعبّر عن العزم والأسى في آن واحد. وفي الخارج تعصف رياح رملية تضيف مزيداً من الوجوم على الجو الخانق.

بما أنّ أحداً لم يقرّر بعد أن يتكلّم، أخذت أمّي زمام المبادرة.

- يا ولدي، قالت بوقار، تعلم الحبّ الكبير الذي أكنّه

لكم، أنتم الثلاثة، وعلى نحو متساوٍ. بات الوضع غير قابل للاستمرار. أسأل الله العفو والمغفرة. لكن آمال بلادنا يا زايد باتت معقودة عليك.

قُضِيَ الأمر. أُطلقت الكلمات من عقالها. في الاجتماعات السابقة كانت قد تبلورت، لكن ليس بهذه الطريقة الحاسمة.

قال خالد بصوت أجشّ:

- أُمِّي مُحِقَّةٌ. أنتَ أملنا ومستقبل هذه البلاد.

أضاف عَمّ، ما عدت أذكر مَنْ هو:

- لمصلحة بلادنا، يا زايد.

وأضاف خالد:

- أنت أكفؤنا. حتّى نجلا الشيخ شخبوط، الشيخ سلطان والشيخ سعيد، رأيهما من رأينا. وقد لمسنا أيضاً تأييداً من الإنجليز، وأكدوا أن الأمر يتعلق بقضية تخصّنا وحدنا. وهم لا دخل لهم. إلّا أنهم تمنّوا علينا أن نضعهم في سياق الأحداث.

- وماذا بعد؟

- إن كانت هذه إرادتنا فهم مستعدّون لإبلاغ الشيخ
شخبوط.

تدافعتُ في رأسي الأفكار.

عاودني مشهد رأيتُه منذ بضع سنوات. كنا، أنا وأخي،
قد أمضينا الصباح في الصيد. بُعيد الظهر ذهبت إلى خيمتنا
وأخذت للقيولة. ما كدت أغفو حتى استيقظت على طلق
ناريّ. فتحت عيني. كان شخبوط أمامي، وفي يده بندقيته
التي من طراز لي - أنفيلد. للوهلة الأولى لم أفهم ماذا جرى.
ثم رأيت أفعى ميتة عند قدميّ. لولا تدخّل أخي لكنت ميتاً.

- ماذا قرّرت؟ سألتُ والدتي سلامة.

ما عدت أدري مَنْ قال لي ذات يوم: «مَنْ يملك الخيار
يملك معه أيضاً القلق الذي يرافقه».

هل يحقّ لنا بالفعل ذلك؟ فكّرتُ أيضاً في عزّة نفس
الشيخ شخبوط، وفي كبريائه. وإذا رفض؟ تذكّرت القسم
الذي أدّيناه أمام أمي: «احلفوا أنكم لن تسفكوا دماً البتّة.
احلفوا لي أنكم سوف تتساندون ويعضد بعضكم بعضاً، في
الحلّ والترحال، احلفوا».

تملكتني ارتعاشة. نظرت إلى أمي ثم قلت بنبرة واثقة:

- عدوني أنا إذا ما اعترض أخونا على قرارنا، إذا ما رفضه، فلن نفع شيئاً لإرغامه. لا شيء. عدوني! في حالة العكس، يتوقف نقاشنا هنا، لن أتولى الحكم.

- هذا غير وارد. أيد الشيخ خالد.

وأيد الجميع.

الريح تشتدّ. تُزوبعُ في الفناء وتحركُ جدائل النخيل.

كنت واعياً بوجودي في تلك اللحظة النادرة. لحظة التلاقي بين قدر خاص وقدر عام، بين فردٍ وجماعة. حاكم وشعب. لماذا أكذب على نفسي. كنتُ أداعب منذ زمن بعيد أحلاماً متفاوتة لبلدي. سرّاً. وشغفاً.

- ماذا قرّرت يا ابني؟

صوت أمي انتزعني من تأملاتي.

فكرة المساس بكرامة أخي كانت لا تُحتمل. ما العمل؟ عندئذ، للمرّة الثانية، بحثت عن الجواب عند الله تعالى. عندما

كنت طفلاً قال لي المطوّع الذي علّمنا القرآن: «أصغِ إليّ يا صغيري، حين يخفى عليك أيّ طريق تسلك استسلم للمصير الذي قدّره الله لك. في مواجهة الأحداث لا تحاول أن تُبدّل سطرًا واحدًا في النصّ المكتوب لأجلك. ثم إنك لا تستطيع ذلك. اسلكِ بهدوءٍ الطريق الذي يقترحه عليك واجتهدُ للكشف عن معناه وافعلْ ما بوسعك لبلوغ الهدف. الهدف الذي عيّنه لك».

أعلنت بنبرة قاطعة كنت أوّل من فوجئ بها:

- موافق. أقبل الشرف الذي أوليتموني إياه.

أسئلةُ الفصل العاشر

1. اعقدوا حلقة نقاشية للعبارة : «مَنْ يملك الخيار يملك معه أيضاً القلق الذي يرافقه»
2. ما هي سمات القيادة والحكمة التي وصف بها الشيخ زايد - رحمه الله - في الرسالة التي وجهت إلى دوغلاس؟
3. لم في نظرك كان الشيخ زايد - رحمه الله - يحظى بتقدير وحب من السكان والجيران قبل توليه زمام الحكم؟
4. قالت الشيخة سلامة أم الشيخ زايد - رحمهما الله - : «آمال بلادنا يا زايد باتت معقودة عليك» اشرح العبارة معللاً أبعادها.

11

«اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ
الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ
الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ
الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5).»

قصر الحصن، سبتمبر 1966

وضعت فاطمة، في حركة مألوفة، يدها على يدي.

كان وجهها كما هو دوماً، صبوحةً ومشرقاً. وعندما نظرتُ إلى وجهي في مرآة عينيها رأيت تجاعيدي. كنت أنا في الثامنة والأربعين، وكانت هي في عزّ شبابها. أحياناً كنت أتصوّر لو أن بإمكانني أن أربط عُمرِي بحبل فأمنع تقدّمه ولا أشيخ من بعد وأنتظر أن يتقلّص فارق العمر بيني وبين فاطمة. تفكير لا طائل من ورائه.

- زايد، عزيزي، تبدو شاردًا.

- شارد؟ لا. لكنني أشعر كمن يستعدّ لتسلق جبل شاهق
قمته غير ظاهرة للعيان. المهمة التي تنتظرني ضخمة.

- لست وحيداً. يدك هذه التي أمسك بها لن أتركها.

أشرتُ إلى كتابين موضوعين على طاولة، قرآن وكتاب
تاريخ.

- كيف تعلّمت القراءة بهذه السرعة؟

بدت مندهشة.

- كيف تعلمت أن تتنفس؟ عندي عطش للتعلّم والفهم،
وخصوصاً تحديد الدور الذي يتعيّن على المرأة أن تلعبه في
مجتمعنا. نساؤنا في سُبّات منذ زمن طويل ولا بدّ يوماً من
إيقاظهن. لا يمكن أن يبقى دورهنّ محصوراً في الإنجاب
و...

قاطعتها وأكملتُ تفكيرها:

- ... وفي الطبخ وإعداد القهوة، غالباً ما أسمعني ذلك،

وعرفته وأؤيده.

ملتُ نحوها وهمست في أذنها كما لو أنني أبوح لها
بسرّ:

- وأن يحصلن أيضاً على الحق في قيادة السيارة. هذه
المرّة اندفعت في ضحك متواصل.

أغمضتُ عينيّ وغصتُ في الأحلام.

كانت بلادنا قد خرجت للتوّ من أزمة مالية كبيرة حدثت
بسبب قرار الحكومة الهندية خفض قيمة عملتها الروبيّة. ليحسن
الحظ أن أخي كان قد عمد إلى إحلال الدينار البحريني محل
الروبية كنفد متداول. غير أن الأزمة كانت لها مضاعفات
وهناك الكثير مما ينبغي عمله.

- لا شيء في القرآن يعارض التقدّم.

انتفضتُ لسماع ملاحظة فاطمة.

- ماذا تقولين؟

كرّرت ما قالته واستطردت:

- من أوّل آية نزلت على النبي، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،
وديننا يشجّع على طلب العلم واطعاً العلماء في أعلى درجات
الكمال في السلم الإنساني.

وتلت:

«اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ
(2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ
مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)»⁽¹⁾

أليس هذا تذكيراً يُشدّد على أهميّة العلم؟ إعلان حرب
على الأميّة يؤكّد تأكيداً قاطعاً أن تطور البشر يمرّ عبر القراءة
واكتساب المعارف؟ ألم يكتب أيضاً: «رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا»⁽²⁾؟

- لكن لماذا تلوت عليّ هذه الآيات؟

- لكي لا تكون متردداً. من الآن فصاعداً أنت تملك
القدرة على رفع مكانة بلادنا إلى أعلى ذرى المعرفة، والتقدم.
أقدم، أقدم على وجه السرعة! ابن لنا مدارس، كليات، متاحف،

(1) سورة العلق، الآيات 1-5.

(2) سورة طه، الآية 114.

جامعات، ابنِ الله معك. وأنا أرافقك.

وختمت غاضبة من بصرها:

- إذا كانت هذه رغبتك.

أعترف بأني بُهرتُ. كيف لمن كانت في الثالثة والعشرين من العمر أن تمتلك مثل هذا النضج؟ حتى سنّ السابعة عشرة لم تعرف فاطمة إلاّ باديتها. نشأت في عائلة نبيلة. طبعاً، لكن على هدى التقاليد والأعراف القبلية الصافية. مع ذلك كانت أغنى ثقافياً من كثير ممّن ارتادوا أكبر المدارس الغربية. وألحّت فاطمة:

- إذن، أتريد ذلك؟

طبعاً قبله على جبينها وقلت:

- أريده.

وأثناء نهوضي استعداداً لمغادرة الغرفة استدركتُ:

- بقي شيء آخر.

- أسمعك.

- عندما تشرع في بناء مدارس لا تنسَ ...

انتظرتُ التتمة.

- مدارس للبنين ومثلها للبنات.

كان لديّ قناعة. في مواجهة التحدي الذي ينتظرني لا بد لي من إحاطة نفسي بأشخاص ذوي تجربة، حتى وإن كنت لا أرى في هذه الأثناء إلا شخصيات إنجليزية فأنا لا أنوي التغاضي عن نصائحهم.

يكفي إلقاء نظرة على ماليتنا لكي نقدر أننا سوف نحصل في المدى البعيد أو القصير على عائدات أكثر من ضرورية. وتفيد التوقعات أن دخل الفرد سوف يبلغ قريباً أربعة أضعاف دخل الفرد في الكويت وهو دخل مهم جداً مع ذلك. والرسوم التي تدفعها لنا شركات النفط ارتفعت إلى 38 مليون جنيه استرليني، وفي العام القادم سوف تتجاوز عتبة الـ 58 مليون جنيه.

شاء القدر أن نولد في واحدة من أكثر المناطق حرماناً

على الكرة الأرضية. بخلاف العديد من البلدان، لا أنهار هنا ولا سواقي ولا وديان مخضوضرة إلا فيما ندر. رأيت فرنسا وإنجلترا، وأمريكا، كم من هبات، كم من غابات رائعة!

لكن، لحسن الحظ، قضت مشيئة الخالق ببالغ حكمته أن يعوّضنا عن حرماننا بالذهب السائل. وليس لأحد سوانا أن يُحسن استخدامه.

بعد يومين على مغادرة الشيخ شخبوط قمّت بتوزيع مئات آلاف الدنانير على السكان الأمسّ حاجة، وفي الوقت عينه كنت أحثّهم على الذهاب إلى مواقع التنقيب عن النفط حيث يحتاجون إلى يد عاملة. وجرى استبعاد الانتهازين النفعيين تلقائياً.

في هذا السياق أنشأت، في 22 أغسطس، صندوق مساعدة لجميع الإمارات المتصالحة بملغ 500 ألف جنيه استرليني. إن كنت أريد ذات يوم أن أحمل جيراني على تقاسم المشروع الكبير الذي يراودني فمن الضروري أن أقوم ببادرة نحوهم. هذا المشروع لم أكن قد حدثت عنه أحداً، سوى فاطمة، لفرط ما كنت أراه مشروعاً طوباوياً. غير أنه ما لبث أن دخل في طور النضج واتخذ شكلاً. وبقدر ما كان

عقلي يعتبره بعيد المتناول كان قلبي يشعر بأنه سهل المنال.

منذ مارس 1966، أقام عندنا وكيل سياسي إنجليزي جديد هو السير ألبرت توماس لامب⁽¹⁾ الذي كنت أدعوه آرثشي. كان قد خدم في سلاح الجو الملكي. وفي عام 1941 درّب طيارين في روديسيا. ولدى عودته إلى إنجلترا نسف الألمان سفينته. ولكنه نجا من الموت بأعجوبة، بعد أن مكث تسعة أيام في زورق إنقاذ قبل أن يُعثر عليه ويُعاد إلى بلاده. الشره هذا وصل من الكويت حيث كان قنصلاً ويتكلم اللغة العربية بسهولة.

كانت علاقة آرثشي بشخبوط متوترة في الغالب. إذ كان قد قطع الأمل - مثل عدد من أفراد عائلتنا - بضرورة الإسراع في تنفيذ أشغال البنى التحتية. لكن إذا كان تباطؤ أخي قد أغاظه فإن تعجّلي أقلقه. يومَ أطلعتَه على المشاريع التي أعتزم تنفيذها وعلى وتيرتها كاد يخنق.

- خمس سنوات! أقلتَ خمس سنوات حقاً؟ يا صاحب السموّ، لست جاداً. أتريد أن تُخرج من تحت الرمال مدينة

(1) Sir Albert Thomas Lamp = Archi Lamp

حديثة في خمس سنوات؟

صححت:

- لا يا آرثشي، ليست مدينة بل هي أمة. اعلم أنني عندما كنت في أمريكا اهتمت كثيراً بالتاريخ الصناعي لتلك البلاد ولا سيما أحد حكامها، فرانكلين روزفلت. عندما انتُخب رئيساً عام 1933 ورث بلاداً ممزقة. 25 في المائة من السكان كانوا بلا عمل. الحماية الاجتماعية شبه معدومة. الإنتاج الصناعي في الحضيض. المزارعون يبيعون المحاصيل بخسارة. أو لا يجدون من يشتريها. البنوك مفلسة وزبائنها يطالبون باسترداد أموالهم دون جدوى. ماذا فعل روزفلت؟ لم يُعطِ نفسه مهلة خمس سنوات، كما أنوي أنا، بل مائة يوم! هل تسمعني يا آرثشي، مائة يوم. قلب العادات رأساً على عقب، وكانت القوانين تتلو القوانين. ونجح.

مطَّ الإنجليزي شفتيه متشككاً.

- ليس حقاً. آسف إن خيبت أملك. لكن خطته الجديدة⁽¹⁾

(1) New Deal.

لم تحقق النجاح الذي كان يأمله الأمريكان. لم يكن الرئيس روزفلت ذلك الساحر الذي يخرج أرنباً من قُبعتِه.

- ربما. لكنه أطلق عملية تطور لبلاده لا نظير لها. خفض نسبة البطالة إلى النصف. شقّ مليون كيلومتر من الطرقات. بنى آلاف الجسور. شيّد آلاف المباني العامة. أنشأ أكثر من مئتين وخمسين مطاراً في أنحاء البلاد.

سكّت برهة، ثم استطردت:

- بخلاف روزفلت، نحن نمتلك عصا سحرية - النفط - قادرة على تحويل الصحراء إلى جنة عدن. خمس سنوات. ما الذي يصدّم في هذا؟ ألا تعتقد أننا انتظرنا طويلاً بما يكفي؟

- طبعاً، غير أن التسرّع ربما كان خطراً، إن لجهة المال أو لنقص الخبرة. إن كان عليّ أن أعطيك نصيحة فهي المضيّ قدماً لكن بتروؤ.

- ماذا تقترح؟

- كبداية، أقترح عليك أن تشكّل لجنة استشارية مؤلفة من أربعة أو خمسة أشخاص من أهل الخبرة مهمتهم قياس

الاستثمارات التي تعتزم توظيفها في المشاريع المقررة، وأن يقولوا لنا هل نذهب بعيداً جداً أو سريعاً جداً أو أقلّ مما ينبغي.

ابتسمت.

لم يكن من بين المحيطين بي أحد أراه أهلاً لعضوية مثل هذه اللجنة.

بدا آرتشي وكأنه يقرأ أفكاري.

- أمهلني بضعة أيام للتفكير وسوف أعرض عليك بعض الأسماء.

قبلت. لكنني تداركت قائلاً:

- مهندس معماري. أريد مهندساً معمارياً، من الشباب، جديداً.

استنشق آرتشي نفساً عميقاً.

- أول اسم يخطر على بالي هو جون إليوت⁽¹⁾. في الثلاثين

(1) John Elliott.

من العمر تقريباً. لا أعرفه شخصياً لكن حدثت عنه كثيراً. إذا أردت يمكنني أن أستعلم عنه.

- افعلْ إذن.

إن كنت على شيء من الارتياب فلأن هذه المناقشة ذكّرتني إلى أي درجة نفتقر إلى خبراء في جميع المجالات. العالم يغصّ بالخبراء، والعالم العربي خاصة، فلنطلبهم.

بعد أسبوع على هذه المحادثة أعلمني آرتشي أن المهندس الإنجليزي الذي كلّمني عنه مستعدّ للقُدوم إلينا ومقابلتي. وبعد شهر استقبلت السيد جون إيوت في قصر الحصن.

شابّ، ذو وجه مُدوّر، بشوش، خلف نظّارتيه تُستشفُّ نظرة مشرقة، مع التّماعات ماكرة أحياناً.

- هل قمت برحلة مريحة؟

- طويلة نوعاً ما، يا صاحب السموّ. لندن ليست على باب الجيران، لكنني سعيد لكوني هنا.

وبادرني مسرعاً:

- كدتُ أعمل لأخيك. أنا أنتمي إلى فريق أرابيكون.

- أرابيكون. الاسم مألوف لديّ. ألا يتعلّق الأمر بمكتب
استشاري في مجال الإعمار والتنمية؟

أوماً موافقاً.

- قدّمنا للشيخ شخبوط مشروع شبكة طرقات. للأسف،
لم ير من المفيد متابعة الموضوع. يا للخسارة!
لم أُعلّق.

- وأنت يا سيّد إيوت، حدّثني عنك.

- وُلدت في بورتسموث، خرّيج مدرسة جميعة الهندسة
المعمارية في لندن. بعد حصولي على منحة دراسية من
الحكومة الفنلندية في جامعة هلسنكي التقنية عملت لمدة
ثلاث سنوات في مكتب هندسي في ستوكهولم. هناك
وضعت تصاميم لتوسعة مدن صغيرة في السويد. عام 1965
عدت إلى لندن حيث تعرّفت إلى أحد مؤسّسي أرابيكون.
وذاًت يوم جاءني من قال لي: «جون» أنت مهتمّ بالتمدين
في السويد وفنلندا. ولدينا مشروع رائع لك، في إحدى جُزر

الخليج العربي، اسمها جزيرة أبو ظبي. كلّ شيء جاهز. أتريد
الاشتراك في المغامرة؟

- وأجبت أنت بنعم، على ما أظنّ.

- طبعاً. ما عرضوا عليّ القيام به هنا كان حلم كلّ
مهندس مدني. لوح أبيض، أو، على الأقل، صحراء، ورجل
يقف وراء هذه الرؤية، أنت.

ختم باسطاً ذراعيه مبتسماً:

- وها أنا هنا.

عندما وصلتُ، أنا جون إليوت، إلى هذه البلاد، عام
1967، لم يكن فيها سوى بضعة مبان قرب القلعة، قصر
الحِصن، ومسجد أو مسجدين. لا طريق مُعبّدة، ولا كورنيش.
والسفن تلقي مراسيها على مسافة ميل في عُرض البحر، وما
تحمله من معدّات يُنقل إلى الساحل بواسطة الزوارق.

أرى مُجدّداً قوارب غارقة على بعد أمتار من مكتب
أرايكون حيث استقرّ بنا المقام، وأرى عمالاً، معظمهم

يمنيون، ينقلون على ظهورهم أكياس الإسمنت تحت حرارة لاهبة.

سرعان ما أطلعني الشيخ على أولوياته: إيجاد حلّ سريع للمشكلات الاجتماعية التي تواجهها بلاده. أراد في مرحلة أولى بناء مساكن لفئة السكان الأكثر عوزاً. لم يُرد بيوتاً حديثة على النمط الغربي بل بيوت تتناغم مع البيئة المحيطة. «بيوت شعبية»، حدّد هو شخصياً مواصفاتها، يريدّها متماثلة، بسيطة، مؤلفة من غرفتين للنوم، ومطبخ، وحمّام، ومساحة خضراء كبيرة بما يكفي لكي يتمكّن البدو من أن يضعوا فيها مواشيهم وإبلهم. وما إن تمّ بناء المساكن الأولى حتى دعا القبائل البدوية في المنطقة للإقامة في العين. ولكي يشجّعهم على الانتقال تعهّد بتقديم ألف جنيه استرليني لكل عائلة. وبلغ عدد المستجيبين لندائه 35 ألف نسمة.

بعد ذلك طوّر المشروع نفسه ليشمل العاصمة، لكن مع بعض الفروقات الدقيقة. كلّ مواطن متزوّج وربّ عائلة يحق له امتلاك مسكن بثمان زهيد. وأعطيت الأولوية للعائلات الكبيرة العدد، ولكن بشرط مُلزم: يجب على العائلة أن تحرث وتزرع الحديقة. وكان زايد قد زار لندن، وباريس، وأمريكا،

ورأى شوارعهم العريضة المشجّرة. هذه البيئة هي التي كان يرغب في إيجادها. وكان يرى أن كلّ إنسان يجب أن يتمكن من الجلوس في ظلّ شجرة.

تحضرني بهذه المناسبة طُرفة. كنا قد شرعنا في زراعة صفوف من أشجار النخيل السّامقة، من ذلك النوع الذي يبلغ طوله حوالي عشرة أمتار كالذي يُرى في كاليفورنيا. لكن سرعان ما تدخل الشيخ زايد: «لسنا في لوس أنجلوس! أريد نخيلاً بطول قامة الإنسان». سألته: «لماذا يا طويل العُمر؟» أجابني «لكي يستطيع كلّ من يرغب أن يتناول بيده الرطب من دون أن يتسلّق النخلة حتى قمّتها».

أكثر ما أدهشني تلك السّمة الرؤيوية التي ينفرد بها الشيخ. عندما قابلته للمرة الأولى كان قد وضع تصميمًا لإنشاء مزارع تجريبية في العين، واختبار أسمدة مصنوعة من طحالب وزبل، وزراعة أجناس جديدة من النباتات المعروفة بمقاومتها الشديدة للجفاف. وعندما غادرت البلاد بعد سنتين كان في العين حوالي ثلاثين مزرعة.

لم أرَ الشيخ مستخدماً القلم أو الورقة قطّ. كان يستعمل عوداً من الخيزران، كالذي يقود به الجمل، لكي يرسم على

الرمل. وكان يتمتع بمقدرة فريدة على نقل أفكاره ويعي بالفطرة مفاهيم الحجم والفضاء. ومن حُسن الحظ أنني كنت أول مَنْ يُدوّن على الأوراق ما كان يتخيله: وكنت أحمل هذه الأوراق أينما ذهبت لأنه يمكن أن يطلب مني في أي وقت أن أبسطها على سجادة في برّزة أو في ظلّ كثيب.

ذات صباح اصطحبني إلى العين بسيارته اللاندروفر، وتبعنا سيارة أخرى فيها أربعة من حُرّاسه. كان الشيخ يحرص على أن يضع بنفسه خريطة المكان الذي ستُبنى عليه المساكن الشعبية. توقّفنا في الواحة وترجّلنا من السيارة. وفي الحال طلب الشيخ من أحد الحُرّاس أن يقف في نقطة مُعيّنة. وأمر حارساً آخر بالوقوف في نقطة ثانية على مسافة بضعة مئات من الأمتار. وهكذا. فلما أصبح الحراس الأربعة كلٌّ في مكانه المحدّد، رسم الشيخ مستطيلاً على الرمل، وهتف بي: «هل سجّلت؟»

«كان يرى»، أقول بوضوح «كان يرى» مدينة المستقبل التي يحلم بها. مدينة-بستان تتخلّلها الحدائق والمساحات الخضراء. كان يحلم ببحر من الخضرة. «كان يرى» المستشفيات، المكتبات العامة، الجامعات. أذكر تحذيراً

وجَّهه إلَيَّ ذات يوم أثناء مداولاتنا في مكتبه بقصر الحصن:
«انتبه، يا جون، لا أريد مدينة نفطية! أريد مدينة، مدينة
حقيقية.»

ما يدعو إلى الأسف أن هذه التجربة الرائعة توقفت في
عام 1968. لم يُجدد العقد مع أرابيكون. أظن أن السبب
هو نقص كبير في المواد الضرورية لتعبيد الطرقات. غير أن
طريقي ما لبثت أن تقاطعت مجدداً، ولمرات عديدة، مع
طريق الشيخ زايد⁽¹⁾.

(1) نحن مدينون لجون إليوت ببناء أفخم قصر في الخليج، قصر الإمارات الذي
دُشن عام 2005، بعد سنة على وفاة الشيخ زايد. وقد مات جون في 13 سبتمبر
2010 بالتهاب رئوي.

أسئلةُ الفصل الحادي عشر

1. بين كيف كانت سمو الشيخة فاطمة - حفظها الله - سندا للشيخ زايد - رحمه الله - منذ تقلده سياسة البلاد؟
2. لماذا برأيك كانت سمو الشيخة فاطمة - حفظها الله - - إلى جانب الشيخ زايد - رحمه الله - يؤكدون على ضرورة التعليم؟
3. اذكر جانبا من تقدير الشيخ زايد - رحمه الله - لرأي سمو الشيخة فاطمة - حفظها الله - رغم صغر سنها. ما دلالة ذلك؟
4. ورد في النص عبارة : «... قضت مشيئة الخالق ببالغ حكمته أن يعوّضنا عن حرماننا بالذهب السائل. وليس لأحد سوانا أن يُحسِن استخدامَه» اشرح وعلل.
5. لم اهتم الشيخ زايد - رحمه الله - بالبنية التحتية وتعجل في إنجاز أشغالها؟

6. «نمتلك عصا سحرية - النفط - قدرة على تحويل الصحراء إلى جنة عدن. خمس سنوات. ما الذي يصدّم في هذا؟ ألا تعتقد أننا انتظرنا طويلاً بما يكفي؟» بين طموح الشيخ زايد - رحمه الله - من خلال هذه العبارة، مبدياً رأيك.
7. كيف تبلورت رؤية الشيخ زايد - رحمه الله - في رسم مدينة أبو ظبي قبل وجودها؟
8. كيف كان الشيخ زايد - رحمه الله - يشارك المصممين والمهندسين ويقترح عليهم رؤيته؟
9. لم اهتم الشيخ زايد - رحمه الله - بالبيئة والأشجار إلى جانب البنية التحتية؟ علل.
10. لم كان تركيز الشيخ زايد - رحمه الله - على بناء العمران من أجل خدمة الإنسان؟

11. يصف الكاتب ذكاء وحكمة الشيخ زايد- رحمه الله - بقوله: «... كان يستعمل عوداً من الخيزران... لكي يرسم على الرمل. وكان يتمتع بمقدرة فريدة على نقل أفكاره ويعي بالفطرة مفاهيم الحجم والفضاء». اشرح وعلل.

12. لم توقف العقد مع أرايكون في عام 1968؟

12

- من الآن فصاعداً أنت تملك القدرة
على رفع مكانة بلادنا إلى أعلى تُرى
المعرفة، والتقدم. أقدم، أقدم على وجه
السرعة!

اسمي كاتسوهيكو تاكاهاشي⁽¹⁾.

بدأ كلّ شيء في عام 1967 باتصال هاتفي من سفير اليابان
في الكويت: «دكتور كاتسوهيكو، يرغب الشيخ زايد في
لقاءك».

كان الأمر يتعلّق، حسب الدبلوماسية، بالمساهمة في بناء
عاصمة بلد لم أسمع به من قبل: أبوظبي. ولما سألت موظف
شركة الطيران الأمريكية عن المكان أجابني: «هذه مدينة
جديدة في الكاربي».

(1) Katsuhiko Takahashi.

عندما وصلت في 17 سبتمبر 1967 لاحظت على الفور أنهم بصدد تحويل قرية صيادين إلى مدينة حديثة.

آنذاك كنت في الثلاثين من العمر. حصلت للتوّ على دبلوم الهندسة من المدرسة العليا للهندسة المعمارية بجامعة كولومبيا، في نيويورك. في تلك السنّ يغلب على المرء الطيش والصلف الملازمان للشبيبة. وما زلت أسمعني أردّ على الشيخ زايد يوم أطلعني على أفكاره قائلاً له: «لقد وظّفتني لأنني أملك الخبرة التي لا تملكها أنت، عليك إذن أن تُصغي إليّ».

حين أفكر في ما قلته أجد به أنني كنت بلا شكّ مجنوناً. وبصفتي سليل عائلة عريقة من المحاربين اليابانيين القدماء، الساموراي، أعلم أن من يتجرأ على شوغون⁽¹⁾، كما فعلت أنا مع الشيخ زايد، يصبح مجبراً على الانتحار بطريقة الهارا كيري.

لكن في ذلك الوقت كان معظم المستشارين المحيطين بالشيخ زايد يمتدحون بانتظام كلّ ما يقترحه ولا أحد يجرؤ

(1) Chogun: الشوغون لقب كان يطلق على الحاكم العسكري في اليابان قديماً. والهراكيري hara-kiri طريقة في الانتحار ببقرة البطن بالسيف. (م).

على معارضته. أتخيّل إذن، أنه بدل أن يشجب صراحتي كان يجب أن تعجبه. كان الرجل ألمعياً ومنفتح الذهن على نحو لا يُصدّق. لكن غالباً ما كنا على خلاف. أنا متأثر بالمعمار الحديث وفقاً لأسلوب كوربوزيه⁽¹⁾ في البناء، وهو لا يميل إلى الضخامة المشهدية إطلاقاً. كان يريد عاصمة للناس وليس العكس. أولويّاته تتلخص في بضع كلمات: الأمن، الصحة، التعليم. ولكم أمضينا من أيام بأكملها ونحن نتجادل في تصاميم أعرضها عليه، رسومات، ومخططات جمالية عمرانية. ولما كان متأثراً بما شاهدته في نيويورك كان يريد أن يعطي مدينته جادات عريضة، مستقيمة، ولا يكف عن إسماعي عبارته المفضّلة: «الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين». لم تكن هذه وجهة نظري.

أصبحت علاقتنا أكثر تعقيداً يوم اقترحت عليه نقل العاصمة إلى منطقة المفرق، وتحويل الجزيرة (حيث العاصمة الأصلية) إلى مواقع سياحية مؤلّفة من فيلات ومرافأ يصلها باليابسة طريق إسفلتي. والمؤسف أن هذه الفكرة لم ترق للشيخ زايد الذي لم يرفضها فحسب بل رفض حتى النقاش فيها.

(1) Le Corbusier مهندس معماري كبير. (م. م.)

أغلب الظنّ أن هذه الفكرة كانت أحد الأسباب التي أدّت إلى إنهاء تعاوننا. أزعج أيضاً أن الشيخ كان قد سئم الاعتماد على مترجم وصار يفضل التعامل مع مهندس يتكلم اللغة العربية. الخلاصة أن إقامتي في أبوظبي دامت أقلّ من سنة، ولا ريب في أنها كانت من أكثر المراحل التي أفدت فيها علماً وخبرة وتثقيفاً في حياتي المهنية. ولقد خرجت برصيد لا بأس به: قسم من شبكة الطرق، وبناء الطريق البحري (الكورنيش) و - كما كان الشيخ يرغب - الكثير من المساحات الخضراء.

ما قاله الدكتور كاتسو هيكو صحيح. كان نقل عاصمتنا يبدو لي أمراً ناشزاً ومضطرباً. فيها عاش أسلافنا. وفيها أرسى تاريخنا جذوره. وتحويل الجزيرة إلى مصيف أمرٌ لا يُعقل. في الحقيقة كان تاكاهاشي أشبه بجراح - مهندس. عندما كنت أقول له: «لا أريد هذا» أو «ألغِ ذلك» كان يغضب، ويجيبني: «إذن، يا صاحب السموّ، إن فعلتُ أنا ما تريد أنت فلن يكون هذا مشروعياً بل مشروعك». أفليس هذا هو الأمر البديهي؟ نعم، سيكون مشروعياً. لكن لا جدال في أنه كان، وسيبقى،

مهندساً موهوباً⁽¹⁾.

وكان أن توجّهت نحو منظمة الأمم المتحدة للتنمية. هذه المرّة كنت أريد مهندساً عربياً مختصاً بتخطيط المدن. لقد مللت الاستعانة ب مترجم دائماً. ثم إن اللغة كلما كانت غنية كانت أكثر استعداداً للتعبير والإبداع، وتلك هي حال اللغة العربية. أيّاً تكن مقدرة من يتولّى الترجمة لا بد أن تفوته الفروق الدقيقة دائماً. والحال أن ثمة حروباً تنشب من جرّاء كلمة أو تعبير أسيئت ترجمته.

اقترحت عليّ الأمم المتحدة مهندساً معمارياً. هو الدكتور عبد الرحمن حسنين مخلوف، ابن مفتي القاهرة الأكبر، فوافقت. وصل في نوفمبر 1968 وكنت يومها في جنيف لحضور اجتماع حول الخلاف الحدودي مع جيراننا، الذي لم يكن قد حلّ بعد.

لم يُضع الدكتور مخلوف وقته منذ اللحظة التي حلّ فيها عندنا. بدأ على الفور بمسح الأراضي ورسم المخططات.

(1) توفي كاتسوهيكو تاكاهاشي عام 2017، في أبريل 2018 قام سمو الشيخ عبد الله بن زايد، وزير الخارجية والتعاون الدولي في الإمارات العربية المتحدة، بزيارة لليابان كرم خلالها عائلة المهندس الياباني مشيداً بأهمية العمل الذي قام به في أبوظبي.

وفي هذا نقطة إيجابية لصالحه في نظري. التقينا للمرة الأولى أمام فندق إنتركونتنتال المبني حديثاً قبالة البحر، بعيداً عن الوسط نسبياً. جلسنا على الرمل وبادرته بالقول إنني، مع الأسف، لا أملك أي تصميم للعاصمة. أجابني بأن هذا لا يطرح أي مشكلة، وأنه قادر على وضع تصميم في مهلة أسبوعين. أعترف بأنني بدوت كالمتشكك. غير أن هذا ما فعله. مستعيناً بالمخطوطات الإجمالية التي وضعها من سبقوه، لم ينجح في احترام المهلة التي التزم بها فحسب بل نجح أيضاً في تحويل وحدات القياس الإنجلو-سكسونية إلى النظام المتري. حظي الرجل بتقديري فوراً. من بين كل مخططي المدن الذين قاربتهم لا شك في أن مخلوف كان أكثر من وثقت به، بكل موضوعية. لا أظن أن ثقتي به كانت لكونه عربياً ولا لكونه مسلماً، فأنا لم أعلق قط أهمية على الانتماء الديني أو القومي لأي شخص، ولا على أصوله، ولا على لون بشرته. ذلك أننا خلقنا الله وخياره جميعاً.

كان مخلوف متأثراً جداً بالفيلسوف اليوناني أرسطو الذي كان يرى أن الدولة المثالية يجب أن تكون من أجل سعادة مواطنيها في المقام الأول. وتخطيط المدن مهمة اجتماعية

قبل كلّ شيء.

كان لمخلوف معلّمون درسوا في جامعات فرنسا وليس إنجلترا وهم من كبار المهندسين المصريين. نصحه أحدهم بالذهاب إلى ألمانيا والانتساب إلى جامعة ميونيخ. آنذاك كانت عملية إعادة الإعمار قائمة على قدم وساق في ألمانيا التي دمّرتها الحرب. وقد نصحه مُرشدُه: «إذا أردت أن ترى التخطيط الحضري وهندسة المستقبل فهناك!». وهناك عاش مخلوف أربع سنوات طالباً في جامعة ميونيخ حيث نال شهادة الماجستير. وقد أعجب أيّما إعجاب بفعالية الألمان، وطاقاتهم، وجدّيتهم. كانوا يعرفون ماذا الذي يريدون وكيف يصلون إلى الهدف المحدّد. كما تأثر بحميّة الناس المشاركين في أشغال إعادة الإعمار، وبالاهتمام الذي يولونه لإعادة بناء مدنهم كما كانت قبل الحرب. وقرّر في ذهني أن تلك التجربة قد وسمته بطابعها يشهد على ذلك عمله عندنا.

سرعان ما عينته رئيساً لدائرة تخطيط المدن، وهو منصب شغله بكفاءة عالية شرّفه بها. كان يرى أن عاصمتنا يجب أن تكون قادرة على استيعاب 250 ألف ساكن، وهو ما يتعارض مع تقرير وضعته أرابيكون يغطي الفترة 1965-1975 وفيه

تقدير لعدد السكان أقل أربع مرّات. كان مخلوف مقتنعاً بأننا سوف نشهد توسّعاَ عمرانياً هائلاً. وهو ما اقتنعت به أيضاً. وفي الحقيقة، كنا، أنا وهو، مخطئين: اليوم، في هذه السنة 2004، تضاعف هذا الرقم مرّتين.

كنت أرغب في أن تحترم أعمال البناء شرطاً جوهرياً هو التماسك الاجتماعي. وكان الهدف بناء مجموعات سكنية منفصلة في كلّ منها سبعة منازل مع فضاءات واسعة. كنت أكره «تكديس» مبانٍ متلاصقة حيث يشعر الإنسان بالاختناق. رغبت أيضاً في أن تكون المنازل قريبة من المساجد، ومراكز الخدمات، والمدارس، وأن يكون فيها مكان للتلاقي يمكن للجيران أن يجتمعوا فيه بعد صلاة العشاء. وكان مخلوف يعمل بلا توقّف. يساعده مسّاح واحد، ورسّام واحد.

عرفاناَ بالجميل، منحته جنسية بلادي.

أعلم أنه احتفل حديثاً ببلوغه سنّ الثمانين. والحمد لله أنه يتمتع بصحة جيدة ويعيش في القاهرة.

بمرور الوقت، بعد مغادرة مخلوف، تعاقب على العمل عندنا خبراءٌ جُدد، ومؤسسات جديدة، مثل ليو كاتر

إنترناشيونال المحدودة، ومقرّها لوس أنجلوس. في موازاة ذلك نجحت في إحاطة نفسي بشخصيات ذات كفاءة عالية، أمثال الدكتور عدنان الباجه جي. شغل الرجل في الفترة -1959 1965 منصب وزير خارجية العراق، ثم عُيّن سفيراً لدى الأمم المتحدة. عاش في المنفى بعد عام 1971 ولجأ إلينا. ونظراً لما يتمتع به من مكانة وخبرة دبلوماسية، وللعلاقات الواسعة التي نسجها على المستوى الدولي خلال حياته المهنية، لم أتأخر في تعيينه وزير دولة.

شخصية أخرى، عزيزة عليّ، رافقتني أيضاً في مسيرتي الطويلة. تقاطعت طريقها مع طريقي بمحض المصادفة للمرّة الثانية. لكن ما المصادفة إن لم تكن مشيئة الله الخفيّة؟ أوكد: «للمرّة الثانية»، لأنّ الأولى كانت في عام 1966 عندما زرت سفارة الأردن في لندن. هناك التقيته. هو ابن السفير، وكان يُعدّ رسالة ليل الماجستير في الاقتصاد. ونظراً لما يتّصف به من حياء لن أذكر اسمه وسأدعوه نشيبي⁽¹⁾.

كان، مثل أبيه، من أصل فلسطيني، وقد ولد في القدس. بعد حرب 1967 لم يعد بإمكانه العودة إلى بلاده، فقرّر القدوم

(1) Nachabi.

إلينا للعمل في مؤسسة بناء عائلية صغيرة أنشئت حديثاً. أظن أنني أدركت أنه غير مؤهل لهذا النوع من العمل. ولما كان يتكلم عدّة لغات من بينها الفرنسية والإنجليزية فقد عرض خدماته على بعض الصحف على أساس العمل بالقطعة، ومنها صحيفة الفايننشال تايمز. وفي أبريل 1968 اتصل بي فريق إنجليزي يعدّ لعمل وثائقي ويرغب في إجراء مقابلة معي. كان المنتجون يبحثون عن مترجم. وكان نشيبي هو الرجل المثالي. هكذا التقينا للمرة الثانية. لم أتعرف إليه فوراً. غير أن وجهه كان يوحي لي بسابق معرفة، ولفت انتباهه إلى ذلك فذكرني بمروري بلندن، ومن كان أبوه. هذا اللقاء الذي كان مفترضاً ألاّ يتعدّى الساعة الواحدة امتدّ لستّ وثلاثين سنة. لم يتركني نشيبي قطّ. شغل منصب مدير الإعلام، وأصدر أول صحيفة باللغة الإنجليزية في بلادنا الناشئة. جاب العالم معي. وكان حافظ سري، ومستشاري، وأحد أصدقائي المقربين بوجه خاصّ.

يوماً بعد يوم كنت أرى أرضنا تُغيّر وجهها. طرق الإسفلت تحل محل مسارات الرمال. في حيّ العريش القديم تقوم مبان جديدة بدل العرشان. في الباطن حلّ المطار الذي كنا في أمسّ

الحاجة إليه مكان المعقل والشريط الرملي الذي كان يستخدم كمدرج للهبوط. ومطار آخر، بمواصفات دولية، لن يتأخر في الخروج من الرمال⁽¹⁾. وعلى طرف شمال-شرق الجزيرة يوشك أن يظهر مرفأً جديد. والممر المعبد بالحجارة والطين المجفف الذي أمرت بنائه في المقطع قبل بضع سنوات لم يعد سوى ذكرى. يمتدّ مكانه اليوم جسر رائع بطول ثلاثمائة متر، وبأربعة مسالك.

وكنت في خضمّ كلّ ذلك حريصاً على عدم اقتلاع أشجار أرضنا التي تفيّأنا بها وتحملت معنا قسوة الحياة، ونُسجت في ظلالها ذكريات وملاحم وحكايات.

هنا وهناك تنتصب واجهات الفنادق الأولى، والمستشفيات الأولى، وصلالات السينما الأولى، والمدارس الأولى للبنين، وكما وعدت زوجتي، المدارس الأولى للبنات. الملابس ذات الزيّ الموحد، ومطعم التلاميذ والكتب المدرسية، كلها تقدّم بالمجان. وتشجيعاً للتلاميذ على المواظبة في الحضور خصّصت لكل منهم ستّة دولارات يومياً.

(1) في 31 مارس 1994.

مراكز تجارية وسفارات تفتح أبوابها. وفي الموازاة تنبثق
مبان ضخمة كال مسرح الوطني، وقصر العدل، والمجمع
الرياضي، ومؤسسة ثقافية. شبكات الكهرباء، والماء،
والهاتف، والصرف الصحيّ تنتشر سريعاً. وفي عام 1977 تمّ
إحصاء خمسة آلاف مزرعة، وهذا الرقم سوف يتضاعف أربع
مرّات في غضون عشرين سنة.

ولما كنت مدافعاً متحمّساً عن التعليم فقد وضعت نظاماً
للمنح الدراسية يسمح للطلاب المتفوّقين بدخول أفضل
الجامعات في إنجلترا، وفرنسا، والولايات المتحدة.

ذات يوم، وأنا في العين مع صديقي فارس، أشرت إلى
فضاء مزدحم بالنخيل وأعلنت: «هنا، يوماً ما، ستقوم مدرسة،
وهناك مستشفى».

رؤيتي كانت في طريقها للتحقق.

لقد واجهتُ تحدياً ضد الزمن، الفقر، الأميّة، المرض،
تدعمني كلمات زوجتي، فاطمة، التي تعاودني بلا انقطاع:
«من الآن فصاعداً أنت تملك السلطة لرفع مكانة بلادنا إلى

أعلى ذرى المعرفة، والتقدّم. أقدم، أقدم على وجه السرعة!
ابن لنا مدارس، كليّات، متاحف جامعات...».

كلّما عاينتُ التحوّل الكبير الذي أطلقت له العنان
تحضرني، كالتماعات الضوء، وجوه أشخاص بقيت مُغفلة
زمنًا طويلًا، وكلُّ منها ساهم بطريقته، وبكل تواضع، في
نهضة بلادي.

لم يكونوا من كبار المهندسين، ولا الخبراء، ولا
الاقتصاديين، بل هم أناس بسطاء ميزتهم الأولى الكرم وعظمة
الروح.

من يتذكّر ماما زليخة؟ واسمها الحقيقي الدكتورة زليخة
داوود. كانت أول طبيبة هندية تأتي للعمل عندنا. وهي،
مثل كثيرين، لم تكن قد سمعت بالمنطقة قبل أن تحط بها
الطائرة على مدرج الهبوط الرملي لسلاح الجوّ البريطاني في
الشارقة. كان ذلك في عزّ الصيف، في 20 أغسطس 1964،
«كان الطقس حارًّا جدًا، حتى لقد ظنّتها أنها تهبط في فوهة
بركان». قبل ذلك كانت هي وزوجها يعملان في مستشفى
البعثة الأمريكية في الكويت. ولم تكن تعرف من اللغة العربية
إلا بعض الجمل الأساسية. كرّست كلّ وقتها للعمل من دون

انقطاع، من الفجر إلى النجر، تداوي أصابع الصيادين التي
اخترقتها الصنارات، أو الأطفال الذين، لعدم توافر الماء، شربوا
الكيروسين خطأ. وكان عليها أن تواجه كلّ الحالات الطبية
الطارئة: ولادة، لدغ الأفاعي، كسور، جُدري، التهاب الرئة.
في الحقيقة لم يكن لديها إلا القليل من الأدوات التي تسمح
بتشخيص صحيح للمرض فكانت تعتمد على حدسها بوجه
خاص. طبقت سمعتها الآفاق حتى كان المرضى يقصدونها
من مسقط طلباً للعلاج.

بارك الله ماما زُليخة. هي في قلوبنا دائماً.

وكيف أنسى الدكتورة فروك هيرد بك، تلك السيدة
الكبيرة، التي حملتها ريح طيبة إلى شواطئنا عام 1967؟ بعد
دراسة باهرة في برلين، تزوجت وتبعت زوجها، دافيد هيرد،
مهندس البترول الذي جاء لاستكشاف آبارنا.

كنت قرّرت للتوّ إنشاء مركز الوثائق والبحوث بغية جمع
كلّ الكتابات المتعلقة بتاريخ بلادنا والخليج عامة. ورأيت أن
من الضروري أن تحتفظ الأجيال الجديدة بأثر من ماضيها.

ونظراً لعدم وجود مكان مناسب اخترت لهذا المركز جناحاً كبيراً في قصر الحصن.

في الحقيقة كانت فكرة إنشاء هذا المركز بإيحاء من المؤرخ المصري الدكتور محمد مرسي عبد الله الذي كان يعمل آنذاك في الدوحة بقطر.

عام 1966 كان في لندن حيث دُعيت للمشاركة في ندوة نظمها عدد كبير من المستشرقين الذين كان يقلقهم انسحاب البريطانيين قريباً من الخليج. في أثناء إقامته هذه علم أن مكتبة مكتب الهند⁽¹⁾ جمعت آلاف الوثائق والمعاهدات والمراسلات المتعلقة بمنطقتنا. على الفور خطرت للدكتور عبد الله فكرة: «لماذا لا يُنشأ هذا النوع من المكتبات في أبوظبي؟». عرض فكرته على أحد أصدقائي الذي كان في الوقت نفسه من معاوني المقرّبين: أحمد خليفة السويدي، الأديب والشاعر الكبير المولع بالتراث الشعري العربي. لم تكن الثقافة كلمة بسيطة في نظره بل كانت وظيفته، فضلاً عن أنه يشاطرنني الشغف بالمتنبي.

(1) India Office Library

أدرك السويدي على الفور أهمية هذا المشروع. عرضه عليّ فوافقت. في البداية كان هذا المركز - المتواضع جداً - مؤلفاً من الدكتور عبد الله وثلاثة موظفين فقط، بما فيهم مقدم القهوة. في الطابق الأول غرفة مخصصة للتليكس بإشراف هندیين من كيرالا. وكان مكثبي ومكتب السويدي متلاصقين تقريباً. في هذا الطابق حركة المجيء والذهاب لا تنقطع. تصادف فيه بدءاً يحملون صقورهم على قبضاتهم، وجمّالين، وسياسيين أجانب، وياسر عرفات أو ليلي خالد، المقاومة الفلسطينية، وطلاب حاجات بوجه خاص ينتظرون أن أستقبلهم. وكان بعض الزوّار يستعيرون كتباً ثم يخطفون عن الأنظار. كانت المرّة الأولى التي تخطّت فيها الدكتور فروك هيرد بك عتبة قصر الحصن بعد سنة أو سنتين من قدومها إلى البلاد. كانت في الخامسة والعشرين أو السادسة والعشرين. درست التاريخ. كتبت رسالتها للدكتوراه عن مصير برلين أثناء الاضطرابات السياسية التي أعقبت الحرب العالمية الأولى.

قيل لها إنها يمكن أن تجد في المركز معلومات عن مرحلة الإمارات المتصالحة. فذهبت إليه وسألت الدكتور

عبد الله إن كان يسمح لها بمراجعة الكتب الموجودة فوافق من دون تردد. كيف لا وهو لا يستقبل كل يوم مؤرخة مثلها، فضلاً عن أنها مؤرخة بارزة. ولم تكن السيدة هيرد بك بحاجة إلى وقت طويل حتى تكتشف أنها وقعت على كنز حقيقي.

ما عدت أدري أفي ذلك اليوم أو بعد فترة اقترحت أن تفرز المؤلفات وتصنفها. لم يسعد الاقتراح الدكتور عبد الله فحسب بل خصص لها مرتباً، ضئيلاً، حتى أنها لا تذكر اليوم مقداره.

هكذا كرّست نفسها لهذه المهمة مقيمة علاقات مع مكاتب عامة عالمية مثل مكتبة الكونغرس. ذات يوم علمت أن دار المحفوظات في القاهرة تحتوي على وثائق نفيسة تسرد وقائع الحملة العسكرية التي شنّها محمد علي، نائب السلطان في مصر، على شبه الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر. لا شك في أن الأمر يتعلّق بوثائق مهمة جداً لمن يهتم بتاريخ الخليج. أحالت الأمر على بحّاثة إماراتي يدعى علي التاجر كان يعمل معها في المركز. تحمّس الرجل للفكرة واقترح أن يذهب بنفسه إلى القاهرة لكي يحصل من السلطات المصرية على إذن بتصوير الوثائق المعنية. رُفض طلبه. لماذا؟ بكل

بساطة لأن دار المحفوظات لم تكن تمتلك آلة ناسخة. كانت حرب الأيام الستة قد مرّت من هنا وقرّرت مصر مقاطعة كلّ المنتجات الأمريكية - باعتبار أمريكا حليفة دائمة لإسرائيل - ومن بينها المنتجات التي تصنعها شركة كزيروس المشهورة بآلاتها الناسخة.

لم ينل ذلك من عزم علي التاجر. فكّر في حيلة لتجاوز هذه العقبة. أقنعنا بشراء الآلة الناسخة وتقديمها هدية إلى دار المحفوظات المصرية في القاهرة. بعد الحصول على موافقتنا بقي هذا الرجل الخدوم في العاصمة المصرية ينتظر بفارغ الصبر تسليم الآلة. ثم تولّى بنفسه تصوير جميع الوثائق، واحدة واحدة، وعاد إلينا ظافراً.

على مدى السنوات السبع والعشرين اللاحقة كان قصر الحصن يعدّ المنزل الثاني للسيدة هيرد بك. قامت وحدها بفرز آلاف الكتب المتراكمة وترقيمها وترتيبها على رفوف استوردتها من ألمانيا.

هذا المركز الذي كان في البداية مجرد مكتب متواضع للتوثيق تحوّل في النهاية، بفضل هذه المرأة المدهشة، إلى مؤسسة الأرشيف الوطني. إن أناساً مثلها، أشخاصاً استثنائيين،

هم الذين ساعدوا على التعريف بالوجه الحقيقي لبلادي⁽¹⁾.

أذكر أن الشيخ زايد جاء لزيارتنا في المركز ودعانا لتناول الغداء معه. وأنا، فروك هيرد بك، المرأة الوحيدة الحاضرة، وجدتني جالسة إلى جانبه؛ ما يعني أن لدى الشيخ ذهنية منفتحة وبعده نظر. كان مضيفاً لطيفاً ومتحدثاً طريفاً. يهتم كثيراً بالطباء وبالحيوانات عامة وسُرَّ بمعرفة أن زوجي يحتفظ بظببتين في حديقة منزلنا. في ما بعد أنشأ حديقة حيوانات في العين وأشرف شخصياً على إغنائها. دائماً ما كنا ندعى، أنا وزوجي، في مناسبة عيد الفطر نهاية شهر رمضان. ما عدت أدري لماذا لم أستطع ذات عام حضور هذه المناسبة، فذهب زوجي دافيد وحده. عندما وصل إلى قصر الحصن رفض الحراس السماح له بالدخول. كانت هذه المرة الأولى التي يأتي فيها وحده، وفي نظر الحراس كنت أنا الزائرة الرسمية.

(1) الدكتور فروك هيرد بك هي، من بين أشياء أخرى، مؤلفة كتاب مرجعي عن المنطقة، *From Trucial States to United Arab Emirates* الصادر عام 1982 عن دار Group. عضو في عدد من المنظمات المرموقة، وعضو في المجلس الأعلى للثقافة. حالياً، لا تزال تعيش في أبوظبي. عام 2007 فازت بجائزة قدمها سمو الشيخ محمد بن زايد، ولي العهد والقائد الأعلى للقوات المسلحة.

طبعاً، بادر الشيخ زايد على الفور إلى القيام باللائم لكي
يسمحوا له بالمرور.

كان زمناً جميلاً.

أسئلة الفصل الثاني عشر

1. لم كان كل المستشارين المحاطين بالشيخ زايد - رحمه الله - معجبين بأفكاره ورؤاه حسب ما فهمت من النص؟
2. ركز الشيخ زايد - رحمه الله - حسب النص على ثلاث أولويات في بناء الدولة، هي: الأمن والصحة والتعليم. أبرز قيمتها الحضارية.
3. في تصميم الطرق دوما كان يركز الشيخ زايد - رحمه الله - حسب النص على الخط المستقيم بعبارة الشهيرة «الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين». علل ذلك، مبرزا وجهة نظرك.
4. لم كان الشيخ زايد - رحمه الله - يفضل التعامل مع مهندس عربي في تصميم المدينة؟ أبد رأيك.

5. ورد في النص عبارة: «مخلوف كان أكثر من وثقت به، بكلّ موضوعية. لا أظنّ أن ثقّتي به كانت لكونه عربياً ولا لكونه مسلماً، فأنا لم أعلّق قطّ أهمية على الانتماء الديني أو القومي لأيّ شخص، ولا على أصوله، ولا على لون بشرته. ذلك أننا خلق الله وخياره جميعاً». بين ما يلي:

6. ابحث عن سيرة المهندس عبد الرحمن مخلوف، وقدم تعريفا موجزا به.

7. ما المهمة التي كلفه بها الشيخ زايد - رحمه الله - ؟

8. بم كافأه الشيخ زايد - رحمه الله - على جميل صنعه؟

9. لم كان الشيخ زايد - رحمه الله - يحرص في أثناء بناء الدولة الفتية على شرط جوهرى هو: التماسك الاجتماعي؟

10. بم تفسر حرص الشيخ زايد - رحمه الله - على بناء المساكن على مقربة من المساجد والخدمات والمدارس؟

11. وضع الشيخ زايد - رحمه الله - نظاما للمنح الدراسية لتشجيع على العلم والمعرفة، علام يدل ذلك؟
12. عدد بعضا من التحديات التي واجهها القائد المؤسس في سياق التحول الكبير الذي أسسه من البداية؟
13. لم برأيك خصص للوثائق التاريخية والبحوث جناح من قصر الحصن؟
14. كيف تغلب «علي التاجر» على منع دار المحفوظات المصرية لمنع نسخ ووثائق تاريخية؟
15. قدم عرضاً عن مؤسسة الأرشيف الوطني؟

13

قال لي الشيخ راشد: «مُدّ لي يدك،
صافحني». صافحته. في تلك اللحظة
أبصرت الإمارات العربية المتحدة
النور.

لا أحبّ الوحدة.

لا أحتمل تناول طعام الغداء أو العشاء وحدي. التواصل
مهمّ في نظري. أعطيت مدير المراسم تعليمات ألا يرفض أي
طلب لمقابلي أجراء من شخص غير معروف أم من مشهور.
يمكن التساؤل ما الذي بوسع رجل قليل الثقافة أو جاهل لا
يعرف شيئاً عن مشاكل العالم أن يحمله إليّ؟ الجواب بسيط:
مثلما يحمل الخبير، ولكن في عالم مختلف.

في كلّ حياة ترنّ تلك الساعة التي يسقط فيها الإنسان
ضحية الشك حيث تغمره تفاهة وجوده وتُفقدته الثقة. يحدث

أيضاً أنّ حبّ الذات والكبرياء يدفعانه إلى أن يعتبر حقيقياً ما ليس بحقيقي وصحيحاً ما هو خطأ. في تلك الأوقات ليس إلاّ اللقاءات مع كائنات بسيطة راسخة القدم في الحياة اليومية ما يعيده إلى الواقع.

عندما اضطرّني الألم الذي كان يبرّحني للذهاب إلى الولايات المتحدة، ودخول المستشفى في كليفلاند حيث مكثت ستة أشهر، كان يرافقني اثنان من مساعديّ وترجماني الأمين، نشيبي، وكان حضورهم يكفيني. غير أنني في كلّ صباح، وقت الفطور، كنت أدعو إلى غرفتي موظفي المستشفى، ممرّضات، ومقدّمي رعاية، وأطباء، وكل من لم يكن مرتبطاً بواجبات لتناول الطعام معي.

كقاعدة عامّة، لطالما عرفت أيضاً أن الانفعال، مهما يكن قوياً، يمكن أن يصبح أقوى حالما تُشارك فيه غيرك. أن يهرك منظر طبيعي وأنت وحدك أمرٌ حسن، لكن هذا الانبهار وأنت مع شخص آخر أحسن. الاستماع إلى قصيدة، أو لحن موسيقي بتأثير متبادل مع محيطك من شأنه أن يضاعف عشر مرّات ما تشعر به من انفعال على ما يبدو لي.

لا أحبّ الوحدة.

على أن المفارقة أنني أشعر بحاجة لا تُقاوم لأن ألتجئ
إلى الصحراء. أحبُّ رحابتها. أحبُّ حركة الكشبان التي تدقُّ
عن الوصف. أحبُّ لفتح الهواء الساخن الذي يداعب الجبهة.
أحبُّ هذا العطر الغامض الذي يطيب الهواء على نحو مغاير.
أحبُّ هذه اللحظات محاطاً بالصمت. إنها تتيح لي الاتصال
بالخالق ومناجاته. لأنني من الله أستمدُّ قوّتي.

ما أخشاه هو أن يتخيّل الذين سيتكلّمون عني، ويجمعون
ما سيدبّج من مدائح لي، بعد وفاتي، أنني كائن كامل، لا
تشوبه شائبة. إن في ذلك لضللاً. أخشى التبجيل. التبجيل
حبّ أعمى. وأفضّل أن أحظى بتقدير أولئك الذين يرون.

مررت بلحظات ضعف. عرفت الشك ونفاد الصبر،
والضييق. ولا أدري إن كنت الأب الصالح والزوج المثالي.
أبنائي وزوجاتي يعرفون الجواب. حدث أن ارتكبت أخطاءً
على غير إدراك مني. لا. لست كائناً كاملاً. الكمال لله وحده.

- هل بلغك النبأ، يا أبي؟

كنت في العين عام 1967 عندما زارني ابني البكر، خليفة.

وضع على مكتبي نسخة من صحيفة ديلي إكسبرس، واستطرد
بصوت أجشّ:

- الإنجليز يتركوننا.

ألقيت نظرة على عنوان الصفحة الأولى. كان بالخط
العريض. انسحاب القوات البريطانية من شرق السويس⁽¹⁾. يلي
ذلك مقطع من خطاب لوزير الدفاع، دنيس هيلي، يفصّل فيه
أسباب الانسحاب. كانت إنجلترا على شفير الإفلاس، وأوّل
منصب يتطلّب نفقات باهظة هو وزارة الدفاع، وبالتالي رأت
الحكومة العمالية برئاسة هارولد ويلسون أن الوقت حان لشدّ
الحزام وأن ذلك يمكن أن يتحقق إذا ما فككت بريطانيا
قواعدها في آسيا والشرق الأوسط.

سألني خليفة:

- ماذا تعتقد، يا أبي؟

قبل خمسة أشهر احتفلنا ببلوغه التاسعة عشرة من العمر.
وقد عينته ولياً للعهد بعد بلوغه هذا العمر، وإني على يقين من

(1) آنذاك كانت عبارة شرق السويس تشير إلى المصالح البريطانية خارج المسرح
الأوروبي، لا سيما ماليزيا، وسنغافورة، والشرق الأوسط.

أنه سيكون بمستوى المهمة.

- لا يمكن أن أصدّق أنهم سيرحلون ويتركوننا لمصيرنا
ونحن بلا دفاع. لا شك في أنهم سيعطوننا مهلة لكي نتمكن
من تشكيل جيش قبل الانسحاب.

- أرجو ذلك يا أبي.

سرعان ما خابت آمالي.

بعد بضعة أيام طلب مقابلي الوزير البريطاني للشؤون
الخارجية اللورد غورنوي روبرتس⁽¹⁾، فاستقبلته في قصر
الحصن.

عندما جلس قبالي رنّ صوته كالساطور:

- سوف نرحل، يا صاحب السموّ!

تناولت سُبحتي الكهرمان ورحت أسقط حباتها بين
أصابعي.

- أعلم ذلك.

(1) Lord Goronwy-Roberts.

مطّ شفّتيه ليؤكّد لي أسفه:

- صدّق أننا نأسف لذلك.

قلت بهدوء:

- حضرة اللورد، بريطانيا العظمى كانت صديقنا الأوّل في هذا الجزء من العالم على الدوام. كانت حاميتنا، لعلّك تعلم ذلك؟

- طبعاً، يا صاحب السموّ. وهذه الصداقة ستبقى بلا شكّ. لكن كلفة حضورنا عندكم باتت أكبر من أن تحتملها خزينة الدولة.

- لا يغرب عنكم أنّ لدينا جاراً كثير التهديد، هو إيران. إن لم يجرؤ الإيرانيون على التحرك حتى الآن فلأنكم هنا. لكن في الغد... لا يا عزيزي اللورد. لا بُدّ من أن تمهلنا إنجلترا بعض الوقت.

كرّرت:

- لا بُدّ.

اكتفى الوزير بسعلة خفيفة، مفسحاً لي المجال لكي
أستطرد.

- على مدى عقدين تقريباً لم تروا من المفيد أن تهَيَّئوا
بلادنا ولا شعبنا للاستقلال. لم تضعوا أيّ حدود في منطقتنا.
من هنا حتى رأس الخيمة لا أحد يمكنه أن يعرف أين تبدأ
حدوده ولا أين تنتهي. اكتفيتم بإرسال ضابط جاب الإمارات
على ظهر حمار ليسأل كلّ قبيلة إلى أي زعيم تدين بالولاء.
وها أنتم، بين ليلة وضحاها، تقرّرون التخلّي عنا.

- اطمئنّ، يا صاحب السموّ. لن نذهب في الحال. لن
يكون ذلك قبل ثلاث سنوات باعتمادنا.

- ثلاث سنوات. أتتخيّلون أنني أستطيع في ثلاث سنوات
أن أبنى جيشاً جديراً بهذا الاسم؟

غضّ بصره، وأسرّ لي:

- بيني وبينك، لدي ما يُشبه الانطباع بأن بعض حفّاري
القبور الهرمين في وستمنستر قد جمعوا بعجل ما يكفي من
الخشب لصنع تابوت يضعون فيه الخليج.

هذه الصورة اقشعرّ لها بدني.

فكّرت بُرْهَةً، ثم اقترحت:

- وماذا تقول إذا تعهّدنا نحن بدفع كلفة بقائكم ريثما
نبني قواتنا المسلحة؟ هكذا لا نحملّ دافع الضرائب الإنجليزي
أيّ عبء.

- لا أستطيع إجابتك. لستُ مخوّلاً بذلك. كلّ ما يمكن
أن أعدك به هو أن أعرض الأمر على حكومة جلالتها وهي
تحيطكم علماً بقرارها.

- جيّد جداً. لكنني أنبّهك: أنا لا أنوي البقاء بلا حراك.

قطّب روبرتس.

- ماذا تقصد، يا صاحب السموّ؟ ماذا تنوي أن تفعل؟

- سوف تعلم في الوقت المناسب.

غادر غورنوي روبرتس. من بيننا نحن الاثنين كان هو
الأكثر قلقاً.

كنا في الرابع من يونيو 1967، أتذكر ذلك بوضوح لأنّ

حرب الأيام الستة بدأت في اليوم التالي وباء فيها العرب
بواحدة من أكبر الهزائم. في العاشر من الشهر نفسه احتلت
إسرائيل هضبة الجولان السورية، وشبه جزيرة سيناء، وقطاع
غزة، والضفة الغربية والقدس كلّها.

في القدس كنت قد صلّيت في المسجد الأقصى محاطاً
بأخي والملك حسين. تلمّستُ الحجارة القديمة، وفي
وجداني ليلة المعراج المباركة التي ركب فيها النبي، صلى
الله عليه وسلّم، البراق واضعاً رجله على الصخرة. لا شك
في أن القدس مكان مقدّس لليهود، وللمسيحيين، ولنا نحن
المسلمين. القدس تنتمي إلى أهل الكتاب. منذ آلاف السنين
وهذه المدينة تنزف. بابليون، فُرس، يونانيون، رومان، عرب،
فرنجة، مماليك، عثمانيون، بريطانيون، كلهم وطئت أقدامهم
أرضها. كلهم سفكوا فيها الدماء. وليس بمستحيل أن تختفي
ذات يوم، وتصبح رماداً، لفرط ما كانت مُشتهاة، ما لم يقرّر
الجميع أن يكونوا قلباً واحداً لكي يستمرّ قلب القدس في
الخفقان.

أمام هزيمة الجيوش العربية ما كنت لأقف مكتوف اليدين،
حتى قبل وقف القتال في التاسع من يونيو، أصدرت مرسوماً

أُعلن فيه أننا نظراً إلى إيماننا القويّ بدورنا في معركة الكرامة التي تخوضها الأمة العربية، وتعبيراً عن تضامننا مع إخواننا في نضالهم من أجل الحرية، قرّرنا وقف تصدير نفطنا نحو البلدان التي تساعد أو تدعم إسرائيل. ونسأل الله العليّ القدير أن يُنجح مساعيها الرامية إلى دعم العرب والمسلمين جميعاً.

المعركة الكبرى التي كان يُفترض أنها ستؤدي إلى تحرير فلسطين تحوّلت إلى هزيمة. وكان على الفلسطينيين أن يشهدوا بزوغ فجر مأساة جديدة.

لطالما ردّدتُ: أنا رجل حوار لا نزاع. لكن من أجل الحوار من الضروري أن يكون هناك اثنان. في هذه الحالة بالذات كان من الواضح أن المحاور الآخر هو إسرائيل، وهي غير مستعدة مطلقاً للدخول في نقاش صريح أو تقديم أي تنازل.

كان أخي شخبوط قد أدرك ذلك مبكراً وأدان تقسيم فلسطين. وكما أوضحنا للمندوب البريطاني لم يكن لنا أي وزن عسكري. وليس لنا من خيار غير أن نمدّ اليد لمساعدة إخواننا. في الأشهر التالية قدّمت عشرين مليون دولار لمصر وسوريا وثلاثة عشر مليوناً للأردن. كانت هذه طريقتي

للمساهمة في إعادة إعمار تلك البلدان. ولقد حثتُ الولايات المتحدة وكل القوى العالمية المعنية بالسلام على إرسال مراقبين دوليين لحماية الشعب الفلسطيني من بطش الجيش الإسرائيلي. فلم ألق تجاوباً.

أعترف بأنني لم أفهم مطلقاً كيف أن شعباً عانى الكثير من الرعب النازي يمكنه أن يتصرف بوحشية مماثلة حيال شعب آخر. أنا الذي أحبّ الشعر كثيراً غالباً ما أردّد أبيات أحمد شوقي التي يصور فيها تعلقه الشديد بوطنه، يقول:

وطني لو شُغِلْتُ بالخُلْدِ عنه

نازعتني إليه في الخُلْدِ نفسي

شهدَ الله، لم يغبْ عن جفوني

شخصُه ساعةً ولم يخلُ حسّي

هل يجب أن أوضح على وجه الدقة أنني لا أوافق إطلاقاً أولئك الذين يدعون إلى «إلقاء اليهود في البحر»، حسب العبارة المنسوبة إلى العرب والتي لم يتوصّل أحد إلى تشخيص مصدرها ولا قائلها. إنّه بكلّ الأحوال عمل غير إنساني

وسخيف في آن. كلّ خلق الله يحق له أن يعيش. «لا تقتل»: هذه وصية ينبغي ألاّ تُنتهك إطلاقاً. ولا أحد غير الله، سيّد الأكوان، يمكنه أن يدّعي لنفسه الحقّ في حرمان أي مخلوق من حقه في الحياة. قال الله تعالى: «... مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا...»⁽¹⁾

وعلى الرغم من كلّ شيء أنا أتفق مع مَنْ له شرعيّة الوجود. في 22 نوفمبر 1967 صوت مجلس الأمن الدولي بإجماع أعضائه الخمسة عشر على القرار 242. نصّ القرار على عدم شرعية الاستيلاء على الأرض عن طريق الحرب، وعلى الحاجة إلى سلام عادل ودائم تستطيع أن تعيش فيه كلّ دول المنطقة، وطالب بانسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي التي احتلتها. هذا النصّ واضح، ولا يقبل النقاش. وطالما لم يوضع موضع التطبيق، لا أرى أي سبب يحول دون الاستمرار في تأييد حقوق الشعب الفلسطيني. إن كان الظلم أخرس فالعدل ناطق.

(1) سورة المائدة، الآية 32.

بعد ذهاب الوزير البريطاني امتطيت جوادى وذهبت إلى الصحراء من دون حراس. ركوب الخيل أقرنه بحب الصيد بالصقر. كان والدى هو من وضعنى لأول مرة على صهوة جواد أصيل. كان يعرف الخيل خير معرفة، وقد قال لى: «جوادك يجب أن تتعلم كيف تكلمه، يجب أن تعلمه كيفية الوقوف، وتعمل على تطوير حركاته الغريزية». بمرور الوقت اكتسبت أذناً داخلية. توصلت إلى اقتناع مفاده أن الجياد، ومنها جوادى طبعاً، قادرة على التعبير. ذات يوم قال لى: «الجواد يمكن أن يكون بمثابة الصديق النادر لك». ومنذ ذلك اليوم وأنا أتذكر قول المتنبى:

وَمَا الْخَيْلُ إِلَّا كَالصَّدِيقِ قَلِيلَةٌ

وَإِنْ كَثُرَتْ فِي عَيْنِ مَنْ لَا يُجْرِبُ

إِذَا لَمْ تُشَاهِدْ غَيْرَ حُسْنِ شِيَاتِهَا

وَأَعْضَائِهَا فَالْحُسْنُ عَنْكَ مُغَيَّبٌ

بعد ساعتين من العدو ترجلت وجلست متربعا على الرمل واستغرقت فى التأمل. فكرت مجدداً فى المسألة التى تشغل

بالي منذ سنتين أو ثلاث سنوات، وسرعان ما استنتجت أن
مغادرة البريطانيين قريباً كانت علامة من السماء لأنها لا تترك
بعد الآن مجالاً للتردد.

كان غورنوي روبرتس قد أعلن: «لديّ ما يُشبه الانطباع
بأن بعض نجّاري وِسْتِمِنْسْتِر الهرمين جمعوا على عجل ما
يكفي من الخشب لصنع تابوت يضعون فيه الخليج».
سوف نُثبت لهم أنهم مخطئون.

هناك الخليج العربي. وفي قلبه تسع إمارات: أبوظبي،
دبي، الشارقة، رأس الخيمة، عجمان، أم القيوين، الفجيرة،
البحرين، قطر.

تسع إمارات.

شعب واحد.

كيان واحد.

تسع إمارات لكلّ منها حاكمها، وعاداتها، وحساسيتها
ورغبتها في الاستقلال، وتطلُّعاتها، وحرصها على مصالحها
الخاصة. بعضها أكثر ثراءً أو تقدّماً من بعضها الآخر.

تسع إمارات وماضيها، حيث تكمن خلافات قديمة،
وانشاقات، وصراعات على السلطة.

تسع إمارات من دم واحد، إخوة وغرباء في الوقت عينه.
توحيدها، تحويل خلافتها إلى قوة، وجعلها أمة واحدة،
صخرة واحدة، ذاك هو الحلم الذي يلازمي. من دون وحدة
الأرض والأنفس هذه كيف يمكن أن نكون قادرين على
مواجهة عدوان العالم المحيط بنا؟ كيف يمكننا أن نقاوم
ضربات الساطور التي يكيلها لنا الأقوياء؟ منذ عشر سنوات
تقريباً تمضي أوروبا في طريق تقودها، وأنا واثق من ذلك،
نحو إقامة اتحاد يجمع شعوبها. لِمَ لا ينطبق علينا الأمر؟ على
أي حال، إن لم نكن قادرين على أن نتحد فقد نضطرّ إلى
العيش في خشية دائمة، منطوين على أنفسنا.

في الوقت نفسه كنت مدركاً أنني لن أستطيع وحدي أن
أقنع جيراني بالانضمام إلى الاتحاد. كنت بحاجة إلى سند.
يجب أن نكون اثنين على الأقل. لم أفكر في الأمر طويلاً.
خطر لي اسم لا شك في أنه الأقرب إلى التطلع. الشيخ راشد
بن سعيد آل مكتوم كان يكبرني بسِتِّ سنوات، وهو الذي
يحكم دُبي منذ عشر سنوات تقريباً. تمكّن في وقت قياسي

من تحويل بضع مجموعات في منطقة الخور إلى مدينة مرفئية حديثة وقُطب اقتصادي. كنت أعلم كلَّ شيء عن حياته، ولا يخفى عليه شيء من حياتي. كان قد تمكَّن، بكثير من الأناة والتؤدة، من إنقاذ دُبي من أزمات اقتصادية متتابة، ولا سيَّما إبان انهيار تجارة اللؤلؤ، والحصار البحري الذي فرضته بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية على المرافئ في المنطقة. ذات يوم قال في ما يُشبه الدعابة: «جدِّي كان يركب الجمل، أبي كان يركب الجمل، أنا أقود سيارة مرسيدس، ابني يقود لاندروفر، ابنه سيقود لاندروفر، لكن ابن ابنه سيقود جملاً». تلك لم تكن دعابة. كان الشيخ راشد يخشى أن ينضب النفط المكتشف على أرضه عام 1966 في غضون بضعة أجيال. لذلك انصرف إلى تطوير الاقتصاد لكي يتمكن من الاستمرار في مرحلة «ما بعد النفط» جاعلاً من بلاده مُلتقى الطُّرق التجارية في المنطقة. رجل يتَّسم بمثل هذه الحكمة لا يمكن إلا أن يكون مُتقبلاً للفكرة التي كنت راغباً في عرضها عليه. كنت مُتفائلاً. على كلِّ حال، وفي ما يتعدى تباعدنا في بعض النقاط، كنا قد تربَّينا في كنف والدين تميزان بشخصيتين متقاربتين. كانت أمُّه، الشيخة حصّة، وأمِّي أنا تمتلكان قوَّة الشخصية نفسها. وكلتاها تركتا فينا أثراً لا يُمحى. فضلاً

عن ذلك، فإن زوجته لطيفة بنت حمدان ابنة عمّي.

في اليوم التالي، لدى عودتي من قصر الحصن، بعثت إلى الشيخ راشد برسالة أُحيطه فيها برغبتني في لقائه. لم يتأخر جوابه في الوصول إليّ واتفقنا على موعد اللقاء.

18 فبراير 1968، صحراء عرقوب السديرة.

في قلب الصحراء كان لقاءنا.

لم أعد أنا الشيخ زايد.

لم يعد هو الشيخ راشد.

كنا بدويين، تحت شمس وهاجة.

المكان تلة تقع في منتصف الطريق بين دُبي وأبوظبي، كان قد اختاره محمد، أحد أبناء الشيخ راشد، كان يومها في التاسعة عشر من عمره، وكان ابني خليفة يكبره بسنة واحدة.

نُصِبَتْ خِيْمَتَانِ. إِحْدَاهُمَا مَكْشُوفَةٌ لِحِجَّةِ الشَّمَالِ لِكِي
تَدْخُلَهَا الرِّيحُ؛ وَالثَّانِيَةُ فِي الْجَنُوبِ لِمُرَافِقِينَا.

أَوْقَدَ الرِّجَالُ النَّارَ، وَأَعَدُّوا الطَّعَامَ.

تَوَجَّهْنَا أَنَا وَالشَّيْخُ رَاشِدٌ نَحْوَ الْخِيْمَةِ الْقَائِمَةِ فِي الشَّمَالِ
وَجَلَسْنَا فِيهَا. لَا أَحَدٌ مَعَنَا. لَا شَاهِدَ.

بَدَوِيَّانِ.

رَجُلَانِ صَقَلْتَهُمَا قُرُونٌ مِنَ الْعَوَاصِفِ وَسَكُونِ الرِّيحِ. كَانَ
عُمُرِي خَمْسِينَ سَنَةً، وَرَاشِدٌ يَكْبُرُنِي بِسِتِّ سِنَوَاتٍ. كُنْتُ
مَفْتُونًا بِشَخْصِيَّتِهِ. كَانَ لَهُ أَنْفٌ كَالسِّيفِ، وَعَيْنَانِ سَوْدَاوَانِ
نَافِذَتَانِ، وَشَفَتَانِ رَقِيقَتَانِ، وَلِحْيَةٌ رَمَادِيَّةٌ. جَعَلَنِي أَفْكَرٌ فِي
صَقْرِ.

بَدَأْتُ الْكَلَامَ مَعَ كَامِلِ الْإِحْتِرَامِ الْوَاجِبِ لِمَنْ يَكْبُرُنِي فِي
السَّنِّ، مَدْرِكًا أَنَّ مَا يَجْرِي هُنَا كَانَ يَشْكَلُ لِحِظَةً تَارِيخِيَّةً.
كَلَّمْتَهُ. وَضَعْتُ حُلْمِي فِي رَاحَةِ يَدِهِ. تَقَبَّلَهُ. عَلَيَّ الْفُورُ.

الصَّعُوبَاتُ التَّالِيَةُ كُنَّا نَعْرِفُهَا. كَانَتْ هَائِلَةً، لَامْتِنَاهِيَّةً. لَكِنْ
بَدَأَ لِي أَنَّ الشَّيْخَ لَا يَخْشَاهَا. كَانَ بَيْنَنَا نِزَاعٌ حَوْلَ تَعْيِينِ

حدودنا المشتركة، حدود لم يسبق أن حُدِّدت، وخلافات متعلّقة بحدود المناطق النفطية.

اقترحت تسوية وتنازلت عن حقل بحريّ للنفط مهمّ. قدّرت أن هذا في مصلحة الجميع. أليس المجموع سيكون جزءاً من كلّ؟ عرضت أيضاً تمويل عدد من مشاريع البنية التحتية في دُبي، وبناء طريق إسفلتي يصل بين إمارتين.

وافق الشيخ راشد.

امتدت محادثاتنا إلى وقت متأخر، حتى جاءت لحظة طرح السؤال: مَنْ منا نحن الاثنان سيكون رئيساً لهذه الدولة المستقبلية؟

- أنت! قلتُ على الفور للشيخ راشد. أنت الأكبر سنّاً.

توالت حَبّات سبّحته. ابتسم. هزّ رأسه الأشبه بالصقر.

- لا. أنت.

رفضت بإصرارٍ.

أصرّ هو أيضاً.

بدا لي أن الأمر لن ينتهي أبداً.

لَمَّا أيقنت أن لا سبيل لإقناعه، انتهيت أنا بالقبول.

- مُدِّ لي يدك، طلب مني الشيخ راشد، صافحني.

صافحته.

في تلك اللحظة أبصرت الإمارات العربية المتحدة النور.

أسئلة الفصل الثالث عشر

1. ما رأيك في تأثير الوحدة إيجابا أو سلبا على الإنسان حسب ما ورد في النص؟ أبد رأيك معلا.
2. أين تتجلى علاقة الإنسان بالمحيط من حوله حسب ما ورد في النص؟
3. علام يدل قول الكاتب على لسان الشيخ زايد- رحمه الله - : « مررت بلحظات ضعف، عرفت الشك ونفاد الصبر، والضيق... لا. لست كائنا كاملا. الكمال لله وحده»؟
4. كيف واجه الشيخ زايد- رحمه الله - خبر مغادرة الإنجليز من الشرق الأوسط؟
5. كان للشيخ زايد- رحمه الله - اهتمام بالشعر، قدم مثالا مبينا دلالاته ومعناه.
6. « إن كان الظلم أخرس، فالعدل ناطق» اشرح وعلل.

7. تحدث النص عن حب الخيل والعلاقة بينها وبين البشر،
أبرز ذلك مبينا دلالاته وأبعاده.
8. لماذا تعد الوحدة قوة والتفكك ضعف؟ حلل وناقش.
9. أين التقى الشيخ زايد والشيخ راشد - رحمهما الله - ،
للتأسيس للاتحاد؟ ولماذا تم اختيار ذلك الموقع؟
10. صف ملامح الحوار الذي دار بين الشيخ زايد والشيخ
راشد - رحمهما الله - لوضع يد أحدهما في يد الآخر
لتأسيس دولة تعانق الفضاء.

14

- سموك، هل تعتزم تحويل الصحراء
إلى غابة؟

بعد أن قامت طائرة سلاح الجو الملكي ذات المحرّكين بدورة كبيرة في الفضاء أخذت سَمَتَ مدرج مطار البطين الجديد وشرعت في الهبوط تحت سماء بديعة الزرقة. سارت على المدرج بضع دقائق قبل أن تتوقف على مسافة أمتار من المكان حيث كنت.

كنا في 17 ديسمبر 1969. وكان الطقس لطيفاً. قُدّم جسر النزول. فُتِح باب الطائرة، وبدأت قامة أخي، شخبوط، النحيلة. تسارعت نبضات قلبي. لوّحت له بيدي فلوّح لي. أشرق مُحيّاه عندما رأى الحشد الكبير الذي جاء لاستقباله. زهاء أربعة آلاف رجل أتوا بالشاحنات من العين ومن ليوا. لم يسبق الإعلان عن قدومه غير أن الخبر تسرّب رغم الكتمان.

وطئت قدماه الأرض التي كان قد غادرها قبل ثلاث سنوات.

تقدّمت خطوة نحوه لكي أحتضنه، لكن فات الأوان. تدفّق الحشد كالسيل متجاوزاً الشريط الأمني وتزاحم العشرات حول شخبوط. بعضهم حاول تقبيل يده، وآخرون طوّقوا عنقه بأكليل الزهور. خشيت أن تأتي اللحظة التي يصاب فيها بالدوار ويسقط أرضاً من زحمة المستقبلين.

كان من حُسن الحظ أن تدخّل المسؤول عن الأمن والشرطة فأحاطوا بنا وأوصلونا إلى قاعة الشرف في المطار، غير أن حماسة الناس لم تهدأ. بلغ ببعضهم الأمر أن حطموا النوافذ الزجاجية، وكاد الباب يهوي من عنف ضرباتهم.

أظن أن الإنجليز الذين رأوا المشهد تخيّلوا أن مظاهر الابتهاج هذه تدلّ على أن الشعب يرغب في أن يستعيد شخبوط موقعه في قيادة البلاد وأن أستقيل أنا. كانوا مخطئين. كيف السبيل إلى إفهامهم؟ كيف نفسر لهم أن ولاء قومنا لشيوخهم راسخ في وجدانهم منذ القدم وهو أحد المظاهر الأساسية لتقاليدنا. كيف نوضح لهم أننا، وإن كانت بلادنا قد انزلت في القرن العشرين، نبقى قبل كلّ شيء بدواً بالمعنى

الأسمى للكلمة. هذا ما كنتُ حاولت أن أنقله إلى ثيسيغر.

أخيراً تمكنا من مغادرة المطار تحت حراسة مشددة ومضينا في الطريق إلى العين. تحسباً لعودة أخي ذات يوم كنت قد أمرت ببناء مسكن يليق به في العين على مقربة من حصن المويجعي يحتوي على كل وسائل الراحة. حرصت على أن يكون أخي مكتفياً ذاتياً ومتمتعاً بملء الحرية ويعيش بيننا كما عاش من قبل. عائلتنا، وأنا شخصياً، لم نقرر عودته إلى البلاد ليعيش منعزلاً أو مجرداً من الامتيازات التي كان يتمتع بها.

بينما كنا نأخذ مقاعدنا في قاعة الطعام علق شخبوط على ما كان قد رآه ونحن في الطريق وقد ارتسمت على شفثيه ابتسامة تدقّ عن الوصف وتشعّ بالدهاء:

- أرى أن الأوضاع تغيّرت منذ ذهابي...

أومأت برأسي أن نعم.

- طرق، مبانٍ...

- مستشفيات، مدارس... وقريباً التلفزيون. من المقرر أن

يبدأ البث في أغسطس المقبل، إن شاء الله. أتذكر أنك كنت
تحب أن تشاهد مسلسلات عندما كنا في لندن.

- لديك ذاكرة جيدة، يا أخي، لكن طمئني.

- نعم؟

- أرجو ألا تكون قتلت كل الصقور!

ضحكت من كل قلبي.

- لا واحد منها! اطمئن.

تنهد.

- إذن، كل شيء على ما يُرام.

نظرت إليه بعاطفة صادقة.

- اشتقتُ إليك يا أخي، اشتقنا إليك.

- اشتقتُ إليكم أنا أيضاً. لا البحرين ولا بيروت لهما

سحر أرضنا.

قدم لنا خادم طبقاً من التمر. تناول شخبوط تمرّة وقال:

- ما من تمر في العالم يضاهي تمرنا.

صبّوا لنا القهوة.

وضع خادم آخر أمام أخي طبقاً مليئاً بالمُحَلَّى، وهو نوع من الفطائر أساسه طحين القمح الكامل. كنت أعلم أنه مولع به.

بادرته بملاحظة:

- أعلم أنك لا تأكله إلا في الفطور، لكن أظن أنك تفتقده.

حني رأسه مبتسماً.

- أشكرك.

بعد برهة من الصمت، قال بوقار مفاجئ:

- بلغني أن الإنجليز يعتزمون الرحيل.

- صحيح. خزائهم فارغة. لم تعد لديهم الإمكانيات الضرورية للمحافظة على قواعدهم العسكرية في الخارج. لكن تصوّر أنني استقبلت في الأسبوع الماضي مبعوثاً لإدوارد

هيث، زعيم حزب المحافظين. قابلته منتصف الليل مع
نشيبى...

- نشيبى؟

- مترجمي. يعتقد السيد هيث أن حزب العمال سوف
يخسر الانتخابات المقرر إجراؤها العام المقبل وأنه سَيُعَيِّن
رئيساً للوزراء. وإذا ما حصل ذلك فإن بريطانيا يمكن أن تعيد
النظر في قرارها وتُبقي على حضورها في بلادنا.

- بماذا أجبته؟

- بأنني متأثر جداً، لكن فات الأوان، للأسف، ذلك أننا
نعمل على إقامة اتحاد كبير.

تناول شخبوط تمرّة أخرى.

- نعم. لقد أُحِطْتُ علماً بمشروعك وأنا أؤيِّده. مشروع
جميل لكنه لن يكون سهلاً، تعلم ذلك. إقامة دولة واحدة،
لها سياسة واحدة ودفاع مشترك، ولها، كما أتخيّل، عملة
موحّدة، لن تتحقق من دون أن تعترضها مصاعب هائلة.
ولا ننسى ضرورة حل نزاعاتنا الحدودية القديمة، وتقاسم

السلطات، واختيار عاصمة الاتحاد. إنك تتصدى لمشروع ضخمة.

- لستُ وحدي. أحظى بدعم كبير من الشيخ راشد.

- شخصية نبيلة كما عهدناه. نُميَّ إليَّ أنك تنازلت له عن أجزاء من أرضنا، هل هذا صحيح؟

- لِنَقُلْ إنني أجريت تعديلاً لحدودنا. يجب أن نعرف كيف تبدو كرماء لكي نُقابَل بالمثل وكل التزام تنشأ عنه تسويات. ماذا نختار؟ من جهة العناد الذي يحافظ على الصحراء، ومن جهة ثانية احتمالات تحويل الصحراء إلى أرض خصبة. لقد اخترت. وهذا التنازل لم أقدمه لأي شخص كان. قدمته للشيخ راشد، الرجل الصالح الذي أعرفه كما أعرف نفسي. ثم إنني ما زلت آمل في انضمام الآخرين إلينا. منذ بضعة أشهر ذهبت إلى قطر في محاولة لوضع حد لخلافاتنا. وفي هذا السياق ذهبت إلى أصدقائنا في البحرين وتباحثت مطوّلاً مع شيخها. لم أفقد الأمل في إقناع هذين البلدين بالانضمام إلينا.

رشفت جرعة من القهوة وسكت.

كان قد انقضى عام على لقائي مع الشيخ راشد في الصحراء ولم يحدث شيء مما كنت أتوقعه. المؤتمر الأول الذي جمع الإمارات التسع في دبي أوحى بصدق الآمال المنعقدة عليه. غير أن المؤتمر الثاني كان محبطاً بالنسبة إليّ. بدأت الشكوك تكشف عن نفسها ولا سيما من قبل قطر التي لديها خلافات حدودية مع البحرين. وهذه الأخيرة كان شاه إيران يهددها بإجراءات انتقامية إذا ما انضمت إلى اتحادنا، علماً بأن إيران لم تتخلّ يوماً عن اعتبار البحرين بمثابة «المقاطعة الرابعة عشرة» التابعة لها. علاوة على أنها تدّعي ملكيتها للجزر الثلاث أبو موسى، التي تعود إلى الشارقة، وطنب الكبرى وطنب الصغرى، اللتين تعودان إلى رأس الخيمة.

يضاف إلى ذلك ألف عقبة وعقبة متداخلة أشبه بكبة غزل من صوفٍ خيوطها متشابكة وغير قابلة للحلّ. كان حلمي في مازق.

قال شخبوط:

- أشعر بأنك قلق.

- أنا قلق فعلاً وأشعر بمسؤولية كبيرة.

- حَلّ مشكلات بلد واحد من الصعوبة بمكان وحلّ مشكلات تسعة بلدان أصعب بكثير.

مال نحوي ونظر إليّ مطوّلاً.

- لقد اتّخذت القرار، يا أخي، ولا يمكنك إلا أن تنجح.

* * *

لندن، يوليو 1969

كان حوالي مائة مدعوّ مجتمعين في قاعة الطعام الفسيحة في قصر باكنغهام. قدّرت بلمحة أن الطاولة التي تتخذ شكل U طولها نحو خمسين متراً. أضواء خفيفة الوهج، وباقات من الزهور. قالت لي الملكة إليزابيث الثانية الجالسة بجانبني إنّ صحون الخزف الصيني التي كُنّا نتناول بها الطعام كانت قد صنّعت للملكة فيكتوريا خصيصاً. وعلى طول الجدران صُفّت موائد تبهر الضيوف بما عليها من أدوات مشغولة بالفضة المذهّبة. كنز مؤلف من أربعة آلاف قطعة بمقاييس متنوّعة: صحون، حَسائيات، شمعدانات، وغيرها من القطع الأساسية،

أعلمتني الملكة أنّها صُنعت في القرن التاسع عشر خصيصاً
للملك جورج الرابع. فكّرتُ: يؤخذ علينا، نحن العرب،
إسرافنا في إظهار الترف والأبهة في حفلات الاستقبال،
والحال أنّ ليس لدينا ما يحسدنا عليه الإنجليز والفرنسيّون في
هذا المجال. أنا لا أحبّد مظاهر البذخ. لو خيّرْتُ بين أكلاتنا
الشعبية وبين ذهب الولايم الرسمية لما تردّدت في اختيار
الأولى.

على مقعد مرتدّ إلى الخلف قليلاً، بيني وبين الملكة، كان
ترجماني نشيبي يجهد كي لا يفوته أي مقطع من المحادثة
التي أجريها معها منذ بداية المأدبة. لقد اعتدت على رؤيته إلى
جانبي كلما كنت مع محاورين أجنب، حتى عندما يكون
لدى البلد الذي يستقبلني مترجم - كما في ذلك المساء.
نشبي عربيّ يعرف دقائق المعاني في لغتنا، وكنت مطمئناً.

في قائمة الطعام: فطائر السلمون، كرات من لحم الضأن،
كوسى صفراء وخضراء محمّرة، تفاح برّي، سلطة. ومن باب
الاحترام كان اللحم حلالاً.

أسرّ إليّ مدير المراسم، كمن يُفضي بسرّ دولة، ببعض
عادات الملكة: في الساعة السابعة والنصف صباح كلّ

يوم توقظها وصيفتها، وذلك بأن تفتح ستائر الغرفة الملكية وتنسحب بصمت. بعد ذلك تقدّم للملكة على صينية من فضة طعام الفطور: إبريق شاي «إيرل» ساخناً وكوباً من عصير البرتقال. ودائماً من دون أن تنبس بكلمة. تكره الملكة الثوم، وتحسّي بطيبة خاطر النيذ، والجين أو المارتيني. وهي مولعة بكعك الزبيب والشوكولا. أثناء مأدبة رسمية، عندما تنتهي من ابتلاع لقمتها الأخيرة لا يُسمح لأحد من الضيوف، حتى عن عدم انتباه، بمواصلة الأكل. المأدبة تتوقف هنا.

بينما كانت الملكة تشرح لي بلطف وبأدق التفاصيل قصة الملاعق والشوك والسكاكين والأواني المصنوعة من الخزف الصيني. كنت مأخوذاً بذلك التوقيع المختصر بالأحرف الأولى E I I R على الكؤوس. وانتهى الأمر إلى أن سألت جاري الآخر إلى الطاولة، الذي ما عدت أذكر اسمه، إلام ترمز هذه الأحرف، فهمس لي: الملكة إليزابيث الثانية.

طال أمد العشاء، ونال مني العناء.

صبيحة اليوم التالي ذهبت، كما يقتضي التقليد، إلى دير وستمنستر لأضع باقة من الزهر على ضريح الجندي المجهول. ظهراً، كان رئيس الوزراء، هارولد ويلسون، ينتظرني للغداء

في مقره 10 شارع دُونِنغ⁽¹⁾. عصراً في تمام الساعة الخامسة، كنت مدعوّاً إلى قصر كلارنس هاوس⁽²⁾ لاحتساء الشاي مع أمير الغال⁽³⁾ ودوقة كورنوال. في الغد، الساعة التاسعة، اجتماع عمل مع وزير الخارجية مايكل ستيوارت ووزير الدفاع دينيس هيلي.

- سموّك، هل تعتزم تحويل الصحراء إلى غابة؟

ابتسمت لملاحظة الملكة، للوهلة الأولى اعتقدت أن هذا السؤال لم يُطرح إلا لإذكاء المحادثة. كنت مخطئاً. نبرتها تشي باهتمام حقيقي.

- قد لا تكون الصحراء كلها، جلالتك. غير أنني سأكون سعيداً إذا ما نجحت في تشجير جزء منها.

- كم شجرة زرعتم حتى الآن؟

(1) Downig Street 10. المقر الرسمي لرئيس الوزراء البريطاني ومكتبه. (م.م.)

(2) Clarence House. القصر الملكي في لندن بين 1953 - 2002 كان مقراً للملكة إليزابيث وقد تحوّل بعد ذلك إلى المقر الرسمي للأمير ويلز ودوقة كورنوال. (م.م.)

(3) لقب وليّ العهد ودوقة كورنوال لقب زوجته. (م.م.)

- بضعة آلاف.

- من أيّ الأصناف؟

- النخيل أساساً ثمّ الغاف والقرم.

- رائع. وسوف تتابعون، على ما أظنّ؟

- طبعاً، جلالتك.

- بضعة آلاف زيادة؟

- بضعة ملايين.

ردّدت بارتياح:

- بضعة ملايين؟

أكدتُ.

تنحنحتُ.

- الأشجار تحتاج إلى ماء، تعلمون ذلك طبعاً. يبدو لي

أنكم تفتقرون إلى الماء بشدة. ماذا ستفعلون؟

- ببساطة، سوف نستخدم المياه المعاد تدويرها. نعمل حالياً على ذلك.

- عمل عظيم.

- هل تشرفيننا بزيارة ذات يوم؟ هكذا تستطيعين أن تعائني النتيجة بنفسك.

- سأكون سعيدة.⁽¹⁾

الساعة العاشرة والنصف، أعطى زمّارو القربة الإشارة إلى نهاية الوليمة. لكن كنت أعلم أن القهوة والحلويات الصغيرة تنتظرنا في قاعة الموسيقى. السهرة لم تنته بعد.

في هذه الأثناء اقترب مني رجل وامرأة. هو سِتّيني وهي أصغر ببضع سنوات. كانت ترتدي من الثياب ما لا يمكن أن ترتديه إلاّ الإنجليزيات: فستاناً أصفر فاقعاً، وقُبّعة عالية عريضة الحوافّ مزدانة بزهرة من نسيج أخضر على الجانب.

قدّم الرجل نفسه على أنه اللورد بايلي وزوجته الليدي هنرييت. وأوّل سؤال طرحه هو:

(1) «I will be delighted».

- أنا مطّلع على مشروعك بشأن الاتحاد. هذا هدف طموح. لكن كيف ستتمكن من إقناع هذه القبائل التي لكلّ منها عاداتها وتقاليدها وآلهتها؟

نشيبى الذي يتبعني كظليّ كاد يختنق. لبث بضع ثوان قبل أن يترجم ما قاله الرجل محاولاً إخفاء انزعاجه.

- آلهتهم، يا لورد بايلي؟ لا أفهم معنى سؤالك. يوجد إذن آلهة متعدّدون؟

- لا. ليس عندنا، في الغرب. لكن يبدو لي أن في منطقتكم عدة آلهة...

- لكن، يا سيّد، لم يعد العرب وثنيّين منذ زمن بعيد. بالمناسبة أودّ أن أزفّ إليك نبأ ساراً: إلهنا هو إلهكم نفسه.

- إلهنا نفسه؟ قالت المرأة جاحظة العينين من الدهشة. تبادلت نظرة من طرف العين مع نشيبى الذي زمّ شفّتيه لئلا ينفجر بالضحك.

- نعم، سيدتي. الله واحد. ونحن جميعنا عيال الله، سواء ولدنا في العين أو في لانكاشير. نحن أفراد عائلة واحدة.

كلّنا.

- الـ... إين؟ برطم اللورد. أين تقع؟

- في مكان رائع من بلادي. أدعو كما بحرارة لزيارتها.

وجّهت الكلام إلى المرأة مع ابتسامة لطيفة.

أثناء صعودنا إلى سيارة الرولرويس الموضوعة في
تصرّفنا، قلت لنشيبى:

- ما أغرب الناس! أتساءل إن لم يكن تحويل الصحراء
إلى غابة أقلّ تعقيداً من إفهام أهل الغرب من هم العرب حقاً.

لدى وصولنا إلى بهو الفندق كانت تنتظرنا مفاجأة. رأينا
مجموعة من الناس، وكذلك بعض أعضاء وفدنا، واقفين
كالمسمّرين أمام تلفاز.

اقتربنا منهم.

تظهر على الشاشة صورة مشوشة بالأسود والأبيض لرجل
يرتدي ما يشبه سترة الغواص وهو يتحرك بتثاقل كما في فيلم
بطيء وسط بيئة قاحلة وصحراوية. على خلفية الأزيز ارتفع

صوت الرجل قائلاً:

- خطوة صغيرة للإنسان، خطوة كبيرة للإنسانية.

أحد حراسي استدار نحوي مدعوراً:

- يا طويل العمر، هذا مستحيل، هذه كذبة. لا أحد يستطيع الذهاب إلى القمر. الله لا يسمح بالصعود إلى السماء.

هزرتُ رأسي وفكرت: في النهاية لكل امرئ أفكاره الجاهزة وقناعاته. بين هذين الزوجين الإنجليزيين وحارسي صلة هي الجهل. لو كان عندي أدنى شك في فائدة التعليم لبدّده هذا النوع من الملاحظات.

أجبت:

- أليس الله هو الذي خلق الإنسان؟ خلقه ووهبه الذكاء والعلم وبالتالي منحه القدرة على القيام بكل عمل باهر.

كنا في 29 يوليو 1969.

أسئلة الفصل الرابع عشر

1. بم يتميز ولاء البدو لشييوخهم حسب النص؟ صف كيف كان الاحتفاء باستقبال الشيخ شخبوط - رحمه الله - بعد عودته من البحرين؟
2. صف مشاعر الأخوة الصادقة في استقبال الشيخ زايد - رحمه الله - لأخيه، ماذا نتعلم من هذا السلوك؟
3. لم برأيك كان اهتمام الشيخ زايد - رحمه الله - كبيرا بالتشجير؟ ولم الاهتمام بنوعية معينة منه؟ علل.
4. كيف كانت الإجابة عن أسئلة هوية العرب؟ وهل برأيك السؤال كان مريحا للمترجم؟ لو كنت مكان المترجم كيف سيكون شعورك؟
5. «خطوة صغيرة للإنسان، خطوة كبيرة للإنسانية» اشرح العبارة وبين رأيك فيها.
6. ختم الفصل بأسئلة جميلة ومعان راقية، حددها مبديا رأيك.

15

التاريخ لا يحب الجمود.

أكتوبر 1970

حَبِسْتُ دموعي طوال مراسم التشييع.

حَبِسْتُ دموعي حتى كدت أختنق.

العائلة كلها كانت هناك مشكّلة جداراً من الأجساد حول الحفرة. وكان هناك أقارب وأصدقاء، من بينهم ذاك الذي كان قد أصبح صديقي، فارس.

أتى الموت ليلاً واختطف منا أمنا، سلامة.

لم تكن واحدة من تلك النسوة المثقفات، المدجّجات بالشهادات، لكنها كانت تمتلك الميزة الاستثنائية التي يخصّ

بها الله بعض خلقه: كانت تعرف من دون أن تتعلم وتدرک
المعنى الحقيقي لكلمة عائلة. يشهد على ذلك القسم الذي
طلبت منا أن نؤديه أمامها قبل سنوات:

«احلفوا، يا أبناءى، احلفوا ألا تقتتلوا، احلفوا ألا يسفك
أحدكم دم الآخر!».»

لا أحد منا نسي ذلك القسم.

لحظة مغادرة المقبرة، وفي تداع للأفكار غير قابل
للتفسير، تذكّرت أن والدتي رحمها الله كانت تحب اللوز
والجوز والفسق، فدعوتُ الله راجياً أن يجعل مقامها في
العليين ويرزقها الفردوس الأعلى. وفي اللحظة ذاتها تذكّرت
والدي رحمه الله ورددت الآية الكريمة: «وَإِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ
الدُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا»⁽¹⁾.

انسابت سنة أخرى في الساعة الرملية.

واصلتُ معركتي.

(1) سورة الإسراء، الآية 24.

معركة عنيدة، بلا سلاح، لكن ما أصعبها، هل من مهمّة أكثر تعقيداً من مهمّة إقناع العقول؟ كلّ تغير يُسخط العادات، في حين أن التاريخ يُثبت لنا كلّ يوم أن النظم والكائنات مآلها الاندثار، آجلاً أم عاجلاً، إن لم تتطوّر. التاريخ لا يحب الجمود.

يشهد الله أنني كنت أتقدّم بحذر، مراعيّاً الحساسيات، محترماً إرادة الجميع. كنت أعتقد أن لا مناص من إفساح المجال أمام كلّ مسؤول لكي يتخذ القرار الذي يناسبه. ولقد بذلت ما في وسعي لئلا أفرض وجهة نظري على الآخرين. وبكلّ ما أوتيت من قوة عملت على قيام اتّحاد واسع يضمّ البحرين وقطر أيضاً. لكن، ويا للأسف، كان لا بدّ لي بمرور الوقت من أن أذعن للأمر الواقع: هذا مطلب غير واقعي. ما كنت أتطلّع إليه كان نجماً يتعدّر بلوغه. كان النقاش يدور حول المكاسب والامتيازات العائدة لكل بلد في إطار الاتّحاد. ولا ريب في أن من بين ما كان يؤخذ عليّ استعجالي قيام الاتّحاد، والدخول في سباق ضد عقارب الساعة، والدفاع عن فكرة تشكيل قوة عسكرية مشتركة تنتظم تحت راية واحدة بقيادة موحّدة.

عرفت لحظات من الإحباط وساعات من عدم اليقين.
- تشجّع، يا زايد، لا تستسلم. حاول أن تتفهّم مخاوفهم.
ما زلت أسمع صوت فاطمة. وسأظلّ أسمعه ما دمت
حيّاً.

- مخاوفهم؟ ممّ يخافون؟

- إنهم بدؤوا فخورون معتادون على السيادة، وعلى التحكم
بمصائرهم. وأنت تطلب منهم أن يتخلّوا بين ليلة وضحاها
عمّا اعتادوا عليه ويتمسكون به منذ ولادتهم. أنت تركّز على
ما يوحدهم وتنسى ما يفرّقهم. لا يمكن أن تُلغي بضربة واحدة
من عصا سحرية قروناً من المنافسة والغيرة.

- إذن، ماذا عليّ أن أفعل؟

- استمِرّ، طمئنْ، وزرّع.

- تخيّلني إنساناً كلّ عضو فيه، الذراعان، اليدان، العينان،
الساقان، ينشط على هواه. سيكون كائناً مفكك الأوصال
عاجزاً عن الدفاع عن نفسه. الحلُّ القابل للحياة هو التخلّص
من الأنانيات والمصالح الشخصية.

كانت فاطمة تصغي إليّ بأناة. وكانت معرفتي بأنها
تصغي إليّ تريحني.

منذ بعض الوقت بلغت السابعة والعشرين من العمر.
وكانت تخوض من جانبها معركة، لكن في مجال آخر. هي
أيضاً دخلت في مواجهة مع التقاليد الموروثة. كانت تخوض
معركة عنيفة من أجل تعليم الفتيات. وكانت تزور المدارس،
والعائلات، وأنشأت جائزة للتفوق. وقدمت منحة للتلاميذ
الذين يحصلون على نتائج باهرة في الامتحانات. وقد بلغ عدد
الفائزين بهذه المنحة أكثر من 250 تلميذاً.

أخيراً، وقع ما كنت أخشاه: مع بالغ أسفي، أعلنت
البحرين انسحابها من الاتحاد وطالبت بالاستقلال. وحدث
قطر حذو البحرين.

انتهى مشروع الاتحاد بين الإمارات التسع ولم يعد يفصلنا
عن الانسحاب البريطاني سوى بضعة أشهر.

استمرّ، طمئن، وزّع، كانت قد نصحتني فاطمة.

في الثامن من يوليو 1971 قرّرتُ إنشاء صندوق تنمية
برأسمال أولي من عدّة ملايين. هدفي من وراء ذلك إثبات

أن بلادي مستعدة للإسهام في رفاهية كل أعضاء الاتحاد
المنشود.

كلهم بلا استثناء.

في الثالث عشر من الشهر نفسه قدّرت أن الوقت حان
للانتقال إلى التصويت: إما قيام الاتحاد بدعم اقتصادي وأمني
من قبل بلادي، وإما أن نمضي، أنا وشعبي، في طريقنا الخاص.
ولأسباب تفهّمها كان الشيخ صقر، حاكم رأس الخيمة، هو
الوحيد الذي لم ينضمّ إلى الاتحاد.

اقتصر الاتحاد على ست إمارات. تمّت صياغة دستور
مؤقت ينصّ، من بين أمور أخرى، على أن الرئيس يُنتخب
بالإجماع لخمس سنوات قابلة للتجديد.

بعد ستة أشهر، في الثاني من ديسمبر 1971، رُفع علم
الدولة الجديدة للمرة الأولى على مقرّ إقامة الشيخ راشد في
جُميرا بدُبي: ثلاثة مستطيلات أفقية، ومستطيل عمودي.
المستطيل الأسفل لونه أسود، والأوسط أبيض، والأعلى
أخضر، والمستطيل العمودي لونه أحمر. وهي ترمز إلى
الوحدة العربية.

حيث إحدى وعشرون طلقة مدفع انتخابي رئيساً للاتحاد
وانتخاب الشيخ راشد نائباً للرئيس، وللمرة الأولى أيضاً عزف
نشيدنا الوطني على الآلات من دون الكلمات التي أضيفت
في ما بعد.

لكن، منذ صبيحة الغد كان علينا أن نواجه مشكلة ضخمة:
لقد أسسنا دولة، لكنها من دون ملاك بشري قادر على
إدارتها، ولا دبلوماسيين لتمثيلها في الخارج. لقد بنينا مدارس
تضم آلاف الطلاب لكنّ أيّاً منهم لن يكون مؤهلاً لتولي
الوظائف الإدارية قبل عدة سنوات. لذلك وجّهنا، أنا والشيخ
راشد، نداءً إلى كلّ من تتوفر فيهم المؤهلات الضرورية.
كان معظمهم يعيش في الخارج. بعضهم في مصر، وبعضهم
في لبنان، أو في الأردن أو في لندن، وحتى في الكويت. وقد
ردّوا بالإيجاب من دون معرفة ما كنّا ننتظر منهم. وأعترف
بوقوع فوضى إلى حد ما في هذا المجال.

بقي علينا القيام بمسعى أخير: طلب قبول دولتنا عضواً
في منظمة الأمم المتحدة. في التاسع من ديسمبر قبل طلبنا.

بعد أشهر عديدة قمت بزيارة رسمية إلى نيويورك وهناك

رأيته: رأيت علمنا يرفرف على ساريتته بين أعلام 193 دولة أمام مقر المنظمة الدولية على ضفاف النهر الشرقي. تراءت لي صور مشرقة وذكريات أيضاً: ذكرى جدّي، زايد الكبير، الذي قاتل قبل قرن ونصف القرن لتوحيد القبائل، وتحويل كلّ تباعد إلى قُربى. فكّرت في مسقط رأسي، العين، وفي أبي سلطان، وأمّي سلامة، وأخي شخبوط، وأبنائي، وأبنائهم، وأحفادهم. فكّرت في جميع أبناء الإمارات.

العين، الأسبوع الأول من يناير 1972.

مفتوناً، أتأمل مجموعة الصبايا اللواتي يُغنين وهنّ يحكّن خيوط الصوف. صوف بألوان طبيعية، أسمر، أبيض، أحمر، كان قد جزّه الرجال لهنّ. يصنعنّ منه كما يحلو لهنّ، ملابس، ومخدّات، وسجّاداً، وأحزمة للجِمال. بعض النماذج يحاكي تماوج الكثبان الرملية، وسعف النخيل، والأزهار، أو رسوم جمال، وآيات قرآنية. وهذا الفنّ يدعى السّدو وهو حرفة تقليدية موغلة في القدم.

اقتربت منهنّ، وجلست.

وراء براقعهنّ تخيّلت أن شفاههنّ تفتّر عن ابتسامة، بينما
ألمح في عيونهنّ المكشوفة وميضاً مُشرباً بالاحترام والموّدة.

بعض هؤلاء النسوة، الأكبر سنّاً، عرفنني وأنا طفل. كنّ
يؤلّفن جزءاً من حياتي وحرّكاتهنّ كانت تهددنني. أصابعهنّ
المصبوغة بالحناء كانت في نظري من رموز وجودنا البدويّ.

بقيت أراقبهنّ لمُدّة طويلة. شعرت بأنني في حالة جيّدة.
هادئ وصافي الذهن. إقاماتي هذه في العين تُتيح لي استعادة
الصفاء وتذكّرني، إذا ما حدث أن نسيت لسوء الحظ من أنا
حقاً ومن أين خرجت.

رأيت أشياء كثيرة في أصابع هؤلاء النسوة اللواتي ينسجن.
رأيت فيها لون الزمن الذي يمرّ سريعاً ولون طفولتي. رأيت
بلادي وأخواتها: الإمارات. ألم تكن شبيهة بخيوط الصوف؟
لكلّ خيط لونه الخاص، لكن حالما تنتهي الحياكة تُشكّل
وحدة، متعدّدة الألوان، وواحدة.

تلك الليلة فضّلت قضاء الليل في دار أخي. لم أره منذ
مدّة طويلة. واشتقت إليه. تعشّينا وتحدّثنا طويلاً. تحدّثنا عن

المستقبل. عن العالم الذي لا يكفّ عن الاضطراب. كان شخبوط مطّلعاً على كلّ ما يحدث: حرب فيتنام التي لا تنتهي. فضيحة ووترغيت. محاولة الانقلاب العسكري التي قام بها ضباط من الجيش المغربي ضد الملك الحسن الثاني. المجازر الرهيبة التي ارتكبتها الجنرال عيدي أمين دادا في أوغندا. وعندما تطرّقنا إلى الاحتفالات الفخمة التي رعاها الشاه في مناسبة مرور 2500 سنة على قيام الإمبراطورية الفارسية كان له هذا التعليق الذي فاجأني كثيراً لفرط ما بدا مُنذِراً.

لقد أصاب. في الثامن عشر من يناير 1979 غادر الشاه إلى المنفى. لكن، قبل ذلك استغلّ الفراغ الذي تركه انسحاب البريطانيين فأرسل كتيبة احتلت ثلاثاً من جُزرنا. ملف القضية لم يغلق بعد، هو الآن في عُهدة محكمة العدل الدولية.

- هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالاً؟ قال أخي فجأة.
هل تعتقد أنني أخطأت في لجم التقدّم؟

- لقد عملت ما رأيت أنه الأفضل لبلادنا وانسجاماً مع قناعاتك.

افتّر ثغره عن ابتسامة.

- في النهاية، يا زايد، من هو الحاكم الجيد؟ فيم يُعدُّ ناجحاً؟

- سؤال صعب. هل نحن كاملون؟ الكمال لله وحده.

- نعم، وأيضاً؟

فكرت للحظات قبل أن أجيب:

- أظن أن نجاح حاكم يُعرّف في ما يتركه وراءه، في قلب أناس آخرين، الاقتناع والعزم على متابعة ما بدأ به.

أطلق ضحكة صريحة.

- إذن، فاتني كلّ شيء. لقد عملت أنت نقيض ما ناديتُ به أنا.

- لا، يا أخي، لقد بدأت أنت كلّ شيء، مهّدت الطريق. الفرق هو كما في جري الفرس، أنت فضّلت الهوينى وأنا العدو السريع. ما أنا إلاّ متمم لك. لا أكثر.

قدّم لي قطعة من حلوى الخبيصة.

- أنت طيّب، يا زايد. أتمنى لك صادقاً أن تجد الشجاعة

اللازمة لتحقيق حلمك.

- إن شاء الله، لكن هذا ليس سهلاً. لا يمرّ يومٌ إلا
وتعترض طريقي عقبة جديدة.

- أعلم. فإنّ ذلك أمر طبيعيّ، و...

قطع حديثه صوت المؤذن للصلاة.

عندئذ نهض ومدّ لي يده.

- تعال، لنصلّ معاً. لا قوة إلا بالله.

أسئلةُ الفصل الخامس عشر

1. جاء في هذا الفصل: « اهلّفوا، يا أبناءّي، اهلّفوا ألاّ تقتلّوا، اهلّفوا ألاّ يسفك أحدكم دم الآخر!»، علام يدلّ طلب الأم ذلك من أبنائها؟

2. بين وظيفة الصور البلاغية في العبارات الآتية:

- «معركة عنيدة بلا سلاح»

- «هل من مهمة أكثر تعقيداً من مهمة إقناع العقول؟»

- «التاريخ لا يحب الجمود».

3. ورد في النص: « كان يؤخذ علي استعجالي قيام الاتحاد، والدخول في سباق ضد عقارب الساعة» وضح وظيفة التشبيه في هذه العبارة؟

4. كانت سموّ الشّيخة فاطمة - حفظها الله - مصدر طاقة إيجابية ودعم وتشجيع للشّيخ زايد - رحمه الله - في سبيل قيام الإتحاد، استخرج من النصّ ما يشير إلى ذلك.

5. جاء وصف الكاتب لخياط الصوف المعدّة للحياكة متوافقاً مع فكرة قيام الإتحاد، ما دلالة ذلك.

16

سبعة كعجائب الدنيا السبع، والقارات
السبع، والسموات السبع.

باكستان، يناير 1972

ما إن وطئت قدمي مدرج مطار إسلام آباد حتى انصرف
تفكيري نحو أخي هزاع. قبل ستّ وعشرين سنة أقلتنا سفينة
إلى هذا البلد قبل أن نساfer جواً إلى نيودلهي. هذه المرّة أقلتني
طائرة بصفتي رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة.

عجباً كيف أنّ بعض الأمكنة تكلمك وتبدو لك أليفة بعد
أن كانت مجهولة بالأمس. هذا على أي حال ما أحسسته
لدى اكتشافني باكستان. منذ ذلك الحين بقيت هذه البلاد
عزيزة عليّ. هكذا بقيت باكستان عزيزة عليّ.

لكن يجدر القول إن إسلام آباد مدينة مُحيرة حيث الشوارع والجادات تكاد تسحقها الحرارة وتجمع حروف الأبجدية بمعنى لا يعرفه أحد سواها.

مساء اليوم الذي وصلت فيه أقيم حفل عشاء رسمي تكريماً لي. على الرغم من الطابع الاحتفالي لهذا العشاء كان ثمة تباين مع الجو المتكلف في ولاءم قصر باكنغهام. حلّ لحم الغنم محلّ السلمون، والبرياني محلّ التفاح البري، ومحلّ الملابس الإنجليزية الرسمية⁽¹⁾ حلّ الشوريدار⁽²⁾ الأنيق ذو الألوان الزاهية.

كان معي نشيبي الذي لا يفارقني. جلست إلى يمين الرئيس ذو الفقار علي بوتو. حدثني بحماسة عن الآمال التي يرجو تحقيقها لبلاده. كان بصدد تطبيق ما أسماه «الاشتراكية الإسلامية» معتبراً أن تعاليم الإسلام متلائمة مع مبدأي المساواة وإعادة توزيع الثروات. ولتحقيق هذا الهدف يعتزم القيام بسلسلة طويلة من التأميمات ابتداءً بالبنوك والقطاع الصناعي. شخصياً كنت لا أشاطره وجهة النظر هذه فأنا بقدر ما أرى

(1) Smoking.

(2) Churidar. زيّ تقليديّ مؤلف من بنطال فوقه قميص طويل.

أن إعادة توزيع الثروات وتطبيق مبدأ الزكاة أمر ضروري، لا بل حيوي، أرفض مصادرة الملكية الخاصة، غير أنني أحترم وجهة نظره. ذكرني بأننا لا ننتمي إلى دين واحد فحسب بل إن دولتنا متشابهتان من حيث إنهما حديثتا الولادة؛ فقبل خمس وعشرين سنة لم تكن العاصمة الباكستانية موجودة ولم يكن فيها سوى الأعشاب الضارة ترعاها الجمال الجائعة. كان مُحَقَّقًا. لكن كيف ننسى أننا كنا في وادي السند ملتقى الحضارات العالمية منذ فجر التاريخ؟

في لحظة ما خاطبني رجل كان يجلس قبالي. لفتني فيه وجهٌ فتّي أسيل يخفي عمره الذي قدرته بحوالي أربعين عاماً. - سموك، اسمح لي أن أقدم نفسي، أنا محسن شاير، أستاذ العلوم الطبيعية في جامعة القائد الأعظم.

حيّته واضعاً يدي على صدري وانتظرت التتمة.

- سمعت أنك تهوى صيد الصقر. وهو شغفي أنا أيضاً. في صحراء غولستان في البنجاب مكان مشهور بالحبارى لكونه إحدى المحطات الإلزامية في هجرتها. هناك أيضاً أروع الصقور.

التمتعت عيناى. ما إن تُذكر هذه الكلمة حتى تستيقظ
حواسى كلها.

- ما اسم ذلك المكان؟

- رحيم يارخان.

التفتُ على الفور نحو مضيفى.

- سيادة الرئيس، بعد إذنك، هل يمكنى الذهاب إلى
هناك؟

كبَحَ على بوتو انتفاضة دعر صغيرة.

- لكن، يا صاحب السموّ، قال لى، لسنا فى فصل الصيد
الذى يبدأ فى أكتوبر وينتهى فى مارس، ونحن الآن فى يناير.

- لا يهَمّ، إن كنتُ قد فهمت جيداً يوجد هناك أجمل
الصقور.

- لكن المسافة بين إسلام آباد ورحيم يارخان زُهاء
تسعمائة كيلومتر.

- ساعة بالطائرة. لا شيء.

بدا الضيق على مُحَيَّا الرئيس.

- أنا مُحَرَج حَقاً. لا يوجد مطار في رحيم يارخان. ولا يمكن الوصول إليها إلا براً والطريق سيئة جداً.

- لعلك تُعيرني سيارة لاندروفر وبعض الخيم؟

- نعم، لكن المسافة تسعمائة كيلومتر، يا صاحب السموّ.

- أنت تكلم بدويّاً، سيادة الرئيس، عندما تقطع كيلومترات على ظهر الجمل تحت شمس حارقة ما قيمة بضع ساعات في السيارة؟

لبث بضع ثوان قبل أن يجيب:

- موافق. سوف نقدّم لكم المئّن والماء وكل المعدّات الضرورية. لكن لا بد من حراس يرافقونكم.

لم أُحبّد يوماً وجود حرّاس. الحياة والموت بيد العلي القدير يوزّعهما بمشيئته. لكن هنا لا خيار لي. وافقت.

أشرت بإصبعي إلى الأستاذ:

- هل تعرف المنطقة جيداً، دكتور شاير؟

- ولدتُ فيها.

- إذن، لعلّك تقبل أن تكون دليلنا.

- هذا شرف لي، سموّك.

ألقيت نظرة خاطفة على نشيبي. بدا المسكين مذعوراً.

بعد ثمان وأربعين ساعة، مع خيوط الفجر الأولى، بدأنا المسير يرافقتنا موكب عسكري اختيرت عناصره بدقة، ولا شك في أن من بينهم أفراداً من الحرس الشخصي للرئيس بوتو.

كانت الرحلة رائعة.

بين الفينة والفينة كان المشهد الطبيعي يتغيّر، يبدأ، أجّمت صمغية، نباتات مدارية، جبال قاحلة وعرة بألوان المغرة الحمراء. ومن حين إلى حين تظهر فجأة عند منعطف بيوت صغيرة مبنية بالآجر. أكواخ. قافلة جمال تسير وسط زوابع رملية ملتفة. وكلما اقتربنا من غولستان أصبحت الأرض أكثر وعورة. لا أذكر متى رأينا بناء ضخماً وصلباً مؤلفاً من نحو أربعين موقعاً محصّناً على ارتفاع حوالي ثلاثين متراً.

- هذه قلعة دروار، أوضح لي الأستاذ شابير، تحتوي على قبور أمراء مدينة باها ولبور، ولا يُعرف عُمرها. يؤكد بعضهم أنها بُنيت قبل أكثر من قرنين. فرادة هذه القلعة أنها بُنيت بآلاف مؤلّفة من قطع القرميد الصغيرة التي تم نقلها بواسطة سلسلة بشرية انطلقاً من مدينة أوش شريف على مسافة عشرات الكيلومترات. كان الرجال يمرّرون قطع القرميد باليد من أحدهم إلى الآخر على مدى أيام وأيام.

فكّرت: «لقد وهب الله للإنسان قدرات لامتناهية. يمكنه في الوقت ذاته أن يسير على القمر بواسطة التكنولوجيا الأكثر تطوراً، وأن يُشيّد مباني رائعة بأيدي عارية».

عندما وصلنا إلى رحيم يارخان كانت الشمس تغيب وراء الكثبان. صُدمتُ على الفور بجلبة عربات «التوكتوك» والدراجات النارية التي تسير في الشوارع سيراً مُتعرّجاً، والشاحنات المزينة بكثافة حتى لكأنها لوحات فنيّة على أربع عجلات. بدت لي المدينة فقيرة جداً ومن دون بنية تحتية أساسية. أمام البيوت تُرى نسوة منهمكات بالطبخ على نار الخشب، أو تطريز بياضات منزلية. وثمة رجال مسنون يستلقون على أسرّة من أطر خشبية طُرحت عليها فرش ميدانية

أمام مراوح التهوية للتخفيف من حرارة الجو. هنا وهناك أطفال يلهون على عتبات المنازل بلُعب خشبية. وأكثر ما استرعى انتباهي كثرة المباني المهْدّمة وكأنها تعرّضت لعاصفة مدمّرة. كنت أقرب إلى الحقيقة مما تصوّرت.

عندما نقلت انطباعي إلى الدكتور شاير قال:

- منذ سنتين اجتاح إعصار مداري المنطقة وأحدث أضراراً هائلة وخلف وراءه نحو نصف مليون ضحية، وأصبحت المدينة أكثر فقراً وحرماناً من أي وقت مضى. إن لم نُعانِ من الأعاصير نابت عنها الأمطار الغزيرة التي تُحدث فياضات. نهر السند قُلّب لا تؤمن مفاجآته.

- أنتم بحاجة إلى مطار قبل كلّ شيء.

- بالتأكيد.

- هل عندكم مستشفيات؟

- مستشفى وحيد، لكنه قديم ويفتقر إلى التجهيزات. والعديد من المنازل لا تصلها مياه الشرب.

نصبنا الخيام على أطراف المدينة وأشعلنا نار المخيم.

بدت كئيبان غولستان قريية جداً. أظن أنني لم أنم نوماً عميقاً
كما نمت تلك الليلة. لكن حال نشيبي لم تكن كذلك فهو لم
يعتد النوم في سرير مخيم على الأرض. غير أنه تحمّل البلاء
بسكينة.

في اليوم التالي اصطحبني الدكتور شاير لزيارة بعض
مروضي الصقور. كنا لا نزال على مسافة مائة متر تقريباً من
المكان المقصود عندما تعرّفت إلى صيحة الذكور المبهورة
والمرتفعة وزعيق الإناث الصارّ والأبحّ. وعندما اقتربنا منها
ذهلت: قلّما رأيت صقوراً بمثل هذا الجمال. وأول ما تبادر
إلى ذهني هو أن أمتلك بعضها لأخذه إلى بلادي. لكن ذلك
مستحيل، لأنها لن تتحمّل الرحلة، فضلاً عن أن فصلها عن
مروضيها لا معنى له.

- كما قلت لكم، قال الدكتور شاير، ستجدون صعوبة
إن أردتم الصيد في هذا الفصل.

- لا بأس، سوف أعود. لكن في هذه الأثناء لا شيء
يمنعنا من المحاولة بعد أن قطعنا كلّ هذه المسافة.

بعد ساعة كنا نجتاز حدود غولستان برفقة اثنين من

مروّضي الصقور.

للأسف، بعد أن قضينا أربع ساعات في ترصد الحبارى
عدنا بخفي حنين.

في طريق العودة كانت مسألة تلهب شفتي.

- احرصوا على حفظ الحبارى! الطبيعة هشة. والإسراف
في قتل هذه الطيور يهدد بانقراضها. يجب إقامة محميات
تسرح فيها، مثل محميات الطباء والبقر الوحشي. لقد منعتُ
اصطيادها. هل تعلم الحافز الذي دفعني إلى اتخاذ قراري؟
ذات يوم كنتُ ألاحق مجموعة من الطباء. اقتفيت آثارها،
وانتهى بي الأمر إلى تحديد موقعها وبدأت إطلاق النار. بعد
ثلاث ساعات توقفت لكي أتفقّد حصيلة الصيد وتبين لي أنني
قتلت أربعة عشر طيباً. تأملت في الأمر طويلاً وأدركتُ أن
صيد الطباء بالبندقية هو أسرع وسيلة للتسبب بانقراضها.
أطلق الدكتور شابير تنهيدة.

- ما أحسن ما قلت. هذا التهديد الذي أشرت إليه يطاول
حالياً طباءنا الشينكارا. إن لم نفعل شيئاً فسوف تختفي.

عندما عدنا إلى إسلام آباد كنت قد اتخذت قرارى. علىّ أن أساعد هذه البلاد. في البداية عرضت على الرئيس بوتو إنشاء مطار في رحيم يارخان، ومستشفى حديثاً، ومدرسة. وتعهّدت بإعادة توطين طباء الشينكارا في غولستان. كما أنني قدّمت عدة ملايين من الدولارات كهبة. ومنذ ذلك الحين أصبحت باكستان بمنزلة وطني الثاني، ومن واجبي أن أساعدها ما استطعت. أو لم أعلن ذات يوم لثيسيغر: «إذا ما توليت الحكم يوماً ما فسوف أكرّس كلّ جهدي وما أنعم عليّ الله به من قدرة لكي أسمع العالم كله صوت الشعوب المتطلّعة إلى الحرية وأساعدها على العيش بأمان وسكينة. سوف أمدّ يدَ العون للبلدان السائرة في طريق النموّ والتي تبذل قُصارى جهدها لإبعاد شبح الحرب». حان الوقت لأقرن القول بالفعل⁽¹⁾.

لم تكد تمضي ثلاثة أيام على عودتي من باكستان حتى بلغنا في الرابع والعشرين من يناير 1972 أن انقلاباً أطاح

(1) في السنوات التالية أرسلت إلى غولستان 300 ظبي شينكارا وألفا حُبارى. وأنشئت ثلاثة مراكز للدراسات الإسلامية في كراتشي ولاهور والبنجاب وشُقت طريق إسفلتية في منطقة خازان الجبلية. وشيدت مساجد، ومدارس وكلية طبّ ومستشفى في رحيم يارخان، بالإضافة إلى مجمع استشفائي، من ضمن الإنجازات الكثيرة التي استفادت منها باكستان.

حاكم الشارقة الشيخ خالد. كان علينا أن نتصرّف بسرعة. فور علمنا بالنبا قرّرنا التدخل عسكرياً. وفي بضع ساعات استتبّ الأمن مجدداً واعتُقل المسؤول عن التمرد. غير أن ما يدعو إلى الأسف هو مقتل الشيخ خالد أثناء الاشتباكات من دون معرفة ظروف الحادث. لكن أخاه الشيخ سلطان لم يصب بأذى، ولله الحمد، فورث منصبه، وهو جدير بذلك. كنت أعرف الرجل. كان ذكياً المعياً ومهندساً زراعياً تخرّج حديثاً من جامعة القاهرة، ومثقفاً رفيع المستوى، عارفاً بتاريخ الحضارات. ولا شك في أن توليه الحكم في الشارقة سيكون مدعاة للطمأنينة. التقطت أنفاسي. ثمة انفراج في هذا الوضع المتقلّب: في العاشر من فبراير 1972 قرّر حاكم رأس الخيمة الذي كان متحفظاً في البدء أن ينضمّ إلى اتحادنا.

عُدنا سبعة مجدداً.

السبعة رقم له أسرارهِ.

تماماً كعجائب الدنيا السبع، والقارّات السبع، والسّموات السبع.

من باب المصادفة أيضاً أن يكون عدد الأودية التي يذكرها

الشاعر الكبير فريد الدين العطار في «منطق الطير» سبعة:

الأول وادي الطلب.

الثاني وادي العشق.

الثالث وادي العرفان.

الرابع وادي الاستغناء.

الخامس وادي التوحيد.

السادس وادي الحيرة.

السابع وادي الفقر والفناء.

لكن هل ثمة مصادفة؟ على أي حال، كنت أرى أن هذا

الرقم حافل بالآمال.

أكتوبر 1973.

منذ أسبوع وعيناى لا تحيدان عن شاشة التلفزيون.

فى السادس من أكتوبر، الساعة 14، بدأ الجيشان المصرى والسورى الهجوم. لم يكن التوقيت اعتباطياً. كان هذا اليوم العاشر من شهر تشرى⁽¹⁾ فى التقويم العبرى، ويوم الغفران⁽²⁾. وهو مناسبة تحظى باحترام شديد لدى اليهود بمن فيهم غالبية العلمانيين. فى هذا اليوم تُشَلُّ الحياة فى إسرائيل، وتُعلّق البرامج التلفزيونية، ويتوقف النقل العام، وتغلق المتاجر أبوابها. تلك هى اللحظة المثالية التى اختارها الرئيس أنور السادات لإطلاق عملية بدر.

طوال الأسبوع السابق تكثفت التدريبات العسكرية المصرية على الضفة الغربية لقناة السويس. ولوحظ تحرك قوات سورية على جبهة الجولان. وعلى الرغم من هذه المؤشرات المنذرة استبعدت حكومة غولدا مائير إمكانية الهجوم. كانت مخطئة.

فى أقلّ من نصف ساعة انصبّ سيل هائل من القذائف

(1) Tishri.

(2) يوم كيور.

على خط الدفاع الإسرائيلي المعروف بخط بارليف. في الوقت نفسه اجتازت أول فرقة مدرّعات مصرية القناة. بعد ساعة وربع الساعة من بدء الهجوم تمّ تدمير خط بارليف. كانت هذه المرّة الأولى التي يذوق فيها تساهل طعم الهزيمة.

تأخّر الجيش الإسرائيلي ثلاثة أيام قبل أن يبدأ الردّ مدعوماً بجسر جويّ أقيم على عجل بين الدولة العبرية والولايات المتحدة. هذا الدعم الأمريكي كان حاسماً. في الحادي عشر من أكتوبر انقلبت المعركة لمصلحة إسرائيل. نجح الجيش الإسرائيلي بقيادة أرييل شارون - الذي قرّر التحرك من تلقاء نفسه - في التسلّل إلى غرب القناة، في منطقة الدفرسوار، وطوّق الجيش المصري الثالث.

بعد ثمان وأربعين ساعة استعاد الجيش الإسرائيلي الجولان.

مرّة أخرى تهبّ ريح الحرب لمصلحة إسرائيل.

منذ اليوم التالي لبدء الحرب بعثتُ برسالة دعم وتضامن إلى الرئيسين السادات والأسد. وبعد يومين ذهبت إلى لندن بصحبة ترجماني الأمين نشيبي. كنت أعتزم الدفاع عن

القضية الفلسطينية لدى الحكومة البريطانية. شجعتني على ذلك الموقف الاستثنائي الذي كانت قد اتخذته قبل ثلاث سنوات، في 1970. يومها صوتّ المندوب البريطاني في مجلس الأمن الدولي على قرار يشجب السياسة الإسرائيلية ويطلب بالانسحاب من الأراضي المحتلة عام 1967.

المملكة المتحدة أحد الأعضاء الخمسة الدائمين في مجلس الأمن، وحليف الولايات المتحدة، ولها تأثير كبير في القضايا الدولية. لذلك كان يحدوني الأمل في إقناع رئيس الوزراء، إدوارد هيث، بضرورة الدعم البريطاني لنا وحمل الولايات المتحدة على إعادة النظر في سياستها. طبعاً، لست ساذجاً. ولا أجهل العلاقات الوثيقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل التي تعدّها واشنطن الولاية الأمريكية الحادية والخمسين. لكن ألا تبين الأمة العظيمة عن نفسها في مقارعتها للظلم؟ لهذا السبب كنت معجباً بالجنرال ديغول الذي لم يساعدني الحظ في التعرف إليه شخصياً، وهذا ما آسف له، غير أنني أبدي حياله أسمى مشاعر التقدير. في عام 1940، فيما كان العالم يعتقد أن فرنسا ماتت، كان له من النباهة أن حمل جثمانها بين ذراعيه لإقناع العالم بأنها لا تزال حيّة. وإبان الحرب

بين العرب وإسرائيل عام 1967 اتخذ الجنرال ديغول موقفاً يستحق التحية. عندما سئل عن رأيه في الوضع آنذاك أدلى بتصريح ما زلت أذكر كل كلمة فيه. قال: «إني لأتساءل ما إذا كان اليهود، الذين كانوا مشتتين، والذين بقوا مثل ما كانوا في كل الأزمنة، شعباً نخبويّاً، واثقاً من نفسه، ميّالاً للسيطرة، سيُحوّلون أمانيتهم المؤثرة، التي ظلت تراودهم منذ تسعة عشر قرناً، في أن يلتقوا العام المقبل في إسرائيل، إلى طموح جامح ونزعة للغزو حالما يجتمعون في موقع مجدهم الغابر».

أثناء إقامتي في العاصمة البريطانية بذلت قُصارى جهدي محاولاً التوصل إلى حلّ للأزمة يحفظ مصالح الأشقاء العرب، ولا سيّما منهم الشعب الفلسطيني. في الوقت نفسه كانت الحكومتان المصرية والسورية ترسلان نداءات الاستغاثة. كان البلدان كلاهما بحاجة ماسّة إلى المواد الغذائية والأدوية.

بادرتُ في الحال إلى تخصيص نحو مائة مليون جنيه استرليني كمساعدة للبلدين. وأوعزت إلى أعضاء سفارتنا بشراء أطنان من المعلّبات والأدوية وإرسالها على وجه السرعة إلى دمشق والقاهرة بواسطة طائرة شحن مستأجرة.

بعد الاجتماع الذي عقده في مقرّ رئيس الوزراء، 10

داونغ ستريت، بقيت بضعة أيام في لندن حيث أجريت محادثات مع مسؤولين بريطانيين لم تسفر عن نتيجة.

كنت ساخِطاً ومُحَبَطاً في آن واحد. وكان نشيبي يشاطرنني مشاعري. كيف لا وهو الفلسطيني المولود في القدس، مثل أهله وجدوده. كانت فلسطين تجري مع الدم في شرايينه.

كنا جالسين إلى منضدة نحتسي الشاي عندما أطلعتة على ما أصابني من إحباط.

- لماذا لا يفهم اليهود أن استمرارهم في رفض تقسيم الأرض على نحو عادل لا يمكن أن يقودهم إلا إلى الكارثة، ليس غداً، ولا بعد عشر سنوات، ولكن ذات يوم؟ هذا أمر محتم. لا يمكننا محاربة التاريخ. التاريخ يعمل من دون علمنا.

لم تُسفر جهودي في إنجلترا عن نتيجة فعدتُ إلى الديار. ما إن نزلت من الطائرة حتى أعلنت: «النفط العربي ليس أغلى من الدم العربي. لن ندخر جهداً لإيجاد حلّ عادل لهذا النزاع».

أعلنت منظمة أوبك، بإجماع الأعضاء، حظر تصدير

النفط إلى البلدان الداعمة لإسرائيل، ولا سيّما منها الولايات المتحدة وهولندا. غير أن الحظر لم يستمرّ. جاءت الخيانة من شاه إيران الذي قرّر الاستمرار في تصدير نفطه وحتى مضاعفة إنتاجه. أصبح الاستمرار في الحظر بلا جدوى.

في الثاني والعشرين من أكتوبر، فيما أعلن أطراف القتال القبول بوقف إطلاق النار، ذهبت إلى القاهرة ودمشق. كانت هذه الحرب قد أسفرت عن 15 ألف قتيل وأكثر من 35 ألف جريح. أكثرهم مدنيون، وأطفال أصيبوا بكسر الزجاج وشظايا القذائف. أبكتني تلك المشاهد. كانت المستشفيات تغصّ بالمصابين ولم تعد قادرة على استقبال المزيد، فعرضت علاج بعضهم عندنا، ونقل من كانت إصابتهم بليغة إلى الخارج ولا سيّما لندن حيث يمكن أن يتلقوا العلاج على يد أطباء مختصين.

كنت مرعوباً حقاً. كلّ ما يتصل بالحرب هو صفة للحسّ السليم وتجديف بحق الخالق. أكره الحرب. أكره كلّ الحروب. إنها لا تؤدي إلا إلى مصائر محطّمة. المنتصرون اليوم منهزمون غداً. لحسن الحظ كنا نحن بعيدين عن الصخب

والدم المراق. وكانت خطتي الخمسية قد حققت أهدافها، وعملية التطوير مستمرة. حلّت مكان البراسي مبان رائعة، غير أنني منعت بناء ناطحات سحاب في العين لأنني حريص على أن تحافظ هذه الواحة على أصالتها. تمّ افتتاح أكثر من مائة وخمسين مدرسة تستوعب ما يزيد عن أربعين ألف طالب. المستشفيات والمستوصفات تستقبل مئات المرضى. كلما أنقذت حياة إنسان كنت أتذكر الصغيرة أمينة التي ماتت لعدم توفر العلاج. شبكة الطرق تمّددت وعن قريب سوف تغطي البلاد كلها. وإدراكاً مني بأن كل أشكال التغيير يمكن أن تؤدي إلى هلاك صنف من الكائنات منعت صيد البقر الوحشية والظباء وذلك في الإمارات كلها.

بعد حينٍ طُرح السؤال الأساسي: لدينا أرض مشتركة، ودفاع مشترك، وسياسة مشتركة، أفلا ينبغي أن تكون لنا عملة مشتركة؟

في العشرين من مايو 1973 ظهرت أولى أوراق النقد الموحد. قامت مؤسسة بريطانية بطبع الأوراق النقدية نظراً لعدم وجود بنك مركزي بعد. وحدة هذه العملة هي الدرهم الإماراتي. على الورقة النقدية تظهر عبارة «الإمارات العربية

المتحدة»، وأشكال هندسية ورسوم تمثل رموزاً وطنية مثل
النخيل ورأس الحصان وساحل البحر وقارب شراعي وجمال
وجمال وعقود لؤلؤ وبرج نبط...

أسئلة الفصل السادس عشر

1. ما الدور الذي أدّاه «محسن شاير» الأستاذ الجامعي؟ وكيف فتح آفاقاً جديدةً في هذا الفصل؟
2. برأيك، هل كانت حجّة الشيخ زايد - رحمه الله - مقنعةً للرئيس «علي بوتو» في الذهاب إلى صحراء غولستان التي تبعد 900 كم عن العاصمة «إسلام أباد»؟ وضح ذلك.
3. وصف الكاتب المشهد الطبيعي في أثناء الرحلة وصفاً رائعاً. اقرأ الفقرة الدالة على ذلك؛ ثم استخرج مواطن جمال التعبير اللغوي فيها .
4. جاء في هذا الفصل: «للأسف، بعد أن قضينا أربع ساعاتٍ في ترصد الحبارى عدنا بخفي حنين. ولكن قد يكون هناك رأي مختلف لدى الأستاذ الجامعي «محسن شاير». وضح ذلك مستشهداً بأدلة.

5. لم التقط الشيخ زايد - رحمه الله - أنفاسه أخيراً؟ وشعر بالطمأنينة؟ وما علاقة الرقم سبعة بذلك ودلالته؟
6. كانت مواقف الشيخ زايد - رحمه الله - واضحة تجاه القضايا السياسية والعسكرية في المنطقة العربيّة .

17

- اطمئن، الشمس سوف تستمرّ في
الشروق، والأرض في الدوران،
والعصافير في الطيران.

يونيو، 1976

ماذا أقول عن السنوات الثلاث المنصرمة؟

في 21 أغسطس توجّهت إلى المملكة العربية السعودية حيث وقّعت مع الملك فيصل على الوثيقة التي باتت تُعرف باسم «اتفاقية جدّة». هذا أفضل. كنت مرتاحاً لرؤية نهاية النزاع الذي طالّت مُدّته بين جارين وحليفين. لحظة المغادرة عائداً إلى بلادي تبادلنا، أنا والملك فيصل، كلمات الوداع. ولن أجد أبداً تفسيراً لذلك الشعور الغريب الذي راودني آنذاك، كأنه نوع من النذير الداخلي. بعد سنة قُتِل فيصل في

عملية اغتيال جبانة. خسرتُ أنا صديقاً وخسرت المملكة العربية السعودية قائداً. في بضع سنوات تمكن الملك الراحل بفضل إدارته الحازمة من تحقيق ما كرّستُ أنا حياتي له، ألا وهو جمع القبائل في دولة حديثة. لقد استحقَّ بجدارة لقبه «فيصل العرب».

كما في حياة كلِّ البشر، عرفنا أياماً مشرقة وأخرى عاصفة. كانت البلاد تمضي قُدماً. مبانٍ جديدةٌ ترتفع كلَّ يوم. أعداد متزايدة من السيارات تجوب شوارع حديثة التزفيت. أول خط هاتفي مباشر يربطنا بدُّبِّي. أولى جامعاتنا، جامعة الإمارات العربية المتحدة، تفتح عن قريب أبوابها لاستقبال الفتيات والفتيان. الزراعة التي لطالما علقت عليها أهمية كبرى تنمو على نحو يتعدّى آمالي ولن أياس من وصولنا ذات يوم إلى الاكتفاء الذاتي. لا أريد أن أرى ثانية سنوات القحط والمجاعة التي عشتها في طفولتي. في موازاة ذلك تحتضن أرض جزيرة السعديات الصغيرة مركز أبحاث على مقربة من الساحل يبحث عن حلول تسمح بحماية المساحات الزراعية من زحف الكتل الإسمنتية.

كان يجب أن أبتهج.

كانت روعي حزينة.

- تشجّع، يا زايد، لا تستسلم، حاول أن تتفهم مخاوفهم.

ما زلت أسمع صوت فاطمة. وسأسمعه ما حييت.

- مخاوفهم؟ ممّ يخافون؟

- إنهم بدؤ فخورون معتادون على السيادة، وعلى التحكم بمصائرهم، وأنت تطلب منهم أن يتخلّوا بين ليلة وضحاها عمّا اعتادوا عليه ويتمسّكون به منذ ولادتهم. أنت تشبّث بما يوحدهم وتنسى ما يفرّقهم. ليس ممكناً أن تُمحي بضربة عصا سحرية قرون من التنافس والغيرة.

حقاً قالت فاطمة، لكن قدرتي على المقاومة استنفدت، وكان تعبي عظيماً.

أعتقد أننا بلغنا نقطة اللاعودة في ديسمبر 1975. كنت قد أمضيت أسبوعاً في التنقل بين الإمارات الشمالية لتسوية خلافات حدودية -الخلافات نفسها أيضاً وأيضاً- أعتبرها ثانوية. كانوا يتشاجرون من أجل عشرات الأمتار. النتيجة؟

عرقلة بناء مستشفى منذ أكثر من سنة لأن إمارتين تدّعي كلّ منهما سيادتها على الأرض التي سيُبنى عليها. علاوة على هذه الخلافات الحدودية برزت تحفّظات عن مشروع إقامة سلطة مركزية تحدّد من صلاحيات كلّ إمارة على حدة. وهناك أيضاً موضوع مساهمة كلّ إمارة في الميزانية الاتحادية التي لقيت معارضة شديدة. والمسألة التي ألهمت الأنفس هي معرفة ما إذا كانت العائدات الناتجة عن الثروات الطبيعية في إحدى الإمارات يجب أن تُعتبر ملكاً لها وحدها أو ملك الأمة كلها؟

من قبضة من الرمل انبثق فجر جديد، وها نحن اليوم، بعد مرور أكثر من سبع سنوات، في مأزق دستوري. كنت أشعر بالتحديات. عام 1971 انتُخبت رئيساً لخمس سنوات ومع اقتراب نهاية مدّة الرئاسة بدأت تُساورني الهموم.

الأفق وحده يحدّ بحر الكشبان.

نكزت مَطِيّتي بكعبي أستحثها على الإسراع. كنت على صهوة جواد عربي أصيل أشهب. ظهر هُدْبٌ من الشمس فوق بستان النخيل. وأخذت أضواء الفجر تغمر الأرض.

هذه ساعة صلاة الفجر، أولى الصلوات التي تقام في
نصاعة الفجر وبها يبدأ طول النهار.

رفعت قبضتي قليلاً، وجذبت الزمام، ثم ترجّلت.

لفح وجنتي الهواء الساخن حين وقفت مولياً وجهي جهة
الكعبة، ورافعاً يديّ حتى أُذنيّ، وتمتمت: «الله أكبر». معظم
الناس يجهلون أن ليس لهذه العبارة معنى واحد: يمكن أن تُعبّر
في الوقت نفسه عن الفرح والحمد، وعن القلق أو حتى الضيق
في المواقف العصيبة. إنها صيغة نبيلة وجميلة. يدّ ممدودة
نحو الخالق، التماس رحمته. صيحة حُبّ. وَيْلٌ للذي ينطق
بها ليفعل الشر! وَيْلٌ للذي ينادي باسم الله ليزهق أرواحاً!
صَلَّيْتُ.

تبدأ الصلاة من حيث تنتهي قدرات البشر. ومن خلالها
ينسى المرء نفسه ويمكنه النفاذ إلى نشيد الكون.

صَلَّيْتُ.

سجدت واضعاً جبهتي على الرمل.

صَلَّيْتُ.

صلاة عميقة بقدر الإمكان، بورع وخشوع.

سألتُ وتساءلتُ.

انتهيتُ بالتلفُّتِ يَمَنَةً وَيَسْرَةً قَائِلاً: «السلام عليكم ورحمة الله».

بعد بُرْهة من التأمل النهائي عدتُ إلى السرج وأطلقت العنان لحصاني. ظلَّ يعدو بي حتى انتصف النهار وبلغ الضوء من العنف الذرّوة. ثم رأيتهم. ثلاثة من رجال البدو كانوا يجلسون تحت خيامهم اتقاءً لأشعة الشمس. شيوخ بلغوا من الهرم حدّاً أن جلودهم باتت أشبه بقشر الليمون وفي وجوههم أنوف كالرّمّاح وعيون دقيقة تبدو حادّة النظرات.

رحّبوا بي ولم يبدُ عليهم أثر للدهشة وهم يروني أجلس بينهم. بعد التحيات المعتادة دعوني لمقاسمتهم الطعام: خبز أنضج تحت الرماد، وقليل من الأرزّ مشرّب بالدهن، وحبّات من التمر، فكّرت: «هذه غاية الغبطة على وجه الأرض!».

سألوني عن أخبار العاصمة، وعن عائلتي. وتكلّمنا عن الصيد، والجياد، والصقور طبعاً، والقدر.

حتى الآن جالست ملكة لإنجلترا، ووزراء، ورؤساء،
والفكرة التي استقرت في ذهني هي أن هؤلاء البدو الذين
أشاطرهم لحظات الحقيقة والبساطة لا يختلفون عنهم.

فجأة حدّق في أكبرهم سنّاً بطريقة غريبة جداً ثم سألني:

- عمّ جئت تبحث، يا زايد؟

- ربما عن جواب.

- يتوقف الأمر على السؤال.

- أحتاج إلى أن أفهم.

- تفهم؟

- أفهم ما يريد الله أن أفعل، أبحث عن حقيقة صحيحة
بالنسبة إليّ.

ابتسم برفق.

- زايد، يا أخي، يحدث أن الاتجاه الذي اعتقدنا أننا
أعطيناه لوجودنا يغدو مظلماً، وما اعتقدنا أنه مهمتنا، هدفنا،
لم يعد مطابقاً لما تدلّ عليه بوصلتنا الداخلية. إن كان ذلك

كذلك فلا يوجد إلا حل واحد للعثور على الاتجاه الصحيح.

- ما هو؟

- نأخذ مسافة. لرؤية ضوء الفجر يجب أن تعبر الليل.

الصبر!

وأضاف:

- لا يجدر بي أن أذكر رجلاً مثلك بأن الصبر جزء

من علامات العظمة والكمال التي يجب على كل إنسان أن يتحلّى بها، وذلك بغضّ النظر عمّا يحيط به.

وضع يده المجمعدة على يدي وكرّر:

- الصبر، يا زايد، الصبر.

عندما عدت أدراجي كان الشفق قد بدأ يصبغ السماء

بلون حُبّازيّ.

منذ بضعة أسابيع وأنا أتلقى طلباً متكرراً من رئيس تحرير

صحيفة أخبار الخليج البحرينية يلتمس فيه إجراء مقابلة صحافية

مني فأدفعه لضيق الوقت. أخيراً تمكنت من استقباله بتاريخ 31 يوليو في قصر المنهل حيث بتّ أقيم؛ أما قصر الحصن القديم فقد تحوّل إلى مركز للتوثيق.

كان هذا الصحافي في الأربعينيات من العمر، وبالتالي فلا بدّ أن يكون صاحب تجربة مهنية، غير أن تعبيره كان ينمّ عن ارتباك المبتدئ، إن لم يكن ذلك بفعل التهيّب.

عملت ما أمكن لكي أريحه. شربنا القهوة. تحدثنا عن مستقبل الإمارات، والمشاريع الجاري تنفيذها، ولحظة افتراقنا طرح عليّ سؤالاً أخيراً كما لو أنه تذكره فجأة:

- يا طويل العمر، نقرب حثيثاً من نهاية رئاستك الممتدّة خمس سنوات، أفترض أنك سوف تترشح لرئاسة جديدة.

كنت أنتظر إثارة هذا الموضوع. أخذت نفساً قصيراً.

- لا. لن أترشح لرئاسة أخرى.

بُهِتَ.

- عفواً، سموك؟

- لا أنوي الترشح لرئاسة ثانية.

- سموك... أنت... هذا مستحيل.

- لماذا؟ قريباً أصبح في الستين من العمر، ألا تظن أن الوقت قد حان لإفساح المجال أمام الشباب؟ لا شيء نهائي.

- لكن... أنت لا تستطيع، سموك.

- بل أستطيع. اطمئن، الشمس سوف تستمر في الشروق، والأرض في الدوران، والعصافير في الطيران. رجال جدد سوف يحلون محلي تماماً. لا شيء ينقص ابني خليفة، مثلاً، هو في الثامنة والعشرين من عمره، وإذا ما انتخبه المجلس الأعلى فأنا على يقين بأنه سيقوم بعمل ممتاز. لكن هناك كثير من الأشخاص المؤهلين هم أيضاً.

هتف الصحفي:

- أنت أبو الأمة. ماذا سيحلّ بأبنائك في غيابك؟

- الأمر بسيط. سوف يصبحون آباءً بدورهم.

نهضت لكي أفهم الصحفي أن المقابلة انتهت. في المساء

نفسه كتبت رسالة إلى الحكام الستة الآخرين محتواها بسيط لكنه صادق وفيها أقول ما مفاده: «أعتقد أن زملائي الحكام يدركون ضرورة إعطاء الرئيس بعض السلطات; سلطات تمكنه من إجراء التغييرات اللازمة. وإذا كنت قد اتخذت هذا القرار الصعب فلأنني لاحظت أن لا قيمة لكون المرء رئيساً إن لم يكن له من الوزن أكثر من ريشة».

طُوِيَت الصفحة.

لم أتخيل حينها عنف العاصفة التي سيثيرها هذا القرار.

أنا، فارس، أتذكر كل شيء.

ما أبعد ذلك اليوم الذي التقيت فيه زايد، بفضل المرحومة أمّه، سلامة، طيب الله ثراها، وبدأنا الكفاح معاً لتنفيذ مشروع الريّ في العين! كان ذلك عام 1950، منذ ستة وعشرين عاماً. ما أسرع مرور الوقت! لقد شرفني بصداقته وأصبحت بعد انتخابه رئيساً سكرتيره الخاص.

من مطلع الفجر، كان وقع الخبر المنشور في أخبار الخليج أشبه بزلزال. انهالت الاتصالات الهاتفية من أربعة أركان الأرض. الرئيس المصري أنور السادات، رئيس الوزراء الباكستاني ذو الفقار علي بوتو، العاهل الأردني الملك حسين، رئيسا الوزراء في كلٍّ من لبنان والمغرب، إدوارد هيث، ولي عهد عجمان، وغيرهم ممن نسيت ذكرهم لطول القائمة.

وقعنا في نوع من الدوامة غير المرئية. لا أحد كان يريد، أو يستطيع، أن يتصوّر الاتحاد الوليد محروماً من مؤسسه. أكان النبا صحيحاً؟ ألهب السؤال شفتي، لكن ما كنت لأجرؤ على طرحه.

لدى مراجعة مفكرة زايد وجدت عدّة مواعيد في الأسابيع القادمة. في الثاني من أغسطس ينتظرونه في دبي لحضور حفل وضع حجر الأساس لمرفأ جديد، ميناء جبل علي. عند الانتهاء من تنفيذ هذا المشروع سوف يصبح ميناء جبل علي أكبر مرفأ اصطناعي في المياه العميقة في الخليج العربي والأهم في الشرق الأوسط. هذا الحفل سيحضره معظم الشيوخ فماذا ستكون ردة فعلهم؟

في الخامس من أغسطس، يبدأ جولة تشمل كلاً من

الصومال وسريلانكا، ثم الهند، وأخيراً لندن. هل ينوي القيام بها؟ في هذه الحالة سوف يكون خارج البلاد لأكثر من شهر. ماذا سيحدث؟

لَكُمْ فوجئت في الثاني من أغسطس بتوجه الشيخ زايد بسيارته الكاديلاك إلى جبل علي لحضور الاحتفال كما كان مقرراً. طلب مني اصطحابه في ذلك اليوم القائظ. عندما وصل خرج من سيارته واتجه فوراً نحو الشيخ راشد الذي جاء لاستقباله. كنت على بُعد خطوات منهما. ومثل سائر الحضور حبست أنفاسي. ما الذي سيحدث؟ بسط الشيخ راشد ذراعيه واحتضن صديقه. تبادلا العناق وبعض الكلمات. كانت الأنظار مسلطة عليهما ترقبهما بتوجس. لم أرَ أثراً للضييق على وجهيهما. وفي اعتقادي أن أكثر المحبطين من هذا المشهد هم الإعلاميون الذين جاؤوا بأعداد كبيرة من البلدان المجاورة. لا ريب في أنهم كانوا يأملون أن يكونوا شهوداً على حادث لم يقع.

بعد انتهاء مراسم الاحتفال عدنا أدراجنا. كانت الساعة الخامسة عصراً حين وصلنا إلى القصر. تناول زايد بعض المرطبات ثم صَلَّى. تساءلت هل سيحضر مجلسه كالمعتاد؟

وعندما سألته ابتسم وقال: «طبعاً، بابي مفتوح للجميع». لفتّ نظره إلى أن الزوّار من الكثرة بحيث لا يمكننا استقبالهم جميعاً، فاكتفى بالقول: «بابي مفتوح للجميع».

بدا وكأن السكان كلهم تجمّعوا هنا. كانوا يناشدونه التراجع عن قراره. يتوسّلون إليه. حتى أن بعضهم دمعت أعينهم. أما هو فظل هادئاً لا تفارقه الابتسامة، ويجيب بأن هذا هو خياره، وهو الأفضل أيضاً. المشهد نفسه تكرر في الليلتين التاليتين.

في الخامس من أغسطس سافرنا إلى مقديشو يرافقنا وفد كبير أذكر من بينهم وزير الأشغال العامة الشيخ محمد بن سلطان القاسمي. ظننت أن هذه الزيارة خاصة ورسمية في الوقت عينه. في الطائرة قال لي زايد وكأنه ييوح بسرّ: «هل تعلم بأن الثروة الحيوانية في الصومال تُعدّ من بين الأكثر أهمية في أفريقيا؟ نجد فيها، إلى أجناس أخرى، حُباريات رائعة ونعاماً فريدة من نوعها في العالم، تتخذ لوناً أزرق داكناً في موسم التزاوج». أجبت بقليل من الدهشة: «أنت تنوي الصيد إذن؟» هزّ رأسه: «لماذا يجب أن أحرم نفسي منه؟».

كان الرئيس محمد سياد بري في انتظارنا عند سلّم

الطائرة. رجل في حوالي الستين من العمر، نحيف جداً. للوهلة الأولى، ولست أعلم لماذا، بدا لي أن شاربه القصير الأسود الذي يغطي شفته العليا يعطي انطباعاً خاطئاً بشارلي شابلن. كان يرأس الصومال منذ ما يقرب من خمسة عشر عاماً وبني سُمعته كرجل محترم. لم يفرض العناية الصحية والتعليم الإلزامي فقط بل أقرّ أيضاً مبدأ المساواة بين المواطنين وكذلك بين الرجل والمرأة. للأسف، كانت بلاده خارجة من مرحلة رهيبة من الجفاف والقحط أجبرت آلاف المزارعين والرعاة على النزوح والتكدّس في ضواحي المدينة.

إن ظنّ زايد أنه بمنأى عن ضغوط مقديشو فهو مخطئ. في البداية لم يكفّ الرئيس الصومالي عن محاولة إقناعه بالبقاء في منصبه. ثم إن الأبناء الواردة من الإمارات كانت بعيدة عن الإيحاء بالهدوء. كان شعب بأكمله يرفع صوته. الشيوخ والوزراء كانوا تحت سيل من رسائل الاحتجاج التي تطالبهم بالتحرك. في السادس من أغسطس تجمّع عشرون ألفاً من المواطنين القادمين من العين أمام مبنى وزارة الخارجية طالبين بإلحاح عودة الشيخ زايد. ولم تجدِ نفعاً كلّ محاولات وزير الخارجية أحمد خليفة السويدي لتهدئة الجمهور الصاحب.

في السابع من أغسطس، وفيما كان الشيخ زايد يستعدّ للانطلاق في رحلة صيد، استدعاني وطلب مني الدعوة لمؤتمر صحافي. أعترف بأن قلبي ارتعش ابتهاجاً لظني أنه سوف يعلن أنه غير رأيه ويترشح للانتخابات الرئاسية المقبلة. خاب أمني. لم أحفظ من هذا الخطاب سوى الكلمات التالية:

«إن مواطني الإمارات العربية المتحدة هم اليوم أكثر تعليماً وأكثر معرفة بالعالم الخارجي. وبالتالي بات من الصعب إرضائهم وتلبية متطلّباتهم. فليعلموا أنني أحبّهم من صميم قلبي وأعتبرهم بمثابة أبنائي. غير أن لديّ اليوم انطباعاً بأنني أستطيع أن أخدمهم على نحو أفضل إذا ما امتنعت عن الترشّح، مع دعمي الكامل للرئيس الجديد، وكلي ثقة أنه سيكون أكثر استعداداً مني لتلبية مطالبهم».

أصغيتُ بخشوع، حتى النهاية. كنت على قناعة بأنّ ثمة أشياء لم تُقل. وأدركتُ أنّ رفضه التراجع عن موقفه يعود أساساً إلى رفض العديد من حكّام الاتحاد مشروع الدستور

الدائم الذي كرّس له زايد جهداً عظيماً. كان من شأن هذا المشروع تمكينه من القيام بمسؤولياته كاملة كرئيس. وهذا ما يفسّر ملاحظته: «لا قيمة لكون المرء رئيساً إن لم يكن له من الوزن أكثر من ريشة».

في هذا المؤتمر الصحافي ظنّ أنه أطفأ النار، والحال أنّه لم يفعل إلا أن نفخ على الجمر. في الساعة التي تلت هذا التصريح انهمرت الاتصالات الهاتفية على سفارة الإمارات في مقديشو. موجة الانفجالات التي أثارها استقالته لم تكن قريبة من الانحسار.

أسئلة الفصل السابع عشر

1. يستطيع القارئ أن يفهم من هذا الفصل أنّ الملك فيصل - رحمه الله - شخصية حكيمة. فسّر ذلك، ثمّ اقرأ الجزء المعبر عنه.
2. تتكرّر عبارات سموّ الشيخة فاطمة - حفظها الله - في تشجيع الشيخ زايد - رحمه الله - على المضيّ قدماً كما في فصول سابقة، اقرأ هذه العبارات. ووضح مدلولاتها وسبب تكرارها.
3. قال الشيخ زايد - رحمه الله - : « كان يجب أن أبتهج »، وأتبعها قائلاً: « كانت روعي حزينه » تحدّث مع أفراد مجموعتك حول الأسباب التي جعلت مشاعره مختلطة في هذا الفصل.
4. ما دلالة وأبعاد العبارة الآتية التي قالها الشيخ زايد - رحمه الله - في هذا الفصل: « الأفق وحده يحدّ بحر الكثبان ».

5. قدم الشيخ زايد - رحمه الله - وصفاً رائعاً لصلاة الفجر،
اقرأه ثم تناقش مع زملائك في الاستنتاجات التي قد
يستنتجها القارئ من هذا الوصف؟
6. ما رأيك في الحوار الذي دار بين الشيخ زايد - رحمه
الله - والرجل البدوي المسن؟
7. ما زال (فارس) السكرتير الخاص بالشيخ زايد يثبت لنا
أنه أخا وصديقاً مخلصاً ومحباً للشيخ زايد وأنه ليس
سكرتيراً خاصاً فقط، اكتب ما يدلُّ على ذلك.
8. استخرج من هذا الفصل استعارة وتشبيهين، وبين
وظيفتهما الأسلوبية.

18

- أتشمُّ هذا الأريج؟ نحن في أواخر
نوفمبر وما زال الهواء عابقاً بروائح
الصيف. نحمد الله على أننا نعيش
على أرض مباركة.

- أوقفوا الموكب!

ولأن السائق لم يفهم على ما يبدو كرّر زايد الأمر. رأيت
في مرآة الخلفيات الموكب يتوقف وراءنا فجأة.

منذ قرابة أربعين دقيقة هبطنا في هرجيسا شمال-شرق
البلاد حيث أقلتنا طائرة خاصة وضعها الرئيس سياد بري
في تصرّفنا. هناك كان في انتظارنا موكب مؤلّف من عدّة
سيارات جيب تقلّ عسكريين، وسيارتين لاندروفر، وانطلقنا
نحو غوبان.

وفقاً لما قاله الرئيس سوف نجد في سهل غوبان أجمل

تشكيلة من الحيوانات البرية.

سألت زايد:

- لماذا هذا التوقف؟

أشار بإصبعه إلى مكان غير بعيد.

في البداية لاحظت مجموعة صغيرة من الأولاد جالسين بين العُلق، يحملون بأيديهم ألواحاً صغيرة، ويبدو أنهم يستظهرون نصاً تحت إشراف عجوز يرتدي الباتي، اللباس الصومالي التقليدي. على مقربة منهم فتاة صغيرة تحلب ضرع بقرة بيضاء، وفي وسط الحقل المغبر تقف امرأة تشد الحزام على رضيعها الملتصق بظهرها. وفي مكان أبعد قطع من الماعز يرعى.

- لا أرى شيئاً خاصاً.

- عزيزي فارس، أتذكر ما قلته لك بشأن جملك يوم السباق؟ «لم يعد أمامه عُمر، أذناه قصيرتان جداً، وعُرقوباه بارزان للخارج ومرتدان للخلف!» أتساءل إن لم تصبح شبيهاً به مع التقدم في السن.

أشار مرّة أخرى إلى مكان ما، لكن نحو اليمين هذه المرّة. هناك رأيت عشرة مراقبين منقسمين فريقين تفصل بينهما شبكة ممدودة بين شجرتي سنط. كانوا يمارسون رياضة الكرة الطائرة.

- ماذا إذن؟ ماذا هناك من شيء خاص؟

بدل أن يجيب فتح باب السيارة ومشى نحو الأولاد. حدوثٌ حذوّه. وفي هذه اللحظة وثب العسكرون من سياراتهم وأسرعوا في أثرنا.

صاح ضابط:

- يا صاحب السموّ! أين تذهب؟

طمأنه زايد بحركة وتابع سيره.

عندما أصبح أمام اللاعبين حيّاهم بابتسامة عريضة.

همستُ له:

- هل لي أن أعرف ما بك؟ هذه لعبة الكرة الطائرة.

نظر إليّ من أسفل إلى أعلى.

- وأنت نساء. أنسيت إنها إحدى هواياتي، بعد الصيد
بالصقر طبعاً.

قبل أن يتاح لي الرد، سأل أحد الأولاد:

- أرى أنكم لستم سوى عشرة. هل يمكننا الانضمام
إليكم؟

- طبعاً.

أخذ زايد بذراعي.

- هيا بنا.

تمتمتُ:

- لكنني لا أعرف اللعبة.

- لست أقلّ موهبة من جملك. الأمر سهل. ما عليك إلا
أن تضرب بكفّك الكرة.

احتجّ الضابط مدعوراً:

- سموك، هذا تصرف خطير. أرجوك، عُدْ إلى السيارة.

- سيكون كلّ شيء على ما يُرام. لا تقلق.

أشار لي على الفور إلى فريق والتحق بالفريق الآخر.

كان هذا الموقف لامعقولاً. كنا هناك، وسط لا مكان، على مسافة آلاف الكيلومترات من بلادنا حيث تنتاب الناس أزمة عصبية، وقادة العالم كله يتساءلون، فيما الشيخ زايد يلعب الكرة الطائرة مع أطفال.

ضربتُ بكفّي الكرة ما استطعت، كنا في شهر أغسطس، شعرت بالموت مائة مرّة.

عندما انتهت المباراة جلس عند جذع سنط وأشار إلى أحد حرّاسه أن يأتي لنا بمشروبات باردة. كان لدينا صندوق مملوء بعلب مبرّدة. شعر الأطفال بسعادة غامرة، ومعهم زايد أيضاً. كان يطرح عليهم أسئلة شتى. يريد أن يعرف ماذا يعمل أهلهم، وماذا ينتظرون هم من الحياة، وأين يسكنون. وخصوصاً هل يذهبون إلى المدرسة؟

- نحن نتعلّم القرآن مثلهم، قال أحدهم مشيراً إلى حلقة الأطفال. عندها فهمنا أن العجوز الذي يرتدي الباتي كان يحفظهم الآيات. وسارع المراهق إلى التأكيد: في القرية

مدرسة صغيرة أيضاً.

خلصنا من هذه المحادثة إلى أن غالبية الأولاد هم أبناء قرويين يزرعون الذرة الصفراء والذرة البيضاء لاستهلاكهم الخاص وللإتجار إذا ما زاد المحصول.

عندما عدنا إلى السيارة بدا وجه زايد مُغتمّاً. اختفى الفرح الذي شعّ على مُحيّاه أثناء مباراة الكرة الطائرة: «أتعلم يا فارس، إن الظلم هو الذي يدفع الناس إلى الالتفاف على القانون، هو الذي يقود العالم إلى الفوضى».

عشية سفرنا بالطائرة إلى سريلانكا طلب الشيخ زايد من وزير الأشغال العامة الشيخ محمد بن سلطان القاسمي أن يمنح الحكومة الصومالية أربعين مليون دولار. هذا المبلغ سوف يُخصّص لإقامة سدّ، وبناء معمل للسكر، ومساعدة السكان المهتدين بالمجاعة. في اليوم التالي، ونحن في طريقنا إلى المطار، سألته بمودّة: «من أين لك هذا السخاء كله؟ ألا تتعب من العطاء؟».

تأملني مليّاً كما لو أنه وجد السؤال غير لائق وقال: «تخيّل أن الله أعطاك دخلاً قدره عشرة ملايين دولار، وأنت

لا تحتاج لتلبية احتياجاتك الشخصية والعائلية إلا إلى مليون،
ماذا تفعل بالباقي؟ أقول لك، يا فارس، إن كان لديك حدّ
أدنى من الحياء فمن المستحيل ألاّ توزّعه على المحيطين
بك، على المحتاجين. إن التصرّف خلاف ذلك ليس إجراماً
فحسب بل جحود بحقّ الخالق الذي أعطاك فأغناك».

عندما أفكّر مجدّداً بمباراة الكرة الطائرة تلك، وفي التعبير
الحائر لصديقي فارس، أبتسم. أفكّر أيضاً في الذعر الذي
سيطر على حرّاسي. أقول، مع المجازفة بالتكرار، إن الحياة
والموت بيد الله تعالى يوزعهما كيف يشاء. قُتِلَ العديد من
المسؤولين في العقود الأخيرة. السادات، كينيدي، مارتن لوثر
كينغ، غاندي، ماذا أفادهم حرّاسهم؟ لا شيء. إن الإنسان
سواء أكان مغموراً أم مشهوراً، أميراً أم متسوّلاً، لا يستطيع
أن يغيّر مقدار ذرّة في المصير الذي كتبه له ربّ العالمين منذ
ولادته.

بالنسبة لي، على أيّ حال، أنا أحتفظ من تلك المباراة
بذكرى لحظة رائعة من الحرية والتبادل. التبادل ينطوي على
التحالف بين البشر. وعندي أنّ على المرء أن ينقاد للفطرة.

الفِطْرَة والإيمان بالله. الكائن المركّب الذي هو أنا يحتاج إلى هاتين الدعامتين. لأنني كائن مركّب. أنا نتاج آلاف السنين. أنا بدويّ، من البدو الرُّحَّل. أنا الصحراء والماء.

في الواقع يودّ معظم الناس تلخيص حياتهم في صيغة معيّنة. أنا لست من هؤلاء. الوجود لا يتألّف، مهما قيل، من خط أفقي وخط عمودي، بل الأصح أنه مؤلّف من مجموعة خطوط متعرّجة ممتدة إلى ما لا نهاية ولا تنفكّ تتقارب وتتباعد. يختصر الإنسان ما يعتقد أنه كائنه، وما يريد أن يكونه، وما هو كائن.

هذا هو السبب الذي من أجله أسيء فهم القرار الذي اتخذته بالتخلّي عن الرئاسة، في حين أنه واضح تماماً لي.

حطت الطائرة في مطار كولومبو في الرابع عشر من أغسطس 1976.

من لا يزال يذكر الأيام المجيدة لحركة عدم الانحياز؟ أيام كان يقودها رجال دولة راعون، طيّبون ومواطنون عالميون في الوقت عينه. رجال يؤمنون إيماناً عميقاً بمفهوم السيادة

الوطنية والرفاهية العامة. مصطلح عدم الانحياز ابتكره رئيس الوزراء الهندي نهرو في خطاب ألقاه عام 1954 في كولومبو على وجه التحديد. ويُشكل المؤتمر الذي عُقد بعد ذلك في مدينة باندونغ الأندونيسية مرحلة مهمة. في تلك الأثناء عبّرت أمم العالم الثالث المستقلة حديثاً بوضوح عن رفضها الانضمام إلى أيّ من المعسكرين الدوليين المتنافسين.

بعد أحد عشر عاماً أصبحت الحركة تضم خمساً وثمانين دولة برئاسة السيدة أنديرا غاندي رئيسة الوزراء الهندية. أعترف أنني لاحظت منذ الاجتماع الأول أن الحركة فقدت قدراتها على المبادرة. كان تأجج الاختلافات السياسية والإيديولوجية قد وُلد ميلاً إلى الانكفاء على الذات، وبات من الصعب تحقيق التوافق نظراً لتعدد الأفرقاء. آسف لذلك.

تركزت المداخلات بوجه خاص على الفيتو الأمريكي الذي استُخدم منذ سبعة أشهر للحيلولة دون تطبيق قرار الأمم المتحدة الذي ينصّ على الانسحاب الإسرائيلي من الأراضي المحتلة منذ عام 1967، وعلى حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وعودة اللاجئين. رأيت أن من واجبي التذكير مرّة أخرى بموقف الإمارات الثابت: دعم الشعب الفلسطيني

وحقه في إقامة دولة.

في غضون ذلك كانت سفارتنا في كولومبو تكاد تختنق لكثرة البرقيات التي كانت تتبعني إلى سريلانكا ولم يكن بوسعي أن أفعل شيئاً بالرغم من صدق تأثري. جهدت، والحق يقال، لأفهم هذا الهياج، لاعتقادي بأن لا أحد لا يمكن الاستغناء عنه. عاجلاً أو آجلاً يأتي شخص مؤهل لاستكمال ما كنت قد بدأت به أو لإنهائه. عبقرية الإنسان لا حدود لها.

وجدت صعوبة في أن أخلد إلى النوم عشية الانطلاق نحو وجهتي الجديدة: الهند.

لم تكن هذه زيارتي الأولى للهند.

عام 1946 زرتها مع هزاع، رحمه الله، وفي يناير 1975 لبيت دعوة أنديرا غاندي رئيسة الوزراء. في تلك المناسبة وقّعنا عدداً من اتفاقات التعاون ووثّقنا عُرى الصداقة التي لم تخيب ظننا أبداً.

هذه المرة لم أكن في زيارة رسمية. كان الدافع وراء

هذه الرحلة هو الرغبة في الابتعاد، في اتّخاذ مسافة، وفي زيارة الهند لمدة أطول. رداً على اندهاش فارس قلت ببساطة: «الرؤية ضوء الفجر يجب المرور بالليل؛ الصبر». لم يبدُ عليه أنه فهم ولم يُلحّ.

في أثناء إقامتي، بين سفرين، رأيت السيدة غاندي مرّة أخرى وأمكنني تقدير الميزات العظيمة التي تتصف بها امرأة عاملة في حقل السياسة. لا جدال في أنها علامة فارقة في تاريخ بلادها التي جعلت منها قوة إقليمية حقيقية. لقد أثر فيّ موتها لغير اعتبار. في 31 أكتوبر 1984 قُتلت غيلة في حدائق مقرّ إقامتها على يد عسكريين مكلفين بحمايتها. فعلاً ذلك انتقاماً من الجيش الهندي المسؤول عن مقتل حوالي مائة من إخوانهما السيخ قبل بضعة أشهر. كلّ قتل دناءة. لكن ما صدمني إلى حد مخيف في هذه الحالة بعينها هو الدوافع الكامنة وراء هذا العمل الوحشي: التعصّب وعدم التسامح، جرحا الإنسانية. لطالما كرّرت القول: إن التطرّف الديني لن يكون له مكان في مجتمعنا. أرفض القوى الظلامية التي تصدر النصّ المقدّس لتصنع شكلاً جديداً للدين قريباً من النحلة. إن تصرّف تلك القوى على هذا النحو ينطوي على خطر إحداث

فتنة في المجتمع الإسلامي ويهدد التوافق. أعتقد أن الإيمان،
أيّاً يكن، ليس مسموحاً به إن لم يكن متسامحاً. من أجل ذلك
سوف تبقى الكنائس والمعابد موضع ترحيب عندنا⁽¹⁾.

انتهزت فرصة إقامتي في الهند للذهاب إلى أغرا. لطالما
سمعت بهذه المدينة التي يوجد فيها أجمل روائع التراث
الإنساني في العالم: تاج محل. أخيراً أُتيحت لي زيارته. هبطنا
في المدينة ظهراً برفقة بعض المقرّبين ومنهم نشيبي الذي
كان قد انضمّ إلينا. بعد ساعة وصلنا إلى ضفاف نهر يُمونه.
وكانت الصدمة.

أمامنا تنتصب جوهرة على خلفية لازوردية، الجمال في
صفائه.

بفضل السيدة غاندي حوّل المكان إلى القطاع الخاص.
ومن حسن الحظ أننا كنا حفنة من الزوّار. ماذا أقول حيال
مجمع العجائب هذا؟ حقيقة أن هذا الضريح المبني بالرخام

(1) تضاعف عدد الكنائس بين عامي 2005 و2015. يوجد اليوم أربعون كنيسة
على الأقل. تعتبر الكنيسة الأرثوذكسية في الشارقة الكنيسة الكبرى في الإمارات
ويمكنها أن تستوعب حتى عشرة آلاف شخص في موسم الأعياد. هناك أيضاً
معابد هندوسية. مؤخراً قدّم ولي العهد الشيخ محمد بن زايد قطعة أرض
مساحتها 55 ألف متر مربع سيني عليها أكبر مكان للعبادة في الإمارات.

الأبيض شُيِّدَ باسم الحبِّ تُضفي على جماله مسحة عاطفية
جياشة. هنا يرقد جثمان ممتاز محل زوجة الإمبراطور
المعبودة.

وفقاً لما قاله الدليل، تطلَّب بناء هذا الصرح حوالي عشرين
ألف عامل، وألف فيل لنقل المواد المجلوبة من آسيا كلها.
أتى بحرفيين من أوروبا لتصميم المشابك والألواح الرُّخامية
الحساسة المصنوعة من آلاف الحجارة النفيسة.

القبة المركزية محاطة بأربع منارات متماثلة، تنحني نحو
الخارج حتى إذا ما حدثت هزة أرضية انهارت في الاتجاه
المقابل للضريح. وذروة الرهافة تغيَّر ألوان المجمع في ساعات
النهار والليل، وذلك - كما يؤكد الدليل - لمحاكاة تبدل
مزاج ممتاز محل: وردية فجراً، بيضاء ناصعة نهاراً، ذهبية عند
المغيب: منيرة على نحو غامض في ضوء القمر.

ما الذي لا يُعمل باسم الحبِّ؟

عندما نحبُّ لا يكون الله في قلوبنا فحسب، بل نكون
نحن في محبة الله.

يبدو لي، ولست متأكداً، أنني كتبت مساء تلك الزيارة

هذه الأبيات:

حُبِّكُمْ وَسَطَ الْحِشَا سَادِ

لَوْ جَبَلَ مَتَحَمَّلَهُ كَلَّهْ

وَيْلَ مَنْهُوَ مِثْلَهُ فَوَادِي

كَانَ طَوَّلَ الْوَقْتِ قَدْ حَلَّهْ

جَيْتَ مِثْلَ الشَّمْسِ مِتْبَادِي

يَا شِفَا رُوحِي مِنَ الْعِلَّهْ.

تلك الليلة، كانت فكرتي الأخيرة لفاطمة.

9 سبتمبر 1976

استمرت إقامة الشيخ زايد في لندن ثمانية عشر يوماً،
وبذلك تكون مدة غيابه خارج الإمارات شهراً ونيفاً.

عندما وضعت الطائرة عجالاتها على المدرج نظرتُ عبر الكوّة. الهدوء يسود المكان. ما عدا السيارات الرسمية التي تنتظرنا لم ألحظ ما يسترعي النظر بصورة خاصة. عندئذ قلت في نفسي: «يا فارس، متى تكفّ عن القلق؟».

ألقيتُ نظرة على زايد. كان ينام كطفل وليد. لم يفتح عينيه إلا عندما توقفت الطائرة تماماً وأعلن القبطان: «أهلاً وسهلاً بكم في مطار دبي».

انتهزتُ الفرصة لأسأله كيف يشعر، أهو سعيد بالعودة إلى البلاد، فردّ قائلاً:

- سعيد كأب يلقي أبناءه مجدداً.

وعلى الرغم من هدوئه شعرت بأنه متأثر جداً. لم أنتبه إلا ونحن ننزل السلم الطويل إلى الحشد الكبير من الوجهاء الذين كانوا ينتظروننا على عتبة قاعة الشرف: شيوخ، وزراء، ممثلون للحكومة، أعضاء العائلات الحاكمة في الإمارات السبع. وما كدنا نتقدّم مائة خطوة حتى اندفع الحشد نحو زايد. كانوا يحتضونه، ويهتّون به، وكان بعضهم ينتحب.

أخيراً، بعد جهد جهيد، نجح زايد في التخلّص من

مستقبله، وانطلقنا نحو قصر البطين. كانت الطريق محفوفة
برجال ونساء، وأطفال، يهتفون، يطلقون الشعارات، يصفقون،
يهلّلون، يلوّحون بالأعلام واللافتات. لزمّت الصمت. ماذا
عساي أن أقول؟ هذا الابتعاد لم يُغيّر شيئاً في تصميم الشعب
وفي تعلّقه بزائد ورغبته الجامحة في بقائه رئيساً.

أنزل زايد زجاج باب السيارة ومدّ يده نحو الجمهور.
وبعد لحظة سمعته يُتمتم:

- أحياناً أتمنى أن أعود طفلاً، رُكبتاه المخدوشتان
علاجهما أسهل من مداواة قلب كسير.

- لكن هذا القلب أنت الذي كسرتَه يا زايد. وليس غيرك
مَن يجبره. يكفي لذلك أن تعود إلينا. أرجوك. فكّر فيهم،
فكّر فينا.

التفتَ نحوي فجأة، وطالعني بتعبير معذب لم أعهده من
قبل، وصاح:

- أجننتَ، يا فارس؟ أو تظنّ أنني لست حريصاً على
ذلك.

- لكن... لكن ماذا بعد؟

- حاول أن تفهم. القصيدة يجب أن تؤخذ بمجملها. لا يمكن أن نحذف منها كلمة ولا أن نضيف إليها كلمة من دون أن نشوّهها. الشاعر الذي يعمد، عن ضعف أو لأيّ سبب آخر، إلى تقديم هذا التنازل يرتكب خيانة ذاتية. لا يعود هو نفسه. أنا أرفض أيّ تغيير في القصيدة. وإلاّ لما كنتُ ما أنا عليه.

وختم بصوت مُتشنّج:

- خلقُ الإمارات العربية المتحدة هو قصيدتي.

أمام القصر كان الحشد الجماهيري نفسه في انتظارنا. على الرغم من الحرارة الخانقة كان المئات يترقبون وصولنا. حضور هذا الحشد كان استثنائياً بوجه خاص لأن سبتمبر من الشهور الأشد قيظاً على مدار العام. في هذه المرحلة عادة ما يلزم الناس بيوتهم مستفيدين من البرودة النسبية التي توفرها مكيفات الهواء.

مع ذلك، كانوا هناك، من جهات البلاد الأربع جاؤوا. بالحافلات، بالسيارات، مشاةً جاؤوا.

أمر زايد الحراس أن يفتحوا أبواب القصر ويوزعوا المرطبات. ثم ترجل من السيارة وحيًا الناس، مُنادياً بعضهم بأسمائهم. لم أفاجأ بذلك، فأنا أعلم أنه يتمتع بذاكرة بصرية مذهشة. بعد ساعة دخل إلى حُجرتة.

في اليوم التالي، والبلاد كلها حابسة أنفاسها، حرّر رسالة يشكر فيها بحرارة شعبه على ما أبداه من محبة له ومن عرفان. لكن حتى لو قرأنا ما بين السطور فلن نجد ما يوحي بتغيير في الموقف. لم يبق إلا ثلاثة أشهر على الموعد المحتوم لنهاية ولايته الرئاسية، ثلاثة أشهر والمشكلات التي سبقت مغادرته إلى الخارج لم تزل على حالها. لقد نوقشت في غيابه لكن لم يتم التوصل إلى أي حلّ.

من محيط الشك انبثق يقين واحد، في الرابع عشر من سبتمبر أعلن الشيخ راشد رسمياً أنه لا يعتبر نفسه في أي حال من الأحوال خليفة لزايد إذا ما قرّر الانسحاب. بالنسبة إليه لن يكون هناك خلاف أبداً.

أسبوعاً بعد أسبوع كانت حبيبات الرمل تنساب في ساعة الزمن. واستمرّ زايد يتحمّل مسؤولياته بكلّ طبيعّة.

في الثلاثين من سبتمبر أُحيطَ علماً بأن آلاف الأشخاص
يعتزمون تنظيم مسيرة دعماً له.

- أنا متأثر جداً، أعلن للمنظمين، لكن أرجوكم إلغاء
المسيرة. لا تعرقلوا المفاوضات الجارية على مستوى المجلس
الأعلى، صبراً. يجب ترك الوقت يفعل فعله. لا ينبغي ممارسة
الضغط على الأنفس الحرّة. فأذعن منظمو المسيرة آسفين.

في السابع والعشرين من أكتوبر سافر إلى الإسماعيلية،
شمال شرق القاهرة، لحضور افتتاح مدينة مَوّل هو بناءها.
استقبله الرئيس السادات بمنتهى الحفاوة، وسط تهليل جمهور
غفير حتى أن وزير الإسكان المصري لم يجد من وسيلة
أخرى سوى دعوته إلى ركوب مروحية لكي يستكشف من
الجوّ هذه المدينة التي سُمّيت باسمه: مدينة زايد. أثناء إقامته
القصيرة في مصر بذل الرئيس المصري جهداً مماثلاً للجهد
الذي بذله الرئيس الصومالي سياد بري لإقناعه بالبقاء على
رأس الإمارات. لستُ أدري إن كان ما نُمّي إليّ صحيحاً من
أن زايد أجاب السادات بشيء من الدعابة قائلاً: «يا أخي،
الفراعنة يحسبون أنفسهم خالدين، لا نحن، البشر».

بعد أسبوع على عودته أعطى الضوء الأخضر لبناء مصنع
للسماد في العين. العين التي تحتلّ دائماً مكاناً مميزاً بين
جوانحه.

في التاسع والعشرين شهد الوضع المتأزم حتى ذلك الحين
منعطفاً كبيراً.

اجتمع المجلس الأعلى في قصر زعبيل في دبي وانتشرت
شائعة مفادها أن هذا الاجتماع سيكون حاسماً. كانت البلاد
كلها تترقب.

أنا فارس، لم أكن من ضمن المشاركين في ذلك
الاجتماع، وبالتالي فأنا لا أعرف شيئاً من المناقشات التي
دارت فيه. والمعلومات القليلة التي بحوزتي نُقلت إليّ.

في غضون ثلاث ساعات ونصف الساعة من النقاش
كشفت الفريقان عن كلّ المسائل التي تفرّقهما وذلك في
حضور مستشاريهما. عصراً سُجّل تقدّم في المحادثات.
عندئذ اقترح الشيخ زايد على الشيخ راشد أن يقوم بنزهة معه
في حدائق القصر. ما قاله الرجلان في تلك النزهة لن يعرفه
أحد.

في قلب الصحراء كان لقاءنا.

لم أعد أنا الشيخ زايد.

لم يعد هو الشيخ راشد.

كنا بدواً تحت شمس وهاجة.

توجهنا أنا والشيخ راشد نحو خيمة وجلسنا فيها. وحدنا.

بلا شاهد. بدويان.

رجلان صقلتهما قرون من العواصف وسكون الريح.

بدأت الكلام مع كامل الاحترام الواجب لمن يكبرني في السن، مدركاً أن ما يجري هنا يشكل لحظة تاريخية. كلمته.

وضعتُ حُلْمِي في راحة يده. تقبله، على الفور.

أثناء صعودنا ممراً محفوفاً بالنخيل وزهور الخُبيزة أشار

الشيخ راشد إلى واجهة قصره.

- انظر أين نحن اليوم، بعد ثماني سنوات. يا له من تغير!

- تغيّر يُرى على وجوهنا، سأكمل قريباً الثامنة والخمسين
من العمر.

- ما زلت شاباً، يا أخي زايد. عمري أربعة وستون عاماً.
يُحكى دائماً عن أحلام الشباب وتطلّعاتهم. أتدري ما قاله لي
ولدي محمد من بضع سنوات؟ لم يكن قد أتمّ الثانية عشرة
من عمره: «الراشدون لا وجود لهم. الرشد هو موقف. إننا
لا نكفّ عن الركض وراء الأحلام التي راودتنا في الصّغر».
أعتقد أنه مُحقّق.

- أليس هذا ما فعلناه، أنا وأنت، قبل ثماني سنوات؟
الركض وراء أحلامنا.

سكت راشد ليأخذ نفساً عميقاً.

- أتشمّ هذا الأريج؟ نحن في أواخر نوفمبر وما زال
الهواء عابقاً بروائح الصيف. نحمد الله على أننا نعيش على
أرض مباركة.

- وتستحقّ منا كلّ الحبّ.

- بل أكثر من الحبّ، تستحقّ التضحيات. فجأة ركّز

عِينِيهِ فِي عَيْنِي وَقَالَ لِي:

- بَيْنَ الْإِخْوَةِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَوْجِدَ خَاسِرُونَ وَرَابِحُونَ. مُدَّ
لِي يَدَكَ، صَافِحْنِي.

صَافِحْتَهُ.

فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَشْرَقَتْ شَمْسٌ جَدِيدَةٌ عَلَى الْإِمَارَاتِ.

أسئلة الفصل الثامن عشر

1. جاء في هذا الفصل عبارة: «إنّ الظلم هو الذي يدفع الناس إلى الالتفاف على القانون، هو الذي يقود العالم إلى الفوضى»، ناقش مبيّنًا رأيك.
2. استنكر «فارس» قيام الشيخ زايد - رحمه الله - بمنح الحكومة الصّوماليّة أربعين مليون دولار. ما الذي تفهمه من ردّ الشيخ زايد على فارس، وهل توافق فارسًا على موقفه أم تخالفه؟
3. للشيخ زايد - رحمه الله - رأيّ / فلسفة في مسألة الحياة والموت ، وضحه، ثمّ بيّن موقفك منه.
4. ختم الكاتب الفصل بعبارة: «في تلك اللحظة أشرقت شمس جديدة على الإمارات»، ما الذي تفهمه من هذه العبارة؟ وضّح ذلك.
5. ما الدور المحوريّ الذي قام به الشيخ راشد - رحمه الله - ، اقرأ على زملائك من النّصّ ما يثبت ذلك.

19

رأيتُ أمي مجدداً، رأيتني ألعب حافي
القدمين بين أشجار النخيل، وأسبح مع
الصغار في أحواض الأفلاج. هل حصل
هذا أمس؟ لقد حصل أمس.

في هذا اليوم الرابع والعشرين من فبراير 1979، أظن أن
العمال الذين كانوا يعملون على جزيرة داس هم أول من
رأى البريطانيكا، اليخت الملكي، الذي يُقلّ الملكة إليزابيث
وحاشيتها، ينبثق من قلب الضباب البحري.

أنا كنت أنتظرها على رصيف ميناء زايد محاطاً بستة من
حكام الإمارات الأخرى.

لمحتُ الملكة وهي تعبر جسر النزول من اليخت إلى
اليابسة. وكان من الطبيعي أن أتذكر الحديث الذي دار بيننا
أثناء عشائنا في قصر باكنغهام.

- كم شجرة زرعتم حتى الآن؟

- بضعة آلاف.

- من أي الأصناف؟

- النخيل أساساً ثم الغاف والقرم.

- رائع، وسوف تتابعون، على ما أظن؟

- طبعاً، يا صاحبة الجلالة.

- بضعة آلاف زيادة؟

- بضعة ملايين.

كان ذلك قبل عشر سنوات، واليوم بوسعي الإعلان عن رقم محدد. أربعة ملايين.

لحظة دخول البريطانكا مياه الخليج أظن أن الملكة كانت بلا ريب على علم بأن يخطها يُحاذي المياه الإقليمية لإيران حيث قامت منذ أسبوعين ثورة بالغة العنف هزّت البلاد. خُلع

الشاه وأُجبر على اللجوء إلى المنفى وتولّى الحكم رجل دين كبير يدعى الإمام الخميني. أصبحت الإمبراطورية الإيرانية في خبر كان. وحلّت مكانها جمهورية إسلامية.

هذه الزيارة كانت ذات أهمية كبيرة بالنسبة للحكومة البريطانية كما أنها مهمة بالنسبة لنا. منذ اتخذ البريطانيون قرار الانسحاب من المنطقة أصبحت علاقاتنا خاملة إلى حد ما ومن المهمّ تنشيطها مجدداً.

في اليوم الأول اصطحبتُ جلالته والأمر فيليب، دوق أدنبره، لزيارة مستشفى الكورنيش الذي افتُتح منذ أكثر من سنتين. لم نصل بعدُ إلى مصافّ مستشفى سان توماس، الذي زرته مع أخي شخبوط، ولا البرسبيترين في نيويورك، لكن الأمور في تطوّر مستمرّ. فيما بعد أصبح مستشفى الكورنيش من أحدث دور التوليد في المنطقة، يعمل فيه أكثر من ألف موظف، ما بين ممرّضات، وأطباء، وقابلات، واختصاصيّ التصوير الشعاعيّ. وسيكون المؤسسة الطبية الأولى من نوعها من حيث القدرة على اكتشاف مرض القلب الوراثي وآفات السمع لدى الوليد.

بعد ذلك زرنا مدرسة الخبيرات البريطانية. حيث بدا المدير مسروراً بأن يوضح للزوّار أن البرامج هي نفسها المعتمدة في إنجلترا وبلاد الغال، ما بدا أنه أعجبهم.

رافقت الزيارة أجواء شبيهة بأيام العُطل. كان الناس يهرعون إلى الشوارع لرؤيتنا، أنا وجلالته، أثناء مرورنا بسيارة المرسيدس الفخمة، وهم يلوّحون بالعلم الملكي وعلم الإمارات العربية المتحدة. وكان ثمة منطاد أطلقتته شركة الطيران البريطانية يسبح في سماء زرقاء صافية.

ظهراً أقيمت مأدبة غداء في قاعات فندق مريديان الذي فتح أبوابه حديثاً. كان الغداء أقلّ فخامة من غداء قصر باكنغهام لكنه أكثر حرارة.

في المساء، بمنأى عن وسائل الإعلام، زارت الملكة قصر المشرف حيث كانت تنتظرها بفارغ الصبر سيدة شابة، هي فاطمة. لطالما حلمت زوجتي بهذا اللقاء. أتخيّل جيداً ما دار بينهما من حديث. قبل سنة، كانت فاطمة قد أنشأت «الاتحاد النسائي». وأمكن للملكة، بخلاف العديد من الأماكن في العالم حيث لا تزال المرأة غير مُقدّرة حقّ قدرها، أن تلاحظ أنّ المرأة عندنا تحتل المكان الذي تستحقه.

اختُتِمت فعاليات هذا اليوم في الساعة العاشرة ليلاً بمأدبة أُقيمت على متن اليخت الملكي.

في اليوم التالي دعوت الزوج الملكي لمرافقتي إلى جامعة العين «جامعة الإمارات العربية المتحدة»، أولى المؤسسات الثلاث المكرّسة للتعليم العالي بتمويل من الدولة وأقدمها.

عندما وصلنا إلى صحراء طفولتي اجتاحتني موجة من الذكريات.

رأيت أمي مجدّداً، رأيتني ألعب حافي القدمين بين أشجار النخيل، وأسبح مع الصغار في أحواض الأفلاج. هل حصل هذا أمس؟ لقد حصل أمس.

فيما نغادر الجامعة سألتني الملكة:

- هذا مدهش، يا صاحب السموّ، أنجزتم كلّ هذا في عشرين سنة فقط؟

- لنقل في خمس وعشرين سنة.

- رائع. لنقل إن هذا ربما استغرق قرناً عندنا.

كانت الآونة الأكثر إثارة في هذا اليوم مشاهدة سباق الهُجُن. اعتقدت أن هذا النوع من العروض، البعيد جداً عن الأسكوت الملكي⁽¹⁾، وعن قُبعة التشريفات⁽²⁾، والرِّداء المُذيل⁽³⁾، لا يمكن أن يترك الضيوف غير مُبالين. كنت بين الفينة والفينة أسترق النظر إلى الملكة. كانت عيناها تلمعان، ويشعر الناظر إليها أنها منبهرة بسرعة هذه الحيوانات. هذا ما أكّده تعليقها الذي ترجمه لي نشيبي: «هذا مشهد رائع وجذاب للغاية».

عند الظهر تناولنا طعام الغداء في الصحراء، بمنأى عن أشعة الشمس، تحت خيم كبيرة. لا شرائح سلمون، ولا تفّاح برّي، بل حمل مشويّ شهّيّ. لا مزمار قربة، بل موسيقى وفنون تقليدية.

اليوم التالي كان يوم أحد.

سلكنا طريق دُبيّ للقاء الشيخ راشد. أخي وصديقي ورفيق دربي استقبل ضيوفنا بحفاوة بالغة في قصره. اغتنم

(1) .Royal Ascot

(2) .Hauts-de-forme

(3) .Queues-de-pie

الزوجان الملكيان وجودهما في المدينة لحضور قدّاس خاص في كنيسة الثالوث المقدّس⁽¹⁾. ثم كان الاحتفال بوضع حجر الأساس لأول ناطحة سحاب في المدينة: مركز دُبي التجاري العالمي، الذي يبلغ ارتفاعه حوالي 150 متراً.

مع هبوط الليل رافقت الملكة والأمير إلى ميناء جبل علي حيث كان في انتظارهما زورق أقلهما إلى البريطانكا الراسية في عُرض البحر.

لحظة الوداع مال الأمير نحوي:

- تعلمون، إنكم حققتم هنا اثنين من أقدم أحلام الإنسان: تحويل الصحراء إلى أرض منخضرة، ومياه البحر إلى مياه للشرب. حلما صارا واقعاً.

6 أكتوبر 1981

عيوننا، أنا وفاطمة، شاخصة على التلفاز.

(1) Holy Trinity Church.

مصر تحتفل بذكرى حرب رمضان بمدينة نصر في
ضاحية القاهرة.

شاحنات مغطاة تمرّ.

الوقت منتصف النهار.

فجأة تنحرف شاحنة ثم تتوقف على بُعد أمتار من المنصة
الرئاسية.

من دون أن أرفع نظري عن التلفاز قلتُ لفاطمة:

- يحدث شيء غريب.

ما كدتُ أنهي جُمليتي حتى رأيت رجلاً بلباس الميدان
يقفز من الشاحنة. رمى بقنبلتين في اتجاه المشاهدين ودوى
انفجار. فجأة ظهر رجل آخر بيده رشاش اتخذ وضعية القتال
وأطلق النار على الرئيس أنور السادات. في الوقت نفسه هجم
عسكريان، تحت غطاء ناري لحمايتهما، وأمطرا بزخات من
الرصاص أطراف المنصة.

رفعت ذراعَيَّ نحو السماء؟

- أين يذهب العالم؟

مشاهد الرعب تتوالى على الشاشة.

سيطر الغموض التام.

ردّ الحرس الرئاسي على المهاجمين وأردوا اثنين منهم،
لكنهم لم يتمكنوا من إيقاع ثالث لم يُصب بأذى، وكان أمامه
مُتسع من الوقت لكي يُفرغ مخزن رشاشه على جثة الرئيس
المصري.

أعتقد أن يديّ كانتا ترتجفان؟

رَنّ هاتفي. كان على الطرف الآخر أخي شخبوط. كان
مصدوماً مثلنا، أنا وفاطمة.

قال بصوت جافّ:

- هل رأيت... يا زايد؟ هل تعرف ما يحدث؟

- نعم، هذا مروّع.

- لا أفهم، يا أخي، ما عدتُ أعي الأحداث التي تهزّ هذا الكوكب. أثمّة جنونٌ ما؟

- لا جواب عندي الآن. والأيام المقبلة ستوضح لنا الملابس أكثر.

تنحنح، ثم قال بصوت خفيض:

- ليحفظنا الله. حفظك الله يا زايد.

قطع الخط.

على الشاشة كانت المشاهد تتداخل. لم تكن سوى صراخ وتحركات مذعورة.

رَنّ الهاتف مجدّداً. هذه المرّة كان الشيخ راشد يكلمني من دبي.

في نظره هو أيضاً ثمّة جنونٌ ما.

اتفقنا على عقد جلسة طارئة لتقويم تداعيات هذا العمل الهمجي في المنطقة.

لم أتمكن إلّا في منتصف الليل من لقاء زوجتي في جناحها.

كنت مُنهكاً عصبياً. استلقيت على أريكة ولزمت الصمت طويلاً. لم يقتصر تفكيري على مقتل السادات بل فكّرت أيضاً في اغتيال الملك فيصل، والسيدة غاندي، وكثيرين غيرهم. فكّرت في كلّ هذه الجروح التي يُلحقها الإنسان بالإنسان منذ فجر التاريخ. ما الخلاصة التي يُفضي إليها كلّ عُنف ضدّ الإنسان إن لم تكن انتهاكاً: انتهاكاً لهويّته، لشخصيته، لإنسانيته.

سألني فاطمة، كما لو أنها قرأت أفكاري:

- هل تعتقد أن اللاعنّف هو الحلّ؟ أنديرا غاندي ماتت من جرّائه، ومانديلا أخفق. داعية النضال السلمي هذا انتهى به الأمر لإنشاء ذراع عسكرية ارتكبت أعمالاً تخريبية.

- طبعاً، اللاعنّف مجازفة، لكن هذه المجازفة على وجه التحديد هي التي تعطي حياة الإنسان معنى. إن تفوّق الإنسان يكمن في احتمال المجازفة بالحياة وتقبّل الموت بدلاً من المجازفة بالقتل لكي لا يموت.

وافقت فاطمة.

- أنت مع ذلك رجل مدهش، يا زايد. عندما أستمع

إليك وأعدّ الإنجازات التي حققتها، والأموال التي أنفقتها
في عمل الخير، أقول إن كان في العالم من يستحقّ الحصول
على جائزة نوبل للسلام فهو أنت.

هزرتُ رأسي.

- لو كنت مرشحاً للجائزة لفكرت كثيراً قبل قبولها. أنا
صادق في ذلك. كثير من الناس يبدلون الشرف بالتشريفات.
أعتقد أن درعاً أو وساماً يزيّن صدري يضمن لي مكاناً
أفضل في الجنة؟ لا يا عزيزتي، ما يهمني هو المكان الذي
أشغله في هذه الدنيا، في قلب شعبي، وبين أقربائي. ثم إن
راشد يستحقّ الجائزة بقدر ما أستحقها إن كنت كذلك فعلاً.

- صحيح. أعترف أنكما، أنت وهو، نجحتما في خلق
واحة للسلام في بيئة كلّ شيء فيها مجرد نزاع، هو رجل
الأعمال، وأنت رجل السياسة. أحدهما يكمل الآخر.

- ثمة شيء مؤكد، أنّ كلاّ منّا يكمل الآخر بروعة.

نهضت واستأذنت:

- سأذهب لأخذ قسطاً من الراحة. أنا خائر القوى.

* * *

استيقظتُ، منطوياً على نفسي نصفين في سريري، يداي
مشدودتان إلى صدري، وملتقطاً أنفاسي. صرخت: «يا إلهي،
رحمتك!».»

أدعو الله ألا يحدث هذا أبداً. لا في بلادي ولا في أي بلد
في العالم.

أسئلة الفصل التاسع عشر

1. ما الأهمية التاريخية لزيارة ملكة بريطانيا لدولة الإمارات العربية المتحدة في عام 1979؟
2. تتبّع في هذا الفصل مجريات وأحداث زيارة ملكة بريطانيا التاريخية لدولة الإمارات العربية المتحدة، ما الذي يعكسه ذلك في نظرك؟
3. أشار الأمير فيليب في نهاية زيارته لدولة الإمارات إلى بعض أحلام الإنسانية التي تحققت في الدولة؟ ما هذه الأحلام؟ وما دلالة ذلك؟
4. ما الجانب الإنساني الذي تستنتجه من شخصية الشيخ زايد - رحمه الله - في موقفه من اغتيال الرئيس أنور السادات والعنف الذي يحدث في العالم بصورة عامة؟
5. قال الشيخ زايد - رحمه الله - : « كثير من الناس يبدلون الشرف بالتشريفات ». ما الذي قصدَهُ - رحمه الله - في هذه المقولة، بين موقفك من هؤلاء الناس.

6. كيف وصفتِ سُمُوَّ الشَّيْخَةِ فاطمة - حفظها اللهُ -
العلاقةَ بينَ الشَّيْخِ زَايِدٍ والشَّيْخِ رَاشِدٍ - رَحْمَهُمَا اللهُ - ؟
وما دلالات هذا الوصفِ وأبعاده على دولة الإمارات في
الماضي والحاضرِ والمستقبلِ ؟

20

كانت طريق العودة طويلة. أطول من
أي وقت مضى. الصحراء، البحر،
النخيل تغفو لامبالية. عندما نتألم نريد
حتى من الطبيعة أن ترأف بنا.

الأول من أغسطس 1990

بدا وجهه فارس شاحباً وهو يناولني جهاز الهاتف.

- هذا الشيخ مكتوم. قال إن الأمر عاجل.

ألقيت نظرة على ساعة الجيب. كانت العقارب تشير إلى

11:15 ليلاً.

الشيخ مكتوم هو أكبر أبناء الشيخ راشد. عرفته منذ كان
طفلاً، وها هو يناهز الخمسين من العمر. كان لديه ميلٌ فطري

للتجارة والأعمال كأبيه. شخصية مرموقة. فكّرت في الأسوأ
على الفور. أن يطلبني مكتوم في هذه الساعة المتأخرة من
الليل فلأمر على جانب من الخطورة.

- حرصت على إبلاغك بأسرع وقت، يا شيخ زايد. منذ
حوالي ساعة تعرّض أبي لسكتة دماغية.

- باسم الله الرحمن الرحيم. قُلْ لي إنه حيّ!

- حيّ، لكن حالته حرجة جداً.

- أين هو؟

- نُقِلَ إلى مستشفى دُبي.

- أنا قادم.

انتزعت سائقي من فراشه، وبعد ساعة وخمسين دقيقة
كنت قرب سريره. وكان أولاده الأربعة هناك.

انحنيتُ نحو أخي وصديقي ورفيق دربي وقبّلتُ جبهته.
لم يُبد أيّ ردّة فعل. صدره يعلو ويهبط بنفس قصير، متقطع.
للمرّة الأولى منذ عرفته، قبل أربعين سنة، بدا هذا الرجل

الصخرة، الرجل القلعة، بلا حول ولا قوّة.

تداعى الأفكار أحياناً على نحو غريب جداً.

فجأة عاودني مشهد.

راشد يقف أمام صقلاوي، جواده المفضّل. بإشارة من يده
يرفع الحيوان قائمته الأمامية. بإشارة أخرى ينحني احتراماً.

أفكارنا غير متوقّعة.

شعرت بأني أعبر أنهاراً لامرئية، من تلك التي تجرف في
جريها الذكريات.

كان بيننا خصومات. تواجها مرّات لكن بشرف، ولم
نخلّ يوماً بالاحترام المتبادل. في أشد اللحظات تعقيداً أعرب
عن رعاية أبوية حيالي مع أنه لا يكبرني إلا بست سنوات.
أحياناً كان يمضي ساعات سُهاده في التحدث معي عبر
الهاتف عن الخطط التي تستنزفه ويهمه نجاحها أكثر من أن
يعيش زمناً أطول إضافياً. المسؤوليات التي نتحمّلها تفصلنا
كثيراً عن الناس، والوظيفة غالباً ما تطغى فيها الأبهة على
الصدقة الحقيقية. لم تكن هذه حالنا.

سألت مكتوم:

- ماذا يقول الأطباء؟

- يقولون إن التشخيص غير مطمئن. يجب الاحتفاظ بالأمل.

قلتُ مُرتلاً:

- «تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا»⁽¹⁾.

ثمَّ عدتُ أدراجي ونفسي مفعمة حزناً.

كانت طريق العودة طويلة. أطول من أي وقت مضى. الصحراء، البحر، النخيل تغفو لامبالية. عندما نتألم نريد حتى من الطبيعة أن ترأف بنا.

قبل سنة، يوماً بيوم، توفي أخي شخبوط رحمه الله، ذات 11 فبراير من عام 1989. مات وهو نائم، ولم أكن إلى جانبه. رحلَ بتكتمٍ مثلما عاش. كان في الثالثة والثمانين من العمر.

- اشتقتُ إليك، يا أخي، اشتقنا إليك.

(1) سورة الأحزاب، الآية 3.

- اشتقتُ إليكم أنا أيضاً. لا البحرين ولا بيروت لهما
سحر أرضنا.

سنة مرّت. ما زلت أسمع كلماته تتردّد في داخلي بقوة.
لم أجرؤ على التفكير في أنّ مصيبة قد تحلّ براشد أيضاً.
سيكون هذا من قبيل الظلم. لكن ما قيمة رجائي؟ أليس مصير
الناس بيد الله؟ أليس هو، وهو وحده، صاحب القرار؟ ألم
يقُل: «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً
وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ»⁽¹⁾.

لم نكن بعيدين عن القصر عندما بثّت الإذاعة الخبر الذي
كنا نخشاه كلنا: الجيش العراقي دخل إلى الكويت.
هذا الغزو كان بالتأكيد أكبر صدمة في حياتي.
إذن هو هذا الكابوس الذي رأيته في منامي.

لم تكن الكويت، في نظرنا نحن الإماراتيين، مجرد بلد
جار. كانت جزءاً لا يتجزأ من حياتنا اليومية. عدد من أبنائنا
تعلموا في المدارس الكويتية. مواطنونا يتلقون العلاج في

(1) سورة الأعراف، الآية 34.

الكويت وبالعكس. كنا أكثر من شعبين مترابطين.

بلغتني أولى التفاصيل المتعلقة بالغزو صباح الثاني من أغسطس 1990. أذكر أنني طلبت ثلاث مرّات من وزير الدفاع أن يكرّر ما قاله عبر الهاتف. الحدث صحيح إذن. أعلنت حالة الطوارئ ووضعت القوّات المسلّحة في حالة تأهب، بالاتفاق مع الشيخ مكتوم، الذي كان يقوم منذ ثمان وأربعين ساعة بمهامّ نائب الرئيس.

كان القرار الأول الذي ينبغي اتخاذه هو استقبال إخواننا وأخواتنا الكويتيين النازحين عن بلادهم. وضعنا في تصرّفهم فنادقنا ومبانينا وفتح لهم عدد من مواطنينا بيوتهم وقلوبهم. مرافئنا أصبحت مناطق رُسوّ للأساطيل الأمريكية والبريطانية. ولم يكن أمامنا من خيار إلاّ الانضمام إلى التحالف المُسمّى «عاصفة الصحراء».

ذات يوم أعلن غاندي: «إذا كان الخيار بين الجبن والعنف فأنا أنصح بالعنف».

في السابع من أكتوبر فجراً، وفيما الغضب والضوضاء يملآن الأثير، أبلغني مكتوم أن أباه أسلم الروح لبارئها. انتابني

حزن شديد واغرو رقت عيناى بالدموع. فى أقلّ من سنتين
فقدت أخوين، أخ بالدم وأخ بالقلب، جَرِيَا فى عُروقي مجرى
الدم وسيجريان دائماً.

يونيو 1992

- زايد، اعذرني، لكن الوضع يجب أن يتغيّر. من غير
المعقول أن يعمل الناس على إفقار بعضهم بعضاً على هذا
النحو.

كان من النادر أن تأتي فاطمة إلى مكتبي في القصر. إن
كان لديها اقتراح أو موضوع تعرضه عليّ كانت تفضّل أن
نناقش الأمر معاً في المنزل. والأندر أن تبدو مغتاضة إلى هذا
الحدّ.

سألته:

- بماذا يتعلّق الأمر؟

- بالموضوع الذي تكلمنا فيه مراراً... المهر. المهر...
فعلاً.

عندنا وفي العالم المسلم عامة يُعتبر المهر هدية يقدمها الزوج إلى زوجته. بخلاف العادة في بعض الثقافات الآسيوية حيث تُعطى هذه التقدمة إلى عائلة الزوج، وفي مجتمعات أخرى لا تُعطى للزوجة بل لوالدها. بالنسبة إلينا يُعتبر المهر نوعاً من الضمانة من قبل الزوج والتمهيد لتحمل مسؤولياته الزوجية. غير أن هذا المبلغ هو، فوق كل شيء، وسيلة تمكن الزوجة من العيش وحدها بضعة أشهر في حال وفاة الزوج أو مرضه. للأسف، لم تعد هذه المكرمة إحساناً بل أصبحت عبئاً.

كلفة زواج نموذجي يمكن أن تبلغ مئات آلاف الدراهم التي تنفق على حفلات الزفاف والاستقبال الباذخة التي تتجاوز الحد، وعلى شراء المجوهرات والملابس. وغالباً ما تكون النتيجة اضطرار كثير من الأزواج الشبان للاستدانة من البنوك والغرق في الديون. أمّا الآخرون فيُكرهون على حياة العزوبية.
هزرتُ رأسي.

- أنا أدرك المشكلة، قلتُ لها. فضلاً عن أنني سمعت بأن بعض العائلات أصبح أكثر جشعاً، مما أدى إلى ارتفاع عدد الفتيات اللواتي ما عدن يجدن أزواجاً. تعلمين جيداً أنني اعترضت دائماً على الشطط في بعض المهور التي ترهق على نحو مُفرط ميزانية الأزواج الشبان، وهم في أمس الحاجة إلى كل إمكاناتهم في بداية حياتهم الزوجية. بدلاً من إنفاق مبالغ طائلة في الفنادق الفخمة، لماذا لا يقيمون أفراحهم كما فعلنا نحن، وكما فعل أجدادنا. يكفيهم أن ينصبوا خيمة كبيرة، يحيط بهم الأصدقاء الحقيقيون، أولئك الأعزاء على قلوبهم. وسوف يساعدهم الجيران على إعداد الطعام فيأتي كل منهم بما في متناوله. هذا أسهل من أن يأخذ العريس عروسه إلى فندق فخم، خالٍ من أي حرارة إنسانية، ويعرضها على مرأى من مئات الغرباء الذين يلتقطون صوراً لها. ما الحل الذي تقترحينه؟

قالت بلهجة مرحة:

- أنت الرجل. أنا أطرح المشكلات وأنت تجد الحلول.

حلول، لا يوجد مئات منها.

- أمهليني بضع ساعات لأفكر.

أمهلتنى فاطمة ستة أشهر.

في الشهر السابع اتخذت قرارى. عقدت مجلساً ودعوت
عدداً من أعضاء الحكومة المعنيين وأعلنت:

- تعلمون جميعاً المشكلة التي يعاني منها الشبان بسبب
المهر وآن لنا أن نضع حداً لها. منذ أشهر وأنا أفكر في
المشكلة. استجوبت العديد من العائلات، وتوصلت إلى
نتيجة.

سكت لأعطي ما سيأتي مزيداً من الوزن، ثم:

- على الحكومة، علينا أن نأخذ على عاتقنا المهر ونفقات
الزواج.

حدثت جلبة وبدأت الدهشة على الوجوه.

- لكن هذا مستحيل، يا طويل العمر. يمكن لأب أن
يساعد ابنه، يمكن لعم، لأُم، أو لأي كان، أن يساعدوا على
الزواج. لكن في هذه الحالة ليس للحكومة أن تتدخل، لا،
هذا مستحيل.

- إن فهمتكم جيّداً، يمكن للحكومة بكل بساطة أن تقدّم للناس بيوتاً، أو تسدّد قرضاً لإنسان مُتعثّر، لكن لا يمكنها مساعدة زوجين شايين على بناء مستقبلهما.

- هذه مسألة أخرى، اعترض وزير، الأمر هنا يتعلّق بزواج، أي بمسألة شخصية بحتة.

- غلط، الأمر هنا يتعلّق بمسألة وطنية، بمستقبل شعبنا. إن تقديمنا هذه المساعدة يعني في الوقت نفسه أننا نضع حداً لمغالاة بعض العائلات في قيمة المهر.

التفتُّ نحو وزير الشؤون الاجتماعية وطلبت منه إعداد دراسة حول الموضوع في أسرع وقت.

في التاسع من ديسمبر 1992 وقّعتُ القرار. سمّيناه «صندوق الزواج». يسمح بموجبه تقديم مبلغ قدره عشرون ألف دولار لكل رجل يرغب في الزواج، شرط أن يكون إماراتياً ولا يتجاوز دخله مستوى معيّنًا. وعليه أن يتعهّد بتسديد هذا المبلغ أقساطاً. وفي حالة الولادة يحق له الحصول على خفض الدين بنسبة عشرين في المائة عن كلّ ولد.

حلم فاطمة تحقّق.

فبراير 1993

من بين كلّ الأحلام التي شكّلت معالم في حياتي حلمٌ رأيتُه بعد أسابيع من وفاة شخبوط ثم راشد ولم يكفّ عن ملاحقتي.

ذات ليلة كنت مستلقياً في فناء قلعة المويجعي، في العين، أتمتع بتأمل القبة السماوية المرصّعة بالنجوم. لم تكن هذه المرّة الأولى التي أسترخي فيها مفتوح العينين أعدّ كوكبة النجوم التي ستعيش لمليارات السنين بعد موتنا. في لحظة ما غفوت وظننت أنني أسمع صوتاً يهمس لي: «لقد أطاع أمر السماء». كانت تلك هلوّسة طبعاً. أو لعلّ السماء تصدر إلينا أوامر يسمعها بعضنا حيث لا يلحظ الآخرون سوى صمت ثقيل؟

عندما فارقتني النعاس فكّرت: «ما الذي يبقى عندما لا أعود هنا؟ ما الذي سيحفظونه عني؟». ومن فكرة إلى فكرة وجدّني أردّد هذه الكلمات: «لقد أطاع أمر السماء»،

وتجسدت أمامي رؤية. تخيلت صرّحاً، صرّحاً مفتوحاً أمام
كلّ الزائرين، من كلّ الملل والنحل، صرّحاً منارة لمجد فنّ
العمارة الإسلاميّ. فأيّ صرح سيكون أعظم من جامع؟

سيكون أبيض كالطهارة.

أبيض كوردة بيضاء.

نقيّاً كقلب طفل.

خطوطه ليّنة للناظر.

سيكون قصيدة تبجّل الخالق العليّ القدير، مكتوبة
بكلمات من رُخام، ومن ذهب، ومن خزف صقيل، ومن
حجارة نفيسة. لكن من دون إفراط. مرآة للقمر.

ما من ثقل، بل هندسة أثيرية، تكاد تكون لا مادية. الإلهي
في ملاقة الإنسان. تخيلتُ أيضاً أن هذا البناء سوف يتنفس
على إيقاع الدورة القمرية. عندما يصبح القمر بدرّاً سوف
يتشح بنور أبيض وبارد، ثم يتحوّل تدريجاً من الأبيض إلى
الأزرق.

ومن الماء. من ماء كالبُحيرة، من ماء كالبحر، من الماء

الذي يرمز إلى الثراء الحقيقي؛ ماء آبار العين العتيقة، ماء الأفلاج المحفورة بعرق أرواحنا، من الماء في حوض يحاذي إحدى واجهاته، معظماً جماله. لبناء هذا الصرح سوف يُؤتى بخيرة موادّ البناء من إيطاليا، من اليونان من ألمانيا، من المغرب، من الهند، من تركيا، من إيران، من الصين، من العالم كله، لأن العالم كله سيكون له نفاذ إليه.

وفي الداخل، في قاعة الصلاة، سجادة تغطي الأرض، أكبر سجادة في العالم، ولم لا تكون من مدينة مشهد، منسوجة بأيدي النساء؟

للمرة الأولى في حياتي لن أدخل في سباق ضد عقارب الساعة، لكن سأضع ساعة عقاربها متوقفة.

تاج محلّ بُني حُبّاً لامرأة. هذا المسجد سوف يُبنى حُبّاً
لله.

أسئلة الفصل العشرون

1. ما الذي تستشعره من موقف الشيخ زايد - رحمه الله - من مرض الشيخ راشد - رحمه الله - ؟ بماذا ستشعر لو كنت مكانه؟
2. تغلب مشاعر الحزن والصدمة على الجو العام في هذا الفصل، تتبع الأحداث وبيّن الأسباب التي تقف خلف هذه المشاعر.
3. ما مظاهر الاسراف والبذخ التي ذكرت في هذا الفصل؟ ما رأيك في هذه المظاهر، تحدّث مع زملائك واضعاً حلول لهذه المظاهر.
4. تحقّق حلم سموّ الشيخة فاطمة - حفظها الله - بإنشاء «صندوق الزواج»، ما الأبعاد الاجتماعيّة والاقتصاديّة والنفسية لذلك على الشباب المقبلين على الزواج من وجهة نظرك؟
5. ورد في هذا الفصل أنّ الشيخ زايد - رحمه الله - حلم ببناء جامع كبير رائع.

- هل تحقّق هذا الحلم؟

- ما هو هذا الجامع؟

- لماذا سمّي جامعاً، وليس مسجداً؟

- تحدّث عن فن العمارة والتصميم الهندسي لهذا الجامع.

- ناقش مع زملائك الأبعاد الحضارية والتاريخية لبناء هذه التحفة المعمارية.

- اقرأ الفقرة التي تصف هذا الجامع واستخرج وظيفة التشبيهات والاستعارات فيها.

6. اشرح العبارة التي قالها الشيخ زايد - رحمه الله - في نهاية هذا الفصل:

- «للمرّة الأولى في حياتي لن أدخل في سباقٍ ضدّ عقارب الساعة، لكن سأضع ساعة عقاربها متوقّفة»

21

الطبيعة تبقى. الناس يزولون.
الصحراء وحدها لا تتأثر ومثل الزمن
تعرف الحقيقة.

كليفلاند، أوهايو، 6 فبراير 2003

حالما فتحت عينيّ أحسست بطعم مرّ في فمي.

هذا من أثر التخدير طبعاً.

لكن ما عدا هذا الإشعار، أشعر بأنني في حالة جيدة
بالنسبة إلى رجل خضع لعملية جراحية استمرّت ساعتين. قبل
ثلاث سنوات أُجريت لي عملية زرع كلية. ثم ارتأى الأطباء
أنّه كان لا بدّ من إجراء عملية أخرى. هل من أمر أكثر شيوعاً
من التذكير بقيمة الصحة؟ «ما فائدة المال من دون الصحة؟»

قلت ذات يومٍ للمرحوم أخي. لا أعتقد أن ثمة قولاً أصدق من ذلك.

كان نشيبي جالساً في أحد أركان الغرفة، يقرأ.

أردت أن أستقيم في سريري لكن ذلك لم يكن ممكناً مع كل هذه الأدوات التكنولوجية التي تحيط بي. قطارة، مسرى كهربائي، وهذه الشاشة الصغيرة التي تتذبذب عليها بيانات خطية على وقع نبضي. ييب، ييب، ييب، الإيقاع المنتظم والرتيب يطمئن إلى أن الحياة تنبض دائماً.

أول سؤال طرحته على الطبيب جون تريفور يوم أبلغني بضرورة إجراء عملية زرع جديدة هو «من هو الواهب؟». بدا أنه وجد السؤال بريئاً فسرّه ذلك وأشرق وجهه بابتسامة عطوف: «يا صاحب السموّ، ليس لدينا أي فكرة عنه؛ لا يمكننا أن نعرف هويّته مسبقاً؟ أهو أسود، أم أبيض، أم أصفر؛ أو هو رجل أم امرأة؟ لا نحصل على هذه المعلومات إلاّ يوم إجراء العملية».

هذا أمر منطقي. خطر لي هذا السؤال شكلياً. من بين جميع المسوّغات التي ينطوي عليها زرع عضو غريب في

الجسم واحدة ليست بأقلها شأنًا: وهي أنها تشفيك من أي نزعة عنصرية. المتلقي الراسخ في أفكاره المسبّقة هل يجرؤ على رفض العضو المعطى له بحجّة أن لون بشرة الواهب ليس كلون بشرته، أو لا يشاطره إيمانه الديني؟ غريب أمر الموت كيف يلغي بضربة واحدة الأفكار المسبّقة. فلنذكر دائماً أن الله لم يخلقنا مختلفين إلاّ لأسباب لا نعلمها. وأنا أصغي إلى الطبيب جون تأكد لديّ (إن كان من حاجة إلى ذلك) أن العنصرية لا تتسق مع أي منطق لأنها تقوم على احتقار الإنسان باسم الشيء الوحيد الذي لم يكن مسؤولاً عنه.

منذ ثلاث سنوات يعيش في جسمي عضو غريب. لا يهمني من أيّ إنسان جاءني.

- هل تشعر بأنك في حال جيّدة، سموك؟

- نعم، يا صديقي، جيّدة قدر الإمكان. ما الأخبار؟

أغلق نشيبي كتابه واقترب من السرير.

- تريد أن تتحدّث عن العراق، أفترض.

- طبعاً، ما هي الأوضاع الآن؟

- أخشى، للأسف، أن الحرب أصبحت محتّمة. منذ
مأساة 11 سبتمبر يبحث الأميركيان عن كبش محرقة. وقد
وجدوه في شخص الرئيس العراقي.

كان نشيبي على حقّ. الأمر محزن جداً، لكن يحدث
أحياناً أن تكون لغة بعض السياسيين مدروسة بحيث يبدو
الكذب حقيقة وإعطاء المعدن مظهر الذهب.

- استمعت أمس من التلفاز إلى وزير الدفاع، كولن باول،
كان يتحدث في الأمم المتحدة. لقد أكّد بثقة عجيبة أن بلاده
لديها أدلة على أن صدام يمتلك أسلحة دمار شامل. حتى أنّه
لوّح بقارورة زعم أنها تحتوي بكتيريا يُفترض أنها أخذت من
العراق. لا أحد ينخدع يا نشيبي.

- الناطق باسم البيت الأبيض يتحدّث عن «عملية حرّية
العراق» شيء مُسلّ...

- مُسلّ؟

- الأحرف الأولى لهذه العبارة المؤلفة من ثلاث كلمات

بالإنجليزية تشكل كلمة (OIL⁽¹⁾)، نفط.

منذ اليوم الأول لانفجار هذه الأزمة لم أكفّ عن التفكير في حل من شأنه أن يهدئ النفوس. يكفي أن يتخلى صدام عن السلطة ويترك العراق.

- وأين يذهب، سُموّك؟

- يأتي إلينا. أنا مستعد لاستقباله، هو وجميع المقرّبين منه، وإذا اقتضى الأمر أقدم لهم دعماً مالياً. أتعهّد أيضاً تجنيبه كلّ ملاحقة قضائية. ويمكنه أيضاً أن يستفيد، هو وعائلته، من أفضل عناية طبية ويتلقى أولاده أفضل تعليم. هذه هي الوسيلة الوحيدة لوضع حدّ للآلام التي يعاني منها الشعب العراقي منذ سنوات، ولتلافي الحرب. بعدها يمكن للعراق أن يوضع تحت سلطة الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية ريثما تتشكل حكومة عراقية جديدة.

وافق نشيبي بحركة من رأسه.

- الفكرة تبدو لي ممتازة لكن كيف يمكن إقناع صدام؟

(1) Operation Iraqi Liberation.

- نبدأ بنقل هذا العرض إليه. ناولني الهاتف، أرجوك،
واطلب لي ابني خليفة.

في اليوم التالي تناقلت الصحافة العالمية اقتراحي. رحّب به
جيراننا العرب بالإجماع وكذلك العديد من الدول الأوروبية
والآسيوية. خلال بضعة أسابيع كنت مقتنعاً بإمكان الأخذ
بهذا الاقتراح. اعتقدت حقاً أن صدام سوف ينتهز هذه الفرصة
ويخرج من وكر الدبابير. للأسف، ذهبت جهودي كلّها
سُدَى. بعد أن أعطى الرئيس العراقي الانطباع بأنه يرحّب
بمبادرتي لم تبادر الجامعة العربية، ويا للأسف، إلى دعوته
لقبول المبادرة كما طلب هو حفاظاً على ماء وجهه.

يوم مغادرتي عيادة كليفلاند، في 12 مارس، كانت
«عملية حرية العراق» قد بدأت. بذلك كانت نهاية صدام،
ونهاية مرحلة. وفتحت أبواب الشكّ وعدم التوازن.

بناءً على توجيهاتي جيء بكتل الرخام الأنقى في العالم،
من كرارا في إيطاليا، من مقدونيا، وحتى من الصين، وأكثر من
ألفي عامل انكبوا على تجميع هذا المركّب المعقّد العملاق.

كانت أمنيّتي أن يعبر هذا المسجد الزمن من دون أن يتصدّع مثل كثير من المباني في بضعة عقود. كان الأمر الأكثر تعقيداً هو إيجاد الموقع المناسب. معظم الجزيرة كان مكتظاً بالمباني، فأثرنا اختيار أرض غير مستغلّة في الطرف الجنوبي، غير بعيد عن البحر، تجاه حيّ المقطع. هناك على مساحة 22 ألف متر مربع بُنيّ تل اصطناعي ارتفاعه تسعة أمتار لكي يكون المسجد مشرفاً على الجوار. كنت قد اعتراني اليأس لأن الأشغال التي كانت قد بدأت قبل عشر سنوات توقفت بسبب عدم التواصل بين الفرق العالمية الملتزمة بالعمل. لذلك قرّرت استدعاء شركتين معروفتين بجديتهما: هالكرو وإمبرجيلو⁽¹⁾. الأولى بريطانية، والثانية إيطالية. ومنذ ذلك الحين سارت الأمور على نحو أفضل.

المشكلة الكبرى التي واجهها المهندسون كانت ملوحة باطن الأرض والهواء. إن لم نُرد أن يقرض الملح الأساسات فعلينا أن نجد وسيلة لبناء دعائم محكمة تصمد أمام كلّ اختبار. عمل هائل.

(1) Halcrow et Impregilo.

ما زلت أسمع صوت عزيزي فارس.

- هل تتذكر أيامَ قرّرتَ حفر الأفلاج في العين؟ عشية بدء العمل رأيتك ترسم بغصنٍ أشكالاً على الرمل، وتتكلم وحدثك. كنت تقول: «هنا ستقوم مدرسة ذات يوم، وهناك مستشفى، وهناك مدرسة أخرى»، والآن، بعد مرور سنوات، فعلت الشيء نفسه، سوى أن الأمر يتعلق اليوم بأكبر مسجد في العالم. بصورة ما، أنا مطمئن: أنت لم تتغير.

لم يخطئ إلا في نقطة واحدة: لا أنوي مطلقاً بناء أكبر مسجد في العالم، بل مسجد يجسد النبل والطهارة. تحفة فنية.

الآن تُصوّب المنارات الأربع سهامها على ارتفاع 470 متراً. وفي بعض الأيام يمكن رؤيتها وهي تداعب بطن الغيوم، أو تلقي بظللها على القباب. عددها اثنتان وثمانون قبة بسبعة أشكال مختلفة. حرصت أيضاً على أن تُزيّن الألف عمود التي تسند القناطر بتيجان أسفلها يحاكي قمم النخيل.

في الوقت الحاضر يتقدّم المشروع بخطى واسعة. وكنت فخوراً بتعيين امرأة مديرة تنفيذية للمشروع هي خولة

السليمانى. نالت شهادة الهندسة فى جامعة العين التى أسستها منذ ثلاثين عاماً تقريباً وهذا ما زاد من سعادتى. كما كنت آمل يوماً بعد يوم باتت المرأة تعتبر كما هى فى الحقيقة: مكّمة للرجل.

عزيزتى فاطمة تجاوزت نفسها. هى، التى عرفتها فى مطلع شبابها، لا تكاد تعرف القراءة والكتابة، تبدّ اليوم النجوم. عملت بلا انقطاع. فى كلّ مكان تقريباً تساعد السكان المحتاجين، فى فلسطين، وكوسوفو، والعراق. واعترافاً بعملها كُرمّت من قبل خمس هيئات تابعة لمنظمة الأمم المتحدة، منها صندوق الأمم المتحدة للطفولة⁽¹⁾ ومنظمة الصحة العالمية⁽²⁾. وأسمح لى نفسى بالقول إنها استُمرّجت بشأن حصولها على وسام ماري كوري. وفى هذه الحالة تصبح الشخصية العربية الأولى والشخصية العالمية الثالثة التى تحوز هذا الشرف⁽³⁾. الحياة معجزة حقاً.

(1) UNICEF.

(2) OMS.

(3) مُنحت هذا الوسام فعلاً فى عام 1999.

من المقرّر أن تنتهي الأشغال في شهر رمضان عام 2007.
كنا في العام 2003. تُتابع خولة السليمانى تقدم العمل بخطى
حثيثة ليتمّ احترام الموعد. للأسف يهمس لي صوت داخلي
بأنني لن أكون حاضراً في ذلك اليوم. صحتي تنحرف يوماً
بعد يوم. القول إنّ أيامي كانت محسوبة لا يعني شيئاً كبيراً.
هذا هو الحال منذ ولادتنا وبالنسبة إلينا جميعاً. لكن عدم
اليقين في المكان، وفي الزمان، الذي يحول دون تبين الواحة
التي نتقدّم نحوها، عدم اليقين هذا يتقلّص بقدر اشتداد الألم
الذي يُلمّ بي.

كما يرى الفارس الذي يسير ليلاً بين الكثبان شروق
الشمس ويكتشف شيئاً فشيئاً خط الأفق الرمادي، بدأت ألمح
لحظة رحيلي.

بعد عودتي من كليفلاند ذهبت للصيد. كنت على موعد
مع المتعة، هذه المتعة التي لا حدّ لها والتي لطالما أحببتها
طوال حياتي. في المقابل ضعفت قدرتي على مقاومة التعب.
رأيت بوضوح أن جوادي شعر بذلك. شعر بتلك اللحظة التي
انفصلت فيها إرادتي عن قوّتي.

الطبيعة تبقى.

الناس يزولون.

الصحراء وحدها لا تتأثر ومثل الزمن تعرف الحقيقة.

ما أخشاه هو أن يتخيّل الذين سيتكلّمون عني، ويجمعون ما يدبّج من مدائح لي، بعد وفاتي، أنني كائن كامل، منزّه عن كلّ خطأ. إنّ في ذلك لضللاً. أخشى التبجيل. التبجيل حبّ أعمى. أفضل أن أحظى بتقدير أولئك الذين يرون. هل سيُقال عني إنني كنت وطنياً، قومياً، مدافعاً عن الإسلام، إنسانيّ النزعة، كنت كلّ ذلك في آن معاً.

مررت بلحظات ضعف، عرفتُ الشكّ ونفاد الصبر والضيق. ولا أدري إن كنت الأب الصالح والزوج المثاليّ. أسرتي تعرف الجواب. ربّما ارتكبت أخطاء على غير إدراك مني. لا. لست كائناً كاملاً، الكمال لله وحده. إذا ما أريد الاحتفاظ بذكرى عني فليقلّ: «كان هو الروح التي أضفت على الصحراء اللون الأخضر».

وهذا المساء، بينما الساعة تتقدّم، أصليّ، أبتهل إلى الله تعالى أن يرزقني الجنّة، ويكون فيها حولي بضعة صقور، ويحلّ السلام على الأرض.

أنا من عائلة آل نهيان، من قبيلة بني ياس.

اسمي زايد بن سلطان آل نهيان.

أسئلة الفصل الحادي والعشرون

1. علّل سبب قول الشيخ زايد - رحمه الله - : «ما فائدة المال من دون الصحة؟»، ما رأيك بهذا القول. ناقش ذلك مع زملائك.
2. قال الشيخ زايد رحمه الله: «لا أنوي بناء أكبر مسجد في العالم، بل مسجد يجسد النبيل والطهارة» اكتب فقرة مفسّراً وجهة نظر الشيخ زايد - رحمه الله - من وراء هذه العبارة، ثمّ اختتم الفقرة بوجهة نظرك أنت.
3. من هي «خولة السليمانى»؟ ولم تمّ اختيارها؟ وما دلالة تعيينها في منصبها؟

4. ما الدور الذي قامت وما تزال تقوم به سموّ الشيخة فاطمة بنت مبارك - حفظها الله - ، والذي منحت من أجله وسام «ماري كوري» في عام 1999؟
5. في مشهد الصّيد الأخير الذي ذهب به الشيخ زايد - رحمه الله - ، شعر بانفصال إرادته عن قوّته، ماذا يعني ذلك؟ وكيف يصل الإنسان إلى هذه المرحلة؟
6. « كان هو الرّوح التي أضفت على الصّحراء اللّون الأخضر»، ماذا تعني لك هذه العبارة؟ وما سرّ جمال التعبير فيها؟

أسئلة ختامية

1. ابحث خلال هذه الرواية على مقولة أو موقف يدل على أن الشيخ زايد - رحمه الله - كان حكيماً.
2. اقترح ثلاثة عناوين أخرى للرواية وناقشها مع زملائك مبينا ارتباطها بمحتوى الرواية
3. هل ترى أن الكاتب كان موفقاً في وصف المكان؟ حدد مواضع الوصف وبين أثر اختيار الكلمات الوصفية على بيان المكان للقارئ.
4. بدا الشيخ زايد شاعراً مرهفاً للإحساس، اختر البيت الذي أعجبك من فصول الرواية معللاً سبب اختيارك.
5. ظهرت شخصية الشيخ زايد في جوانب إيجابية متعددة عدد هذه الجوانب وتعاون مع زميلك في جمع معلومات عنها من خلال فصول الرواية التي درستها.
6. صِفْ مشاعرك وأنت تختتم فصول الرواية وقد نجح الشيخ في أن يوصل لك الحياة التي عاشها في بداية عمره.

7. ارصدُ الجمل والعبارات التي أعجبتك في الفصول السابقة، واكتبها في قائمة، وناقش مع زملائك ومعلمك كيف استطاعت هذه العبارات أن تصف حياة الشيخ زايد.

8. عدد مظاهر الحكمة والإنسانية في تعاطي الشيخ زايد مع الأحداث.

9. كيف اهتم الشيخ زايد - رحمه الله - بموضوع تمكين المرأة منذ بداية مسيرة حكمه؟

10. عرف الشيخ زايد - رحمه الله - بتعيينه لخبراء ينتقيهم بحكمة وحنكة في مختلف المجالات من أجل بناء وطن سعيد، هل تذكر بعض الشخصيات التي رافقته في مسيرة البناء؟

11. ما المكانة التي أولاها الشيخ زايد - رحمه الله - للتراث والتاريخ في سياق بناء الدولة؟ دلل على ذلك بأمثلة من النص.

12. تبني الشيخ زايد - رحمه الله - مبدأ السلم والتسامح في التعامل مع القريب والبعيد. عزز ذلك بأمثلة من النص.

13. ما الصعوبات التي واجهها الشيخ زايد - رحمه الله - في تأسيس الاتحاد حسب ما فهمت من النص؟

14. تتبع في فصول الرواية كل المواضيع التي يظهر لك فيها أنّ الشيخ زايد - رحمه الله - ينتمي إلى وطنه الكبير.

15. تجلّت إنسانية وتواضع الشيخ زايد - رحمه الله - في مواقف كثيرة ، هل ترى أنّ هذا الأمر يزيد من ارتباط القارئ بالشخصية؟ وضح ذلك.

16. بين الدور الذي قام به الشيخ زايد - رحمه الله - لتعزيز دور المرأة في المجتمع الإماراتي.

17. عرّضت الرواية قضية اجتماعية مهمة ألا وهي «غلاء المهور»، اقرأ الفقرات الدالة على ذلك وناقش هذه القضية مع زملائك.

18. تجلّت سمة التسامح لدى الشيخ زايد - رحمه الله - ، تتبع الأحداث في الرواية، وارصد العبارات والجملي التي تؤكد ذلك.

19. ما أثنى درس تعلمته من رواية «الصقر» ؟ ولماذا؟

لائحة المصادر والمراجع

- Arabian Adventure, Anthony Shepherd, Collins, 1961.
- Aventures in oil, by Henry Longhurst, Foreword by the Rt. Hon. Sir Winston Churchill, Sidgwick and Jackson, London, 1959.
- From Trucial States to United Arab Emirates, Frauke Heard-Bey, Longman Group, 1982.
- Khalifa, Journey into the future, by Graeme H. Wilson, National Archives, Abu Dhabi, 2015.
- Manuel pratique du fauconnier. G.Foye, Librairie Pairault, 1886.
- Memoirs of the Emirates, National Archives, Abu Dhabi, 2012.
- The Marsh Arabs, Wilfried Thesiger, Penguin Classics, 1967.
- The Petroleum Gulf, National Archives, Abu Dhabi, 2016.
- The third river, National Archives, Abu Dhabi, 2007.
- The wind of morning, Colonel Sir Hugh Boustead, an autobiography, éditions Craven Street Books. 2006.
- Zayed, from challenges to Union, Jayanti Maitra Ph.D, National Archives, Abu Dhabi, 2007.
- Zayed, Man who built a nation, by Graeme H. Wilson, National Archives, Abu Dhabi, 2013.
- Qasr al Hosn, The history of the rulers of Abu Dhabi, Dr Jayanti Maitra, Afra Al-Hajji, 1793-1966, National Archives, Center of documentation and Research, Abu Dhabi, 2001.
- Les Emirats Arabes Unis, Monique Jegou, Albin Michel, 1983.
- The Arabe Image in western mass media, The international Press

- Seminar, London, 1980.
- Black Gold and Frankincense, National Archives, National Archives, Abu Dhabi, 2010.
 - The desert Falcon, Claud Morris, The Outline Series of Books, 1976.
 - Le Désert des déserts, Wilfried Thesiger, Plon, 1978, coll. Terre humaine.
 - La vie que j'ai choisie, 1987, traduit en 1990 par Sabine Boulongne, Plon, 1990.
 - Before the Oil: A Personal Memoir of Abu Dhabi 1954-1958, Susan Hillyard, Country Books, 2002.
 - The Art of Falconry from arabia Wesward, Ken Riddle, Abu Dhabi Culture and Heritage. 2009.
 - 50 Memories from fifty years of service, My Story, Mohammed bin Rashid Al-Maktoum, ?Published By Explorer Publishing & Distribution, 2019.
 - Le Pakistan, Michel Boivin, Presses Universitaires de France.
 - Dubaï, The making of Megapolis, Pranay Gupte, Penguin Books, 2011.
 - Les Pays du Golfe, Caroline Piquet, Armand Colin, 2013.
 - Keepers of the Golden Shores, A history of the Emirates, Michael Quentin Morton, Reaktion Books, 2016.
 - Arabian Sands, Wilfried Thesiger, Penguin Books, 1964.
 - Fayçal, roi d'Arabie : L'homme, le souverain, sa place dans le monde, 1906-1975, Benoist-Méchin, Albin Michel. 1975.